مسح العالم

قياس الممالك في دروب المهالك

دانييل كيلمان

@ketab_n
Follow Me
18.6.2014

@ketab_n

ترجمة: كاميران حوج

@ketab_n
Follow Me

مسح العالم

قياس الممالك في دروب المهالك

دانييل كيلمان

ترجمة: كاميران حوج

كلمة
KALIMA

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

Twitter: @ketab_n

مسح العالم

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
مسح العالم: قياس الممالك في دروب المهالك
دانييل كيلمان

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

© حقوق الطبع محفوظة

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

PT2671.E32.V4712 2009
Kehlmann, Daniel, 1975-
[Die vermessung der welt: Roman]
مسح العالم: قياس الممالك في دروب المهالك/ تأليف دانييل كيلمان؛ ترجمة كاميران حوج؛ إشراف علي بن تميم؛ مراجعة وتدقيق إبتسام المتوكل، مصطفى السليمان. ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
228 ص؛ 24x17 سم.
ترجمة كتاب: Die vermessung der welt: Roman
تدمك: 978-9948-01-405-8
1 - Gauss, Carl Friedrich, 1777-1855-Fiction .
2 - Humboldt, Alexander Von, 1769-1859- Fiction .
3 - القصص الألمانية - العصر الحديث. أ- حوّج، كاميران.
ب - تميم، بن علي. ج - متوكل، ابتسام. د. سليمان، مصطفى. هـ- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Daniel Kehlmann, Die vermessung der welt
©2005 Copyright by Rowohlyt Verlag GmbH

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz, Fachbereich Translations-, Sprach-und Kulturwissenschaft, An der Hochschule 2, 76726 Germersheim, Postfach 11 50, 76711 Germersheim. Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

مقدمة

ما الذي يفعله العمر بالإنسان؟ في شبابهما كان أحدهما يدس رأسه الغارق بالأفكار في أوراقه ليجد صياغة جديدة للعالم؛ بأن يجد حلولا لمسائله المجهولة بوسائل الرياضيات والفلك ناسيا ما حوله، بينما يغادر الآخر وطنه الأم ليقوم بالبحث عن الحقائق ذاتها في غابات جنوب أمريكا وجبالها وكهوفها ويراقب ما حوله.

كارل فريدريش غاوس (1777 – 1866) يولد في عائلة فقيرة، ينال في المدرسة صفعات المدرّس حتى يكتشف هذا يوما ما أنه عبْقري في الرياضيات فيؤمن له منحة دراسية. لكن غاوس يجد الدراسة مملة، بل يجد العالم كله مملا، يفكر منذ الطفولة في الموت وفناء العالم، ويسخط على البشرية لأنها «غبية». يدهش من بطء تفكير الناس في محيطه، ويتساءل لماذا لا يستطيعون الرد عن أسئلته بالسرعة المرجوة، لماذا يحتاجون إلى فترة زمنية، إلى «استراحة تفكير» كي يجدوا جوابا عن سؤال. ويظل هذا الشعور يرافقه طوال عمره، فيشتم ابنه على غبائه، ويشتم طلابه لأنهم لا يفهمون أفكاره. أملا في العثور على إنسان واحد يستطيع فهم آرائه يتجه إلى كانط، فيجد هذا في حالة مزرية، عجوزا «يسيل لعابه»، فيفقد الأمل كليا، ويتساءل عن الداعي إلى الحياة ويقرر الانتحار الذي لا يرده عنه سوى موافقة فتاة يحبها على الزواج منه. وبعد وفاتها تستحيل حياته جحيما أكبر، لأنه يتزوج من صديقتها الغبية، وينجب أطفالا لا يجدون سبيلا إلى قلبه. لكنه يكون قد تعلم «الحياة» مع الناس، بل ويكتشف أن تفكيره هو أيضا قد بدأ يتباطأ مع العمر فيزداد نقمة على نقمة.

الرحالة الكسندر فون هومبولدت (1769 – 1859) ينشأ في بيت نبلاء، يدرِّسه أحسن الأساتذة في طفولته، حيث يكون خاملا وكسولا، ثم لا يلبث أن يقرر بعد حادثة تجري معه أن يستكشف العالم الجديد كما لم يستكشفه أحد قبله ويصير «راهبا» للعلم، لا يشارك في حفل زواج أخيه لضيق لانشغاله بالعلم وينتظر وفاة أمه ليبدأ الحياة التي يرغب فيها، حياة العالم. يتجول في أنحاء القارة الجديدة ويدرك أسرارها: القضاء على السكان الأصليين أو تغيير حضارتهم، بناء المستعمرات الأوروبية، تقسيم القارة إلى دويلات متصارعة، نشوء الدولة «العظيمة» الولايات المتحدة الأمريكية وأهدافها الاستعمارية.

Twitter: @ketab_n

وبخلاف غاوس فإنه موثق دقيق، يرسل تقاريره إلى الوطن، وينشرها في الجرائد، هادفا إلى الشهرة والحظوة.

لا يلتقي العالمان اللذان عاشا عصر التنوير وساهما فيه بقدر عظيم إلا وقد أصابتهما سهام القدر بالشيخوخة والوهن ولكل منهما عالم خاص به وتعريفهما للعالم، لكنهما متفقان على أن العالَم يجب أن يقاس ليُعرف: أحدهما قاسه بعقلانية العجوز المجردة، والآخر بحيوية الشاب العملية، ويتشاجران في آخر أيامهما على معنى العلم وغاياته.

في لقاء للعلماء الألمان في برلين يكتشفان أن آمالهما ذهبت هباء وأن اكتشافاتهما لم تؤدّ إلى تغيير مجتمعهما. يكتشف غاوس أن هومبولدت أصبح هُزْأة للعلماء الشباب، فيقول دفاعا عنه أنه لم يجد بين الشباب إلا عقولا عقيمة. وعندما يرسل إليه أحد العلماء الشباب مقالة عن آخر نظرياته، يرد عليه غاوس أنه كان يعرف هذه النظرية منذ الطفولة لكنه لم يبح بها، لأنها كانت تبدو في عينيه واضحة بحيث سيأتي يوم ويكتشفها أحد العقول الصغيرة، فيصبح هو بدوره هُزْأة.

الرواية التي بين أيدينا ليست سردا جميلا لسيرة حياة عالَمَيْن كبيرين فقط، بل إنها تروي أصول الكثير من معارفنا الحديثة، وتتوغل عميقا في نفس الإنسان العالم، لتكشف لنا كثيرا من خباياها بأسلوب شائق ومرح، تمتزج فيه المرارة بالسخرية، سحر العالم الجديد وملل العالم القديم، ثورة الشبيبة على النظم القديمة، وإمكانية تأثر العالِم العقلاني بالخرافة والتنجيم.

بهذا الكتاب أصبحت المكتبة العربية تملك تحفة أدبية هامة، تعد من أفضل إبداعات الأدب الألماني بعد الحرب العالمية الثانية.

Twitter: @ketab_n

الرحلة

في أيلول/سبتمبر عام ألف وثمانمائة وثمانية وعشرين غادر أكبر علماء الرياضيات في المملكة مدينته للمرة الأولى ليشارك في مؤتمر العلماء الألمان في برلين. وطبعا لم يكن يرغب في السفر إلى هناك، وامتنع عنه شهورا وشهورا، إلا أن (الكسندر فون هومبولدت) ألح عليه أيما إلحاح حتى وافق. وذلك في لحظة من لحظات الضعف آملا ألا يأتي ذلك اليوم أبدا.

وهكذا تدثر البروفسور (غاوس) في سريره ولما طالبته (مينا) بالنهوض قائلة: إن العربة في انتظاره، وإن الطريق طويلة، تمسك بمخدته ظانا أن زوجته ستختفي عندما يغمض عينيه، لكنه لما أعاد فتحهما وجدها شاخصة في الغرفة، فصب عليها لعناته قائلا إنها عبء عليه، وإنها غبية وإنها تعاسة حلت عليه في آخر أيامه. وإذ وجد أن اللعنات لا تفيد أزاح الغطاء ونهض من السرير.

نزل البروفسور درج البيت متكدرا بعد أن اغتسل على عجل. كان ابنه (اوجين) ينتظر في غرفة الجلوس حاملا كيس سفر مملوءا باحتياجاته. اهتاج (غاوس) لمجرد مرآه، حطم إناءً موضوعا على حافة النافذة، ودق الأرض بقدميه وضرب بيديه في الهواء، بل إنه لم يهدأ حتى عندما وضع (اوجين) و(مينا) يديهما على كتفيه، كل من ناحية، وأغلظا الأيمان أن المضيفين سيعتنون به كل العناية، وأنه سيعود حالا إلى البيت، وأن الرحلة ستنقضي بغمضة عين كما ينقضي حلم ثقيل. إلا أنه تماسك لما خرجت أمه الطاعنة في السّنّ من حجرتها، لأن الضجيج أقلق راحتها، وقرصت وجنته متسائلة: أين هو ابنها الشجاع، فودع (مينا) دون أن يبدي عواطفه الصادقة تجاهها، مَسَحَ على رأس ابنته، وابنه الصغير شاردا، ثم طلب المساعدة ليصعد العربة.

كانت الرحلة عذابا لا يطاق. صب اللعنات على (اوجين) واصفا إياه بالفاشل الخائب. أخذ منه عكازه، وانهال به على قدمه بكل ما فيه من قوة. نظر عبر نافذة العربة عاقدا حاجبيه ثم سأل: متى ستتزوج ابنته ليتخلص منها؟ ولماذا لا يرضى بها أحد؟ وأين السر في ذلك؟

Twitter: @ketab_n

مَسَحَ (اوجين) شعره الطويل، ورده إلى الخلف، جعّد قبعته الحمراء بيديه، ولم ينبس ببنت شفة. أمره (غاوس) بالنطق، فقال (اوجين): لأن أخته بصراحة ليست جميلة. أومأ (غاوس) برأسه، فقد بدا له الجواب مقبولا، وطلب كتابا.

أعطاه (اوجين) كتاب (فنون ألعاب الساحة والميدان الألمانية)، كتابه المفضل الذي فتحه حالاً.

حاول (غاوس) القراءة، إلا أنه رفع عينيه بعد قليل، واشتكى من العادة المُنْتَشِرة حديثا في تزويد العربات بالنوابض، لأن هذه تدفع على الغثيان أكثر من السابق وقال: قريبا ستبتكر آلات تحمل الناس من مدينة إلى أخرى بسرعة الطلقات. وعندها سيقطعون المسافة بين غوتنغن وبرلين خلال نصف ساعة.

هز (اوجين) رأسه مبديا شكه في مقولة أبيه.

قال (غاوس): إن الحياة غريبة فعلا وغير عادلة. والمثال الواقعي على دور الصدفة التعيسة في الوجود هو أن يولد المرء في زمن معين، ويبقى أسيرا له شاء أم أبى، ما يعني أن له أفضلية من نو ع ما بالنسبة للماضي ولكنه بالنسبة إلى المستقبل يبقى مجرد مهرج. فأومأ (اوجين) برأسه غافيا. تابع (غاوس) القول إن ذكاء مثل ذكائه ما كان سينتج شيئا حقيقيا في العهود القديمة أو على ضفاف نهر اورينوكو، بينما سيضحك عليه أي شخص غبي بعد مائتي عام ويروي عنه كل ما يمكن من الحكايات الخرقاء. شرد قليلا ولعن (اوجين) من جديد واصفا إياه بالفاشل، ثم انشغل بالكتاب. في هذه الأثناء كان (اوجين) ينظر عبر نافذة العربة وهو يضغط على أسنانه كي يخفي وجهه المتكدر –غضبا وحنقا– عن أبيه.

(فنون ألعاب الساحة والميدان الألمانية) كان كتابا عن أجهزة الرياضة، يصف فيه المؤلف بالتفصيل معدات وأدوات ابتدعها ليتمكن الشباب من اللعب عليها وتقوية أبدانهم، مطلقا على إحداها اسم الفرس، وأخرى العارضة، وأخرى الجحش. قال (غاوس) إن مؤلف الكتاب رجل مهووس. فتح النافذة ورمى الكتاب.

صرخ (اوجين) محتجا إن الكتاب كتابه.

قال (غاوس) ساخرا إنه هو أيضا تصور مثل هذا تماما. ثم استغرق في النوم، ولم يستيقظ

Twitter: @ketab_n

إلا مساءً عندما توقفت العربة في مركز الحدود لتبديل الجياد.

وبينما يتم إعداد الجياد تناولا حساء البطاطا في حانة. كان رجل هزيل بلحية طويلة وخدود عميقة، هو النزيل الوحيد عداهما، يحدق فيهما خفية من الطاولة المجاورة. قال (غاوس) الذي أحنقه أنه حلم بأجهزة الرياضة: إن الجسد سبب كل الدناءات. إن بقاء عقل مثل عقله حبيس جسد مريض، بينما لا يمرض جسد عقلٍ متوسط مثل (اوجين) أبدا، دلالة على روح الفكاهة السوداء لدى الإله.

فاعترض عليه (اوجين) بالقول إنه أصيب في طفولته بحصبة مستعصية أوشكت أن تودي بحياته، ومازالت آثار الندوب بادية على وجهه.

أكد (غاوس) صدق كلامه وقال إنه نسي الأمر. ثم أشار إلى جياد البريد أمام النافذة قائلا: مما لا يخلو من الفكاهة أن الأغنياء يحتاجون للسفر ضعف ما يحتاجه الفقراء من الوقت، لأن من يستخدم حيوانات البريد يستطيع تغييرها بعد كل مرحلة، أما من يستخدم حيواناته الخاصة فيضطر للانتظار حتى تستريح من وعثاء السفر.

سأل (اوجين): والمعنى؟

فرد عليه (غاوس): طبعا يبدو هذا الكلام لمن لم يعتد تشغيل عقله بديهيا تماما مثلما يبدو بديهيا أن يحمل شاب في مقتبل العمر عكازا بينما لا يحمله رجل عجوز.

قال (اوجين): إن العادة تقتضي أن يحمل الطالب عكازا، هكذا كانت العادة وهكذا ستبقى.

قال (غاوس): أظن معك حق. وابتسم.

شربا حساء البطاطا صامتين حتى دخل شرطي مركز الحدود وطلب أوراقهما الثبوتية. أعطاه (اوجين) وثيقة العبور، وهي ورقة من البلاط جاء فيها أنه، رغم كونه طالبا، لا يشكل خطرا على الأمن، ويسمح له بدخول الأراضي البروسية برفقة والده. نظر إليه الشرطي مرتابا، ودقق في جواز سفره، ثم أومأ متوجها إلى (غاوس) الذي لم يكن معه أوراق ثبوتية.

سأله الشرطي مستغربا: ولا أي جواز! لا ورقة ولا ختم ولا أي شيء آخر!

Twitter: @ketab_n

رد عليه (غاوس) بالقول إنه لم يحتج مثل هذه الأشياء إطلاقا، إنه قطع حدود هانوفر آخر مرة قبل عشرين عاماً، ولم يعان وقتها من مصاعب.

حاول (اوجين) أن يشرح للشرطي من هما، إلى أين يسافران ومن الذي دعاهما، فمؤتمر العلماء الألمان يعقد برعاية التاج وبهذا يمكن القول إن الملك شخصيا دعا أباه كضيف شرف.

أما الشرطي فألحّ على إطلاعه على جواز سفر ليسمح لهما بالعبور.

قال (اوجين) إنه طبعا لا يعرف، لكن صيت أبيه قد جاوز الآفاق، فهو عضو في جميع الأكاديميات، ويطلق عليه منذ شبابه المبكر لقب: أمير علماء الرياضيات.

أومأ (غاوس) مشيرا إلى ما يشاع من أن (نابليون) امتنع عن قصف غوتنغن تكريما له.

شحب وجه (اوجين).

(نابليون)! كرر الشرطي الكلمة.

قال (غاوس): أي نعم.

طالب الشرطي بجواز السفر بصوت أعلى من ذي قبل.

ألقى (غاوس) رأسه على ذراعيه، ولم يعد يحرك ساكنا. وخزه (اوجين) دون جدوى.

غمغم (غاوس) إن الحكاية كلها لا تهمه، كل ما يريده هو العودة إلى البيت، العودة إلى البيت ولا شيء آخر.

حرك الشرطي قبعته محتارا.

هنا تدخل الرجل على الطاولة المجاورة هاتفا: في يوم من الأيام سينتهي كل هذا! ستتحرر ألمانيا وسيتمكن المواطنون الصالحون من الحياة والسفر دون خوف، سيكونون سليمين جسديا وعقليا ولن يحتاجوا مزقة ورق.

غير مصدق ما سمعت أذناه طلب منه الشرطي هويته.

صرخ الرجل مفتشا في جيوبه: هذا هو بيت القصيد. وفجأة قفز، طرح كرسيه أرضا وهرع خارجا. حملق الشرطي في الباب المفتوح عدة ثوان قبل أن يستعيد وعيه ويركض خلف الرجل.

Twitter: @ketab_n

رفع (غاوس) رأسه ببطء، فاقترح عليه (اوجين) متابعة الرحلة فورا. أومأ (غاوس) بالموافقة وتناول بقية حسائه صامتا. كان مخفر الشرطة خاليا فقد شارك الشرطيان الوحيدان في ملاحقة الرجل الملتحي. معا رفع (اوجين) والحوذي حاجز الحدود وبذلك دخلوا الأراضي البروسية.

وهكذا شعر (غاوس) بالراحة وببعض المرح. تكلم عن الهندسة التفاضلية: من الصعوبة بمكان توقع أين ينتهي المطاف في المكان المحدب. هو نفسه لا يفهم إلا الخطوط العريضة للمسألة. على (اوجين) أن يكون سعيدا بمستوى عقله المتوسط فأحيانا يشعر الذكي بالذعر والخوف. ثم تحدث عن مرارة شبابه فقال إن أباه كان قاسيا شديدا وعلى (اوجين) أن يعد نفسه سعيدا مقارنة به. قال إنه تعلم الحساب قبل أن ينطق بكلمته الأولى. ذات مرة أخطأ أبوه في حساب مرتبه الشهري فبدأ بالبكاء، ولم يكف إلا عندما،صحح الأب خطأه.

تظاهر (اوجين) بالتأثر بالرواية رغم علمه بأن القصة مختلَقة. فقد اخترعها ونشرها أخوه (يوسف) وأعيد تكرارها على مسمع الأب مئات المرات حتى بدأ هو نفسه يصدقها.

جاء (غاوس) على ذكر الصدفة، عدو العلوم كلها، الذي طالما أراد الانتصار عليه: إذا دققنا النظر نجد وراء كل حدث الدقة اللانهائية للسببية. إذا كان المراقب يقف على بعد كاف، تظهر له النماذج الكبرى. مسألة الحرية والصدفة مسألة البعد المتوسط. المسافة معضلة. وسأل (اوجين) إن كان يفهمه.

– رد عليه (اوجين): تقريباً. ونظر إلى ساعة جيبه. لم تكن الساعة صحيحة لكنه توقع أن تكون بين الثالثة والنصف والخامسة فجرا.

تابع (غاوس) بينما يضغط بيديه على ظهره الذي يؤلمه: لكن قوانين الاحتمالات ليست صالحة بالضرورة. إنها ليست قوانين طبيعية ولذلك تطرأ الاستثناءات. مثلا: عقل مثل عقله، أو القمار الذي يربحه دائما شخص غبي، ظواهر لا يمكن إنكارها. بل يظن أحيانا أن لقوانين الفيزياء ذاتها مجرد أثر إحصائي بحت مع بعض الاستثناءات كالأشباح وتوارد الخواطر.

Twitter: @ketab_n

تساءل (اوجين) إن كان يمزح.

قال (غاوس) إنه ذاته لا يعرف. أغلق عينيه وغرق في النوم.

وصلوا إلى برلين مساء اليوم التالي. كانت المدينة عبارة عن آلاف البيوت الوضيعة دون مركز أو تنظيم، مستوطنة متطرفة قائمة في أكثر بقاع أوروبا امتلاء بالمستنقعات. للتو شيدت مبان فخمة: كاتدرائية، وبعض القصور، ومتحف للقى رحلة (هومبولدت) الاستكشافية.

قال (اوجين): بعد عدة سنوات سيصبح هذا المكان عاصمة كبيرة مثل روما وباريس أو سانت بطرسبورغ.

عارضه (غاوس): مستحيل، مدينة قذرة.

كانت العربة تتقافز على الشوارع سيئة التعبيد، جفلت الجياد مرتين من الكلاب النابحة وكادت العجلات تنغرز في الرمل الرطب على الطرقات الجانبية أكثر من مرة. كان مضيفهم يقطن في شارع باكهوف رقم أربعة، وسط المدينة، مباشرة خلف مبنى المتحف الجديد الذي مازال قيد البناء. كان (غاوس) قد رسم لنفسه خارطة دقيقة جدا بخيوط رقيقة كي لا يخطئوا الطريق. لا بد أن أحدا رآهم من بعيد وأعلن عن وصولهم، فما إن دخلوا الحديقة حتى فتح باب البيت على عجل وهرع أربعة رجال لاستقبالهم.

كان (الكسندر فون هومبولدت) رجلا قصيرا وعجوزا، بشعر ناصع البياض. وجاء من خلفه كاتب يحمل دفترا مفتوحا، ثم ساعٍ في ملابس الخدم الرسمية وشاب طويل السالفين، يحمل عمودا عليه صندوق خشبيٍ. اتخذوا أمكنتهم وكأنهم تدربوا على المشهد من قبل. مدَّ (هومبولدت) ذراعيه نحو باب العربة.

لم يحدث شيء.

جاءت جلبة من داخل العربة. صرخ أحدهم: لاْ، لا. جاء صوت ضربة مكتومة، ثم جاءت لا ثالثة. ثم لم يحدث شيء.

أخيرا فتح الباب ونزل منه (غاوس) ببالغ الحِذر. اقشعر عندما وضع (هومبولدت)

Twitter: @ketab_n

يده على كتفه صائحا: يا للشرف العظيم، يا للحظة العظيمة بالنسبة إلى ألمانيا وللعلم وإلي ه شخصياً.

دوّن الكاتب مقول القول ودمدم الرجل خلف الصندوق الخشبي: الآن.

تسمر (هومبولدت) في مكانه وهمس دون أن يحرك شفتيه:هذا هو السيد (داغير)، الذي يعمل على آلة تنتزع البرهة من الزمن الهارب، تحتفظ بها للأبدية على طبقة من نترات الفضة، حساسة للضوء. الرجاء عدم التحرك إطلاقا.

قال (غاوس) إنه يريد العودة إلى البيت.

همس (هومبولدت): لحظة واحدة فقط. حوالي خمس عشرة دقيقة لا أكثر، فقد أجريت على الآلة تطورات كبيرة، قبل الآن كان الأمر يدوم أطول بكثير. لقد تصور لدى المحاولة الأولى أن ظهره لن يتحمل الوقوف طوال الوقت. أراد (غاوس) الهرب، لكن الرجل القصير أمسك به بقوة غير متوقعة منه، وغمغم: إعلام الملك. فانطلق الساعي من فوره. ثم قال (هومبولدت)، ربما لأن الفكرة وردت في خاطره لتوه: ملاحظة. اختبار إمكانية تربية الفقمة في بحيرة فانه موينده. الشروط تبدو مواتية. اختبار. تقديم النتائج لي غدا. دوّن الكاتب ما قاله.

اعتذر (اوجين)، الذي نزل من العربة في هذه اللحظة وهو يعرج، عن وصولهم المتأخر.

غمغم (هومبولدت): هنا لا توجد ساعة متأخرة أو مبكرة. هنا لا شيء غير العمل وهذا ما يقومون به الآن. لحسن الحظ مازال هناك ضوء. اثبت.

دخل شرطي الحديقة وسأل عما يجري.

دمدم (هومبولدت) وهو يضغط على شفتيه: ليس الآن.

قال الشرطي إن هذا تجمع، فإما أن يتفرقوا فورا أو يأخذ القانون مجراه.

دمدم (هومبولدت) أنه ياور الملك.

انحنى الشرطي متسائلا، ماذا؟

فأعاد كاتب (هومبولدت) الكلام: ياور . من البلاط.

Twitter: @ketab_n

طلب (داغير) من الشرطي أن يخرج من الصورة.

تراجع الشرطي مقطب الجبين قائلا، أولا يمكن لمن شاء أن يدعي هذا. ثانيا منع التجمع يسري على الكل وهذا، قال مشيرا إلى (اوجين)، من الواضح أنه طالب ولهذا فالقضية تتعقد أكثر.

قال له الكاتب إنه إذا لم يغادر المكان على الفور، فسيتورط في مشكلات لا يتصورها.

جاوب الشرطي مترددا: ما هكذا يتم التحدث إلى ابن الحكومة، وأردف أنه يعطيهم خمس دقائق.

تنهد (غاوس) وأفلت من قبضة (هومبولدت).

قال (هومبولدت): لا، حرام!

دق (داغير) الأرض بقدمه متذمرا: الآن ضاعت اللحظة للأبد.

قال (غاوس) هادئا: ككل ما غيرها، ككل ما غيرها.

وفعلا، بينما كان (غاوس) يشخر في الغرفة المجاورة بحيث يسمع صوته جميع من البيت، لم يتعرف (هومبولدت) على شيء يذكر على اللوح النحاسي المضاء تحت عدسته عندما فحصه في الليلة ذاتها. بعد قليل لاح له أنه يرى الظلال المتداخلة لبعض الأشباح، الرسم المموه لشيء ما يبدو كصورة تحت الماء، في وسطها يد، وثلاثة أحذية، وكتف، وذراع بدلة والجزء السفلي من أذن. أم لا؟! رمى اللوح من النافذة متنهداً وسمعه يرتطم بأرض الباحة. بعد ثوان كان قد نسيه تماما، كما نسي كل ما فشل فيه.

Twitter: @ketab_n

كان (الكسندر هومبولدت) مشهورا في كل أصقاع أوروبا نتيجة رحلة قام بها في الغابات الاستوائية قبل خمسة وعشرين عاما. وقد وصل في رحلته إلى اسبانيا الجديدة، غرناطة الجديدة، برشلونة الجديدة والولايات المتحدة، واكتشف القنال الطبيعي الذي يصل نهري اورينوكو والأمازون، تسلق قمة أعلى جبل في العالم المعروف، جمع آلاف النباتات ومئات الحيوانات، بعضها حي وأكثرها ميت، تحدث مع طيور الببغاء، انتشل جثثا من المقابر، قاس كل نهر، وجبل، وبحيرة صادفها في طريقه، زحف إلى جميع الجحور التي رآها، وتذوق توتا بريا، وتسلق أشجارا لا تحصى.

كان الأخ الأصغر من اثنين. توفي والدهما الثري من طبقة النبلاء الدنيا، مبكرا. وما وجدت أمهما من تستشيره في شؤون تربيتهما شخصا أقل شأنا من الشاعر (غوته).

فأجاب هذا: إن شقيقين تظهر عليهما علامات السعي الإنساني، أي حيث تحققت الطبيعة الوافرة بأمثل علاماتها إزدهارا واستمتاعا، هما والحق مشهدٌ حادثٌ لملء الروح بالأمل والذهن بكثير من الفكَر.

لم يفهم هذه الجملة أحد. لا الأم، ولا مربيهما (كونت)، السيد النحيل، ذو الأذنين الطويلتين. بعد تفكير مستديم قال (كونت) إنه يظن أن الحل يكمن في إجراء تجربة علمية على الصغيرين وأوصى بتثقيف أحدهما في المدنية والآخر في العلوم.

ـ وأيهما في أي مجال؟

فكر (كونت) مليا، ورفع كتفيه محتارا واقترح إجراء قرعة بقطعة نقدية. ألقى خمسة عشر أخصائيا ذوي أجر عال على الطفلين محاضرات من مستوى الجامعة. خصوا الأخ الصغير بعلوم الكيمياء والفيزياء والرياضيات، وخصوا الكبير باللغات والآداب. كما درّسوا الاثنين لغات اللاتين والاغريق والفلسفة. اثنتي عشرة ساعة في اليوم، طوال الأسبوع دون راحة أو عطلة.

كان الأخ الصغير (الكسندر) كثير الصمت ضعيف البدن، ينال درجات متوسطة ويضطر المدرسون لدفعه للتعلم دفعا. وكان إذا ترك بحاله، يتجول في الغابات ويجمع

Twitter: @ketab_n

الخنافس ويصنفها في منظومات ابتدعها لنفسه. ركّب وحده في التاسعة من عمره نموذجا لمانع الصواعق، الذي اكتشفه (بنيامين فرنكلين)، وثبته على سطح قصرهم قرب المدينة، وكان هذا مانع الصواعق الثاني في ألمانيا كلها، حيث كان الآخر مثبتا على سطح بيت أستاذ الفيزياء (ليشتنبرغ) في غوتنغن. في هاتين البقعتين وحدهما، كان الناس آمنين من غضب السماء.

أما الأخ الكبير فكان يبدو كالملاك، ينطلق بالحديث كشاعر وبدأ في سن مبكرة جدا بكتابة رسائل تنطق بحكمة الشيوخ إلى مشاهير البلاد. لم يكن أحد يتمالك نفسه من الإعجاب به. في الثالثة عشرة أتقن لغتين، في الرابعة عشرة أربع لغات وفي الخامسة عشرة سبع لغات. لم يحدث أن عوقب حتى هذه السن، ولا أحد يتذكر أنه ارتكب خطأ ما في حياته. كان يتحدث مع رسول انكلترا عن السياسة التجارية، ومع رسول فرنسا عن مخاطر العصيان. حبس أخاه الصغير ذات مرة في خزانة في حجرة قصية. وعندما وجد أحد الخدم، في اليوم التالي، الأخ الصغير يكاد يغمى عليه، ادعى هذا أنه حبس نفسه بنفسه، عالما أن أحدا لن يصدقه لو قال الحقيقة. وذات مرة اكتشف الصغير مسحوقا أبيض في طعامه، وكان قد تعلم الكيمياء فأدرك أنه سم الجرذان، فأبعد صحنه بيدين مرتعشتين بينما كان أخوه الكبير يحدق فيه بعينين براقتين، فيهما إكبار وتقدير.

لم يكن لأحد أن ينكر وجود الأشباح في القصر. لم تكن الأرواح تثير الكثير من الضوضاء، فقط بعض الخطوات في الردهات الفارغة، وبكاء أطفال لا يعرف له مصدر، وأحيانا طيف سيد يصر صريرا مطالبا أن يشتري منه أهل البيت كتبا أو ألعابا ممغنطة أو كأس عصير. لكن الأمر المرعب أكثر من الأشباح ذاتها كانت تلك الحكايات التي تروى عنها. أعطى (كونت) الولدين كتبا عن الرهبان، عن القبور المفتوحة، عن الأيدي التي تمتد من الأعماق وعن الإكسير الذي يعد في العالم السفلي وعن عالم الأرواح، حيث يتحدث الموتى إلى مستمعين متحجرين من الهلع. أمثال هذه الكتب كانت قد صارت تقليدا مازال في طور الحداثة، بحيث لم تكن أي عادة بقادرة على الوقوف بوجه الرعب الذي تنشره في النفوس. برر (كونت) موقفه بأن هذه الكتب أيضا ضرورية، وأن التعرف على

Twitter: @ketab_n

عالم الظلمات حاجة لا بد منها للنشء، لأن من لا يعرف الخوف من الغيب لن يصبح ألمانيا حقيقيا. ذات مرة قرأ الشقيقان خرافة عن (آغير) المجنون، الذي خرج عن طاعة الملك، وأعلن نفسه قيصرا. في رحلة كابوسية لا مثيل لها سافر (آغير) ورجاله مع نهر اورينوكو الذي تتراصف الشجيرات على ضفتيه بحيث لا يمكن الوصول إلى بر الأمان، وحيث تزعق الطيور بألسن شعوب منقرضة، وإذا رفع أحدهم نظره نحو الأعلى فإن السماء تعكس صور مدن توحي عمارتها أن بنائيها ليسوا من جنس البشر.

لم يصل إلى تلك الأنحاء إلا ندرة من العلماء، كما لم يرسم لها أحد خارطة يعتمد عليها.

قال الأخ الصغير لكنه هو سيفعلها، هو سيسافر إلى تلك الأصقاع.

قال الأخ الكبير: إنه متأكد من هذا.

قال الصغير: إنه جاد.

قال الكبير: هذا واضح. ونادى خادما ليشهد على اليوم والتاريخ، لأن العالم سيسر ذات يوم بتوثيق تاريخ وساعة هذه اللحظة.

كان (ماركوس هرتز)، أحب طلاب (عمانوئيل كانط) إلى قلبه وزوج (هنرييته) المشهورة بجمالها، يدرسهما الفيزياء والفلسفة. صب (هرتز) عنصرين في إناء زجاجي، فتغير لون المحلول فجأة. ترك الهيدروجين يخرج من أنبوب، ووضع لهبا على الفوهة فارتفعت النار، وقال المعلم: نصف غرام، وترتفع الشعلة اثني عشر سنتمترا. وأضاف: إذا خاف أحدنا من الأشياء، فمن الأفضل له أن يقيسها، حتى يقضي على خوفه منها.

كان المثقفون يلتقون مرة في الأسبوع في صالون (هنرييته)، يتحدثون عن شؤون الآخرة ومشاعرهم، ويبكون قليلا، ويتراسلون، ويسمون أنفسهم بعصبة الفضيلة. ما كان أحد يعرف من أين جاء هذا الاسم. كان الحفاظ على سرية الأحاديث التي يجرونها وإخفاؤها عن العالم الخارجي واجبا محتما على الأعضاء، إلا أن العضو كان يتحدث إلى الإخوة الآخرين عما يجري في نفسه بمطلق الصراحة، ويعطيه معلومات كاملة. أما إذا لم تختلج نفس أحدهم بشيء، فكان عليه أن يخترع شيئا ما. كان الشقيقان أصغر أعضاء العصبة.

Twitter: @ketab_n

قال لهما (كونت) إن عضوية العصبة أمر لابد منه، وعليهما ألا يتغيبا عن اجتماعاتها مهما حدث، لأن حضور الاجتماعات يساعد على تربية القلب. وشجعهما بالتحديد على الكتابة إلى (هنرييته) مبرهنا لهما على أن إهمال تثقيف العاطفة في مقتبل العمر قد يؤدي إلى عواقب لا تسر مستقبلا. من البديهي أن الشقيقين كانا يعرضان رسائلهما عليه. وكما هو المتوقع كانت رسائل الأخ الكبير هي الأفضل.

كانت (هنرييته) ترد عليهما بلطف وأدب بخط متعثر كخط الأطفال، فقد كانت هي ذاتها قد بلغت التاسعة عشرة توا. عاد كتاب أرسله لها الأخ الصغير دون أن تقرأه، كتاب (الإنسان الآلة) لمؤلفه (لامتري). ردت عليه (هنرييته): إن الكتاب ممنوع، وإنه عار على الإنسانية، وجدير بالاحتقار، وإنها لا تطيق فَتْحَه.

قال الأخ الصغير للكبير: إنه يأسف لهذا، فالكتاب جدير بالملاحظة. يدعي فيه الكاتب جادا أن الإنسان آلة، وأنه هيكل يعمل ذاتيا له قدرات عاليه على الصناعة.

رد الكبير: ولا روح فيه. مضيا عبر حديقة القصر. كانت طبقة رقيقة من الثلج تغطي الأشجار الجرداء.

عارضه الصغير: كلا، له روح، له حدس وإحساس شاعري بالبعيد والجميل، إلا أن هذه الروح ذاتها ليست إلا جزءا من الآلية وإن كان الجزء الأكثر تعقيدا، وهو يتساءل إن لم تكن هذه هي الحقيقة بعينها.

ـ كل البشر آلات؟

قال الصغير متفكرا: ربما ليس كلهم، لكنْ نحن آلات.

كان سطح البركة متجمدا والغسق يضفي لونا أزرق على الثلج وضفائر الجليد. قال الأخ الكبير إنه يريد إعلامه بشيء ما، ألا وهو أن المجتمع يخشى عليه. فصمته وانغلاقه على نفسه وبطؤه في التعلم كلها تثير القلق في النفوس. إن هناك تجربة عظيمة تجري، يقرران هما نتائجها ولذلك لا يحق لأحدهما أن يتكاسل أو ينهزم. تردد هنيهة ثم قال: إن الجليد بالمناسبة متصلب.

ـ فعلا؟

Twitter: @ketab_n

ـ طبعا، بالتأكيد.

أومأ الصغير، سحب نفسا عميقا وسار على سطح البحيرة. تساءل إن كان عليه اقتباس قصيدة (كلوبشتوك) عن التزحلق على الجليد، وانزلق إلى وسط البحيرة فاتحا ذراعيه. دار حول نفسه. كان شقيقه واقفا على الضفة يراقبه حانيا ظهره إلى الخلف.

فجأة حل السكون. لم يعد يرى شيئا وكاد البرد القارس يفقده أحاسيسه. هنا أدرك أنه تحت الماء. دفع الماء برجليه، اصطدمت رأسه بمادة صلبة، بالجليد. انزاحت قبعة الفرو عن رأسه وسبحت في الماء. انتصب شعر رأسه. ضربت قدماه قعر البحيرة. كانت عيناه قد اعتادتا الظلام في هذه المرحلة. لبرهة شاهد سهوبا متجمدة. شاهد عيدانا مرتجفة فوقها عشيبيات شفافة كحجاب، وسمكة وحيدة تلوح وتختفي فجأة كخداع بصري. قام بحركات من يسبح، صعد، اصطدم مرة أخرى بالجليد، اتضح له أنه لم يعد لديه إلا ثوان معدودات للبقاء على قيد الحياة. تلمَّس بيديه وفي ذات اللحظة، حيث لم يعد في رئتيه هواء كاف، رأى بقعة مظلمة فوق رأسه، إنها الفتحة، اندفع نحو الأعلى، شهق وزفر وبصق، جرح الجليد الحاد يده، مط جسمه فوق الجليد، تلوى على نفسه، سحب رجليه وتمدد على الجليد متلاحق الأنفاس منتحبا. استلقى على بطنه وجر جسده جرا إلى الضفة. كان أخوه مازال على وقفته، حانيا ظهره إلى الخلف، واضعا يديه في جيوبه وقبعته تغطي وجهه. مد يده وساعده للوقوف على قدميه.

عادته الحمى في الليل، وسمع أصواتا لا يعرف إن كانت تصدر عن أشباح خياله، أم عن الناس المحيطين بسريره، وشعر بالبرد في عظامه. كان رجل ما يَذْرع الغرفة جيئة وذهابا بخطوات واسعة، ربما هو الطبيب، ويقول: قررْ هل ستوفّق أم لا! هذا قرار، وبعدها ما على الرجل إلا التحمل، ليس أكثر. لكن عندما أراد الرد عليه لم يعد يتذكر ما قيل، وعوضا من الجواب رأى أمام عينيه بحرا ممتدا على اتساعه تحت سماء تشع فيها الكهرباء، ولما فتح عينيه من جديد، كان الوقت ظهيرة اليوم التالي، وشمس الشتاء الشاحبة معلقة في النافذة، والحمى أخف.

بعدها تحسنت درجات امتحاناته. عمل بتركيز أكثر واتخذ عادة تكوير قبضتيه أثناء

Twitter: @ketab_n

التفكير وكأن عليه الانتصار على عدو خفي. كتبت له (هنرييته) أنه تغير، وأنه صار يخيفها الآن قليلا. رجا أن يقضي وحده ليلة في الغرفة الفارغة، حيث تسمع أكثر الأصوات ليلا. في صباح اليوم التالي كان شاحبا وصامتا، وارتسمت على جبينه أولى التجاعيد الأفقية.

قرر (كونت) أن يدرس الأخ الكبير الحقوق، والصغير شؤون الخزانة الأميرية. فسافر معهما إلى الجامعة في فرانكفورت على نهر اودر، ورافقهما في المحاضرات، وراقب التطورات الجارية عليهما. لم يكن المعهد العالي جيدا. كتب الأخ الكبير إلى (هنرييته): إذا كان أحدهم عاجزا كليا، ويريد الحصول على لقب دكتور، فما عليه إلا الالتحاق بهذه الجامعة. كما أخبرها بوجود كلب ضخم في هيئة التدريس لأسباب لا يعلمها إلا الله، كلب يحك نفسه كثيرا ويصدر أصواتا.

رأى الأخ الصغير لأول مرة لدى عالم النباتات (فيلدينوف) نباتات مجففة من الغابات الاستوائية. كان لها شكل ريش الكتابة، وبراعم كالعيون، وأوراق لسطحها ملمس جلد الإنسان، بدت له معروفة من أحلامه. قطّعها، كتب ملاحظاته بعناية فائقة. اختبر رد فعلها على الحوامض والأسس، وصنع منها مستحضرات.

أخبر (كونت) أنه يعلم الآن بماذا سيشغل نفسه. بالحياة.

رد عليه (كونت) أنه يمتنع عن الموافقة على هذا القرار، فبالنهاية للمرء في هذا العالم واجبات أخرى عدا الحضور فيه. الحياة وحدها ليست مضمون الوجود.

رد عليه أنه لم يَعْن هذا، أنه يريد استقصاء أسرار الحياة، يريد أن يعرف لماذا تحاصر الحياة الكرة الأرضية بكل هذا العناد، يريد أن يصل إلى أعماق أسرارها.

بهذا سمح له (كونت) بالبقاء ومتابعة الدراسة لدى (فيلدينوف).

في الفصل الدراسي التالي انتقل الأخ الكبير إلى جامعة غوتنغن فوجد هناك أول الأصدقاء، وشرب الكحول للمرة الأولى، ولمس امرأة، بينما كتب الأخ الصغير أول بحث علمي.

قال (كونت) إنه جيد، لكنه ليس جيدا كفاية للنشر باسم (هومبولدت). عليه أن ينتظر قليلا لينشر أبحاثه.

Twitter: @ketab_n

أثناء العطلة الدراسية زار أخاه الكبير. تعرف في حفل استقبال أقامه القنصل الفرنسي على عالم الرياضيات (كيستنر)، وعلى صديقه مستشار البلاط (تسيمرمان) وأهم علماء الفيزياء التجريبية في ألمانيا البروفسور (غيورغ كريستوف ليشتنبرغ). برقة ضغط هذا على يده فرحا. كان محدودب الظهر، إلا أنه ذو وجه جميل لا يعاب، كتلة من اللحم والذكاء. سأله (هومبولدت) إن كان حقا ما يشاع عن أنه يكتب رواية؟

– نعم ولا، رد عليه (ليشتنبرغ) زائغ البصر كأنه يرى شيئا لا يشعر به (هومبولدت) وتابع إن العمل يَتحدَّثُ (عن غونكل)، وتدور أحداثه حول لا شيء ولا يتقدم خطوة واحدة.

قال (هومبولدت) إن كتابة الرواية تلوح له أفضل السبل للإمساك باللحظة الهاربة من الحاضر لأجل المستقبل.

قال (ليشتنبرغ): والله!

احمرَّ (هومبولدت) وأضاف: وبهذا فإن في اختيار الكاتب لماض زائل مسرحا لأحداث الرواية، كما درجت العادة الآن، تطاول أحمق.

حدق فيه (ليشتنرغ) بعينيه الدقيقتين ثم قال: نعم ولا.

على الطريق إلى البيت شاهد الشقيقان قرصا فضيا آخر بجانب القمر الطالع توا إلا أنه أصغر قليلا. شرح الأخ الكبير للصغير الظاهرة بأنها كرة الهواء الساخن وقال إن (بيلاتر دو روزيه)، مساعد (مونغولفييه) يقيم في الوقت الراهن في مدينة براونشفايغ القريبة، إنه حديث الساعة، وقريبا سيطير كل الناس في السماء.

فقال الصغير: لكنهم لن يريدوا، سيخافون كثيرا.

قبل رحيله بقليل تعرف على الشخصية المشهورة (غيورغ فورستر)، الرجل النحيل، كثير السعال، ذي الوجه الذي لا يدل على الصحة. كان هذا قد سافر في أرجاء الدنيا برفقة الرحالة (كوك) ورأى من العالم أكثر من أي إنسان آخر في ألمانيا وصار بذلك أسطورة طوت شهرة كتابه الآفاق ويعمل أمين مكتبة في مدينة ماينز. كان (فورستر) يسرد القصص عن التنانين وعن الموتى الأحياء، وعن آكلي لحم البشر بالغي التهذيب، وعن أيام كان البحر

Twitter: @ketab_n

فيها نقيا بحيث يظن الراكب أنه يسبح على القاع، وعن أعاصير تدخل الروع في القلب، حتى لا يجرؤ المرء على الصلاة.

كانت السوداوية تحيط به كضباب شفيف. قال إنه رأى الكثير في حياته ويروي عما رآه مثل اوديس والسيرينات. قال: لاجدوى من التعلق بالسارية، حتى الناجي لا يجد راحة من قرب الغريب. إنه لم يعد قادرا على النوم إلا قليلاً، الذكريات تعذبه. قبل عهد غير بعيد وصلته الأنباء بأن آكلي لحم البشر في هاواي طبخوا قبطانه، (كوك) الضخم والأسود، وأكلوه. مسح جبينه وتملى مهمازه ثم كرر كلماته: طبخوه وأُكلوه.

قال (هومبولدت) إنه هو أيضا يريد السفر.

أومأ (فورستر): البعض يريد هذا والكل يندم عليه لاحقا.

– لماذا؟

– لأن أحدا لا يستطيع العودة.

نصحه (فورستر) بالالتحاق بأكاديمية المناجم في فرايبرغ. هناك كان (أبراهام فرنر) ينشر تعاليمه: باطن الأرض بارد وصلب. الجبال تنشأ بفعل تجمدات كيميائية في الاوقيانوس الأزلي المتقلص. البراكين لا تنبع بأي حال من الأحوال من الباطن العميق بل تغذيها جيوب الفحم المشتعلة، نواة الأرض تتألف من صخر متجمد. كان اسم هذه التعاليم النظرية النبتونية وتدافع عنها الكنيستان وكذلك (يوهان فولفغانغ فون غوته). رجا (فرنر) قراءة الصلوات في كنيسة فرايبرغ على أرواح خصومه الذين ينكرون الحق. مرة كسر أنف أحد الطلاب المشككين بنظريته وأشيع أنه قطع أذن آخر عضا قبل أعوام كثيرة. كان أحد آخر السيميائيين في عصره: عضو محافل سرية، عارفا بالعلامات التي تخضع لها العفاريت، قادرا على إعادة تركيب ما دمر، على إعادة تشكيل المواد المحترقة من الدخان والمواد المهشمة في جسم صلب، كما أنه تحدث مع الشيطان وصنع ذهبا. ومع هذا لم يكن يترك لدى الآخرين انطباعا عن الذكاء. تراجع في جلسته، قلص جفنيه وسأل (هومبولدت) إن كان نبتونيا ويؤمن بباطن الأرض البارد.

فأكد له (هومبولدت) إيمانه.

Twitter: @ketab_n

قال (فرنر): عليه إذا أن يتزوج، فاحمر (هومبولدت).

نفخ (فرنر) وجنتيه واصطنع سحنة المتآمرين وسأله إن كان عنده خليلة.

قال (هومبولدت): إن المرأة ليست أكثر من عائق، والرجل يتزوج إذا لم يكن أمامه هدف سام.

حدق فيه (فرنر).

أردف (هومبولدت) سريعا: هكذا يقال. طبعا عن غير حق.

قال (فرنر): إن العازب لن يكون نبتونيا جيدا قط.

ذاكر (هومبولدت) منهاج الأكاديمية في ربع عام. كان يقضي ست ساعات تحت الأرض صباحا، يسمع المحاضرات ظهرا ويحضّر مساء ونصف الليل لدروس اليوم التالي. لم يكن لديه أصدقاء. وعندما دعاه شقيقه لحفل زفافه قائلا إنه وجد امرأة تجدر به تماما، امرأة لا مثيل لها على وجه الأرض، رد بأدب أنه لن يستطيع القدوم لقلة وقته. كان يزحف خلال أدنى السراديب حتى اعتاد الخوف من المكان، كما يعتاد المرء على ألم لا يكف عن الإيلام لكنه يطاق بمرور الزمن. واظب على قياس درجات الحرارة وأدرك أنه كلما نزل أعمق في باطن الأرض ارتفعت الحرارة، مما يخالف كل تعاليم (ابراهام فرنر). لاحظ وجود حياة نباتية حتى في أحلك الكهوف ظلمة. بدا وكأن الحياة لا تتوقف عند حد معين، فقد وجد في كل مكان نوعا من أنواع العفن والعُشْبِيّات، وأثرا من آثار العشيبات. كانت هذه العشيبات تخيفه ولهذا شرّحها وفحصها، وصنفها وكتب عنها مقالة. وبعد أعوام، عندما عثر على نباتات شبيهة في كهف الموتى، كان مستعدا لها.

أنهى الدراسة ونال بِزةً عليه ارتداؤها في الحِل والتَرْحال. حصل على وظيفة ناظر في دائرة الثروات السطحية والمناجم. وكان يشعر بشديد الخجل لأنه فخور بهذا اللقب، كما كتب في رسالة عنونها إلى شقيقه.

بعد عدة أشهر صار أشهر مفتش مناجم يعتمد عليه في بروسيا كلها. بحكم منصبه اطلع على مناجم النسيج النباتي المتفحم، والفحم السطحي وأفران معامل الرخام الملكية. وفي كل مكان حل فيه كان يرعب العمال بالسرعة العالية التي يدون بها ملاحظاته. كان

Twitter: @ketab_n

دائم الترحال، ينام ويأكل قليلاً ولا يعلم بنفسه ما معنى كل ما يفعله. كتب إلى شقيقه أن فيه مسا يدعوه إلى الخوف من فقدان الرشد.

بالصدفة صار بين يديه كتاب (جالفاني) عن التيار والضفادع. كان (جالفاني) قد ربط بين أفخاذ ضفادع مبتورة بمعدنين مختلفين فارتعشت الأفخاذ كأنها حية. هل جاءت الرعشة من الأفخاذ، التي قد يكون فيها بعض الحياة، أم نشأت نتيجة اختلاف المعادن وكان دور الأفخاذ أن جعلتها مرئية فقط؟ قرر (هومبولدت) العثور على جواب.

خلع قميصه، وانبطح على السرير، وأمر الخادم بإلصاق حجامين على ظهره. فأطاع الخادم وظهرت فقاعتان كبيرتان على ظهر (هومبولدت). أمر الخادمَ أن يشق الفقاعتين. تردد الخادم، اضطر (هومبولدت) للصراخ فيه. فتناول الخادم المبضع، الذي كان حادا لدرجة لم يشعر معها بالألم. تقاطر الدم على أرضية الغرفة. أمر (هومبولدت) بوضع قطعة توتياء في أحد الجروح. تساءل الخادم إن كان يسمح له باستراحة قصيرة لأنه يشعر بالغثيان.

أمره (هومبولدت) بألا يتغابى. عندما لا مست قطعة الفضة الجرح الآخر سار نبض موجع عبر عضلات ظهره حتى وصل رأسه. دوّن بيد مرتجفة: تقلص العضلات، العظم القذالي، لسع متتابع في العمود الفقري. لا شك، هنا ظهرت آثار التيار الكهربي. أمر الخادم بإضافة الفضة مرة أخرى. عد أربع خفقات متتالية على فترات متساوية، ثم اختفت الألوان عن الأشياء.

عندما استعاد وعيه كان الخادم جالسا على الأرض شاحب الوجه، دامي اليدين.

– تابعْ! أمره (هومبولدت) واكتشف مذعورا أنه يشعر بنوع من اللذة.

قال: والآن جاء دور الضفادع.

قال الخادم: لا ، الضفادع لا.

سأله (هومبولدت) إن كان ينوي البحث عن عمل في مكان آخر.

وضع الخادم أربعة ضفادع ميتة ومنظفة بعناية على ظهر (هومبولدت) الدامي. ثم قال: الآن يكفي، نحن بحق الله مسيحيون.

Twitter: @ketab_n

تجاهله (هومبولدت) وأمره: الفضة مرة أخرى. وما إن وضع الخادم الفضة حتى مرت الخفقات ورأى في المرآة أن الضفادع تقفز على ظهره مع كل صعقة كأنها حية. عض المخدة وتبلل النسيج بدموعه. ضحك الخادم ضحكا هستيريا مخنوقا. أراد (هومبولدت) أن يدون ملاحظات لكن يده كانت ضعيفة جدا. نهض ببالغ الصعوبة. وتدفق من الجرحين سائل كاو يلهب جلده. حاول (هومبولدت) أن يجمع بعض القطرات في زجاجة إلا أن كتفه كانت متورمة ولم يتمكن من الالتفات. نظر إلى الخادم.

هز هذا رأسه.

قال (هومبولدت): حسنا، عليه الآن بحق الله أن يسرع في إحضار الطبيب. مسح وجهه وانتظر حتى يتمكن من استخدام يديه، ويكتب ما يراه ضروريا. لقد تدفق التيار، هذا ما شعر به ولم ينبع التيار من جسده ولا من الضفادع، إنما من التنافر الكيماوي بين المعادن.

لم يكن من السهل عليه أن يفسر للطبيب ما جرى معه. في الأسبوع التالي استقال الخادم. كانت نتيجة العملية جرحان ومقالة عن الألياف الحية بوصفها مادة ناقلة للتيار جاءته بالشهرة العلمية.

كتب إليه شقيقه من مدينة يينا: يبدو أنه مختل، لكن عليه أن يتذكر أن للمرء واجبات أخلاقية تجاه جسده. وهذا ليس شيئا بين الأشياء. «أرجوك تعال، (شيللر) يريد أن يتعرف عليك».

رد عليه هومبولدت: «أنت تخطئ بحقي. لقد اكتشفت أن الإنسان قادر على تحمل العناء، إلا أنه يفوّت على نفسه الكثير من المعرفة لأنه يخشى الألم. لكن من يقرر تحمل الألم يدرك أشياء لا ...». وضع الريشة جانبا، حك كتفه وجعد الورقة. بدأ بالكتابة من جديد: «أخوتنا! لماذا تبدو لي كأنها أصل اللغز؟ لماذا نحن وحيدان؟ ولماذا يشكل أحدنا الوجه الآخر للآخر؟ لماذا أنت ما يجب ألا أصيره أنا؟ وأنا ما لا يمكن أن تصيره أنت؟ لماذا علينا أن نسير في دروب الوجود كائنين، قريب بعضنا من بعض أكثر من الآخرين، سواء شئنا أم أبينا؟ ولماذا أخال أن عظمتنا ستبقى دون نتائج؟ وإننا، سيان ما أنجزناه، سنختفي كأن

Twitter: @ketab_n

شيئا لم يكن، حتى يتحد اسمانا المتصاعدان أحد هما ضد الآخر من جديد في اسم واحد، ويذوبا في اسم واحد؟» بلع ريقه ثم مزق الورقة.

صنع مصباح الأعماق لكي يتمكنِ من فحص النباتات في منجم فرايبرغ. وهو شعلة تتغذى من غاز في وعاء، تضيء حتى في الأماكن التي ليس فيها هواء. أوشك المصباح أن يقضي على حياته. نزل في حفرة لم يسبق لأحد أن عاينها. وضع المصباح جانبا وبعد قليل أغمي عليه. رأى في احتضاره نباتات متداخلة من الغابات الاستوائية، تحولت في عينيه إلى أجسام نساء واستعاد وعيه على صراخ. وجده اسباني اسمه (اندرس ديل ريو)، زميل سابق في أكاديمية فرايبرغ، وحمله إلى الخارج. لخجله الشديد لم يتمكن (هومبولدت) من التعبير عن عرفانه بالجميل.

بعد شهر من العمل الشاق تمكن من اختراع آلة للتنفس في الأعماق: خرطومان يقودان الهواء من كيس منفوخ إلى قناع للتنفس. تحمل الهلوسة بوجه من حديد. بعد أن ضعفت ركبتاه، وجعل الشعور بالدوخة من شعلة المصباح نارا مضطرمة، فتح صنبور الهواء، وشاهد بحنق كيف تتحول النساء إلى نباتات، وتتحول النباتات إلى لا شيء. ظل في الظلام البارد ساعات طويلة. عندما خرج إلى ضوء النهار كان بانتظاره رسالة كتبها (كونت) يدعوه فيها إلى سرير أمه المحتضرة.

وكما هي الأصول ركب أسرع جواد تمكن من العثور عليه. كان المطر يلطم وجهه، ومعطفه يخفق في الهواء. تزحلق عن السرج مرتين وسقط في الطين. وصل إلى القصر قذرا طويل اللحية. ولأنه كان يعرف آداب هذه المناسبات تظاهر بانقطاع الأنفاس. انحنى له (كونت) انحناءة خفيفة، جلسا معا قرب سرير المريضة وراقبا كيف يعتصر الألم وجهها فيتحول إلى كتلة غريبة. كان السل قد أذبلها من الداخل، صار خداها أخاديد عميقة، وذقنها طويلا وأنفها منحنيا فجأة. نزفت معظم دمها إثر عمليات الحجامة. وبينما (هومبولدت) يمسك يدها تدرج الوقت من العصر إلى المساء وجاء ساع برسالة أخيه التي يعتذر فيها عن الحضور بسبب أعمال عاجلة في فايمار. عندما حل الليل انقلبت أحوال أمه وأخذت تطلق صيحات عالية. لم يؤثر المنوم فيها، كما لم يأتها المزيد من الحجامة بالراحة والهدوء ولم

Twitter: @ketab_n

يفهم (هومبولدت) كيف لأمه أن تتصرف مثل هذه التصرفات الخارجة عن حدود اللياقة. بحلول منتصف الليل ارتفعت صرخاتها الصادرة من أعماق جسدها المختلج دون رادع وكأنها تعايش لحظة من لحظات اللذة. انتظر مغمض العينين. بعد ساعتين سكنت تماما. عندما حل الفجر تمتمت بكلمات غامضة. عندما وصلت الشمس ذروة السماء نظرت إلى ابنها وقالت إن عليه الانتصاب في جلسته، فالاسترخاء في الكرسي من قلة الأدب. ثم أدارت وجهها، وبدت عيناها وكأنهما تتحولان إلى زجاج. ثم رأى (هومبولدت) أول ميت في حياته.

وضع (كونت) يده على كتفه قائلا: ليس لأحد أن يعلم مدى غلاوة العائلة على قلبه.

قال (هومبولدت) وكأن أحدا يلقنه درسا: بلى، هو يعرف ولن ينسى هذا أبدا.

تنهد (كونت) متأثرا، فقد أدرك أنه سيداوم الحصول على معاشه.

رأى الخدم (هومبولدت) أمام القصر ظهراً يروح ويجيء على المرتفعات وحول البركة، فاغر الفم، متوجها نحو السماء كالأبله. لم يسبق لأحدهم أن رآه على هذه الحال من قبل، وقال بعضهم لبعض: لا بد أن كيانه اهتز. وحقا، لم يشعر بنفسه من قبل سعيدا كما هو في تلك اللحظة.

بعد أسبوع استقال من منصبه. لم يفهم الوزير. منصب راق كهذا وفي هذه السن الصغيرة، ولا حدود أمام الارتقاء في سلم الوظيفة، فلماذا الاستقالة؟

رد عليه (هومبولدت): لأن كل هذا قليل. كان واقفا أمام مكتب الوزير، قصيرا، منتصبا وبعينين براقتين وكتفين متهدلتين قليلا. وأضاف: ولأن عليه أن يبدأ رحلته أخيرا.

ذهب في بداية الرحلة إلى فايمار حيث عرّفه أخوه على (فيلاند) و(هردر) و(غوته)، الذي حياه كأخ في الرابطة قائلا إن كل طالب من طلاب (فرنر) العظيم يبعث السرور في قلبه.

قال (هومبولدت) إنه سيسافر إلى العالم الجديد، الأمر الذي لم يبح به لأحد حتى الآن. لن يوقفه أحد، ولا يحسب الحساب لأن يعود حيا.

تنحى به (غوته) جانبا وأخذه عبر غرفة متعددة الألوان إلى نافذة عالية وقال إن ما ينويه

Twitter: @ketab_n

عمل جريء. الأهم بالدرجة الأولى هو أن يستكشف البراكين ليبرهن على صحة النظرية النبتوينة. لا نار تحت الأرض. باطن الطبيعة ليس من الحمم البركانية الملتهبة. لا يؤمن بهذه الترهات إلا أصحاب العقول الفاسدة.

وعده (هومبودلت) بأن يستكشف البراكين.

شبك (غوته) ذراعيه خلف ظهره وقال: عليه ألا ينسى أبدا من أين جاء.

لم يفهم (هومبولدت).

عليه أن يتذكر دائما من أرسله، قال (غوته) وأشار إلى الغرفة الملونة، وإلى التماثيل الرومانية الكلسية، وإلى الرجال الذين يتهامسون في الردهة بأصوات منخفضة. كان أخو (هومبولدت) الكبير يتحدث عن حسنات أحد بحور الشعر و(فيلاند) يومئ باهتمام ظاهر و(شيللر) يتثاءب خفية. قال (غوته): منا جئت، من هنا. وستظل رسولنا حتى لو كنت في أعالي البحار.

تابع (هومبولدت) السفر إلى زالسبورغ حيث اقتنى أغلى معدات امتلكها إنسان. اشترى مقياسين لضغط الهواء، ومقياسا لتحديد الارتفاع بقياس نقطة غليان الماء، وإذادة لمسح الأراضي، وسدسية عاكسة بأفق صناعي، وسدسية قابلة للطي، ومزواة لقياس شدة مغنطة الأرض، ومقياسا شعريا لرطوبة الهواء النسبية، ومقياس نقاوة الهواء لقياس كمية الاوكسيجين، وزجاجة لايدن لتخزين الشحنات الكهربائية ومقياس شدة زرقة السماء. علاوة على كل هذا اشترى ساعتين من تلك الساعات الثمينة التي كانت بدعة ذلك العهد في باريس ولا تحتاج إلى نواس، إنما تدور ثوانيها بشكل غير مرئي بنوابض تلتوي بشكل دوري في باطنها. إذا اعتني بها جيدا فإنها لن تتأخر أو تتقدم عن وقت باريس أبدا، وستمكنه من تحديد خطوط الطول إذا عيّن ارتفاع الشمس في السمت وقارنها مع الجداول المتوافرة.

ظل عاما كاملا وتمرن على الآلات. ومسح جميع أكمات زالسبورغ. فقاس ضغط الهواء يوميا. ورسم خرائط للحقل المغناطيسي، وفحص الهواء والماء والتراب ولون السماء، وتدرب على فك وتركيب كل آلة حتى أتقن ذلك مغمض العينين، واقفا على

Twitter: @ketab_n

قدم واحدة في المطر أو وسط قطيع بقر يحوم حوله الذباب.عده الأهالي مجنونا. إلا أنه كان يعرف أن عليه الاعتياد أيضا على ظنون الناس فيه. ذات مرة ربط إحدى ذراعيه على ظهره لمدة أسبوع كي يعتاد الألم والعناء. لأن بزته كانت تضايقه خاط بزة ثانية ليرتديها ولو أثناء النوم.

– السر كله يكمن في أن لا يغيب شيء عن بالك، قال ذلك للسيدة (شوبل) مالكة الغرفة التي نزل فيها، ورجاها أن تصب له كأسا ثانية من السائل الأخضر المترسب عن تخثر الحليب الذي تعافه نفسه.

وبعد ذلك سافر إلى باريس، حيث يعيش شقيقه متفرغا لتربية أطفاله، «خارقي الذكاء»، على نظام حازم ابتكره هو بنفسه. لم تطقه زوجة أخيه. قالت إنه يخيفها، وإن انشغاله الدائم يبدو لها نمطا من أنماط الجنون، وإنه عموما يبدو لها صورة كاريكاتيرية مشوهة عن زوجها.

فرد عليها زوجها أنه لا يستطيع معارضتها تماما في هذا الشأن، لم يكن من السهل عليه أن يتحمل مسؤولية حماقات أخيه، وأن يكون راعيا له.

ألقى (هومبولدت) محاضرات عن قدرة أعصاب الإنسان على نقل التيار. حضر تحت المطر الخفيف أمام المدينة عملية قياس آخر جزء من خط الطول الذي يربط باريس بالقطب. عندما تمت العملية رمى الجميع قبعاتهم في الهواء وهز بعضهم أيدي بعض: عشرة بالمليون من طول الخط، على شكل قضيب معدني، سيصير وحدة قياس الطول في المستقبل. اصطلحوا على تسميته بالمتر. كان شعور عالٍ بالفخر يغمر (هومبولدت) كلما قيس شيء ما، وهذه المرة انتشى بالحماسة. أقلق هذا الانجاز لياليه ولم يترك للنوم سبيلا إلى عينيه عدة ليال.

تسقّط أخبار الرحلات الاستكشافية. كان (لورد بريستول) بصدد القيام برحلة علمية نحو مصر، إلا أنه وُضع في السجن بعد فترة وجيزة لأنه جاسوس. علم (هومبولدت) أن الهيئة المانحة تنوي إرسال فريق علمي إلى بحر الجنوب بإشراف العالم الكبير (بوغنفيل). إلا أن هذا كان عجوزا كصخرة، وأصمَّ، وكان يجلس على عرش، يدمدم ويعطي إشارات

Twitter: @ketab_n

لا أحد يعلم لمن يوجهها. وعندما انحنى (هومبولدت) أمامه، باركه العجوز بسحنة الأسقف وأشار عليه بالانصراف. استعاضت عنه الهيئة المانحة بالضابط (بودان). استقبلَ هذا (هومبولدت) بمودة، ووعده ألف خير. وبعد قليل اختفى (بودان) مع كل المال الذي منحته إياه الحكومة للقيام بالرحلة.

ذات مساء جلس على درجات منزل (هومبولدت) شاب يحتسي العرق من علبة فضية وأطلق أقذع الشتائم عندما وطأ (هومبولدت) يده دون قصد. اعتذر منه، وهكذا دخل الاثنان في الحديث. كان اسم الرجل (ايميه بونبلاند) وكان هو الآخر ينوي الالتحاق برحلة (بودان). كان في الخامسة والعشرين، طويل القامة، رثّاً بعض الشيء، ولم يكن فيه عيوب سوى قليل من آثار الجدري على وجهه وثقب وحيد بين أسنانه في مقدمة الفم. تبادل الاثنان نظرات متفحصة. مستقبلا لن يتمكن أحدهما من القول إن كان القدر قد جمعهما، ليكون أحدهما مهما للآخر كما لا يحدث بين بشر قط، أو إن كانت الأمور تبدو لهما هكذا عندما يسترجعان ذكرياتهما.

روى (بونبلاند) أنه من لاروشيل، وأنه تحمل السماء الواطئة للريف كسقف سجن، وأنه كان يريد الهرب من ضيعته يوميا، ثم أصبح طبيبا عسكريا، إلا أن الجامعة لم تعترف بشهادته وعندما التحق بها ليتابع الدراسة، درس علم النبات. روى أنه يعشق النباتات الاستوائية ولا يعلم الآن ما الذي سيفعله. العودة إلى لاروشيل؟ لا. إنه يفضل الموت على هذا.

استعلم (هومبولدت) إن كان يسمح له بمعانقته.

قال (بونبلاند) مرتعبا: لا.

قال (هومبولدت) إن ماضيهما متشابه ومستقبلهما واحد، وإذا اتحدا فمن سيفرق بينهما؟ ثم مد يده.

لم يفهم (بونبلاند).

شرح له (هومبولدت) أن لهما المضي في طريق واحدة، وأنه يحتاج رفيقا ولديه نقود.

Twitter: @ketab_n

نظر إليه (بونبلاند) باهتمام وسد علبته.

قال (هومبولدت) إنهما مازالا في مقتبل العمر كما إن لهما غايات يعرفانها وسيكون لهما أن يصبحا شخصيتين عظيمتين. وتساءل إن كان لدى (بونبلاند) نفس الشعور.

لم يكن لدى (بونبلاند) نفس الشعور. إلا أن عدوى حماسة (هومبولدت) انتقلت إليه. لهذا، ولأنه من المعيب كسر شعور شخص واقف يمد يده، صافحه، وحبس صرخة الألم التي كادت تنطلق منه. فقد كان ضغط يد (هومبولدت) أقوى بكثير مما يتوقعه المرء من الرجل القصير.

– وماذا نعمل الآن؟

قال (هومبولدت): إلى أين إن لم يكن نحو اسبانيا؟

بعد فترة وجيزة افترق الشقيقان كما يَفْتَرِق ملكان. اضطرب (هومبولدت) عندما لامست رؤوس خصلات شعر زوجة أخيه وجنتيه أثناء تبادل قبلات الوداع. تساءل إن كانا سيلتقيان مرة أخرى؟

قال الأخ الكبير: بالتأكيد. في هذا العالم أو في العالم الآخر. في الظلام أو في النور.

امتطى (هومبولدت) و(بونبلاند) جواديهما وانطلقا. لاحظ (بونبلاند) مندهشاً أن شريكه لم يلتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة حتى اختفى الشقيق وزوجته عن الأنظار.

على الطريق إلى اسبانيا مسح (هومبولدت) كل هضبة مر بها. صعد كل جبل. اقتطع عينات من كل صخرة. استطلع كل كهف حتى آخر حجرة فيه مرتديا قناعه. عدهما الأهالي، الذين شاهدوا كيف يركز أنظاره على الشمس من خلال بؤرة السدسية، من الوثنيين عبدة الأجرام ورموهما بالحجارة، فاضطرا لركوب خيلهما والإسراع في الهرب. في أول مرتين لم يجرحا، في المرة الثالثة جرح (بونبلاند) جرحا عميقا.

بدأ بالاستغراب، وتساءل إن كان ما يفعله (هومبولدت) ضروريا، فهما بالنتيجة على طريق سفر، يريدان الوصول إلى مدريد وسيصلان أسرع إذا اكتفيا بالركوب. «اللعنة بحق السماء»!

تفكر (هومبولدت) قليلا ثم قال إنه آسف. إن هضبة لا يعرف المرء ارتفاعها تبعث

Twitter: @ketab_n

الاضطراب في ذهنه وتقلقه. لا يتمكن الإنسان من الحركة دون أن يحدد مكانه بالضبط. لا يمكن ترك لغز على حافة الطريق، مهما كان صغيرا.

بعدها كانا يسافران ليلا ليتمكن من إجراء قياساته بعيدا عن أعين الناس. قال إن عليه أن يحدد إحداثيات الطريق بدقة أكثر من ذي قبل. فخرائط اسبانيا ليست متقنة. إنه يريد أن يعرف في أي بقعة من الأرض يسافر.

صاح (بونبلاند): لكن هذه معروفة. هذه هي الطريق وهي تقود إلى اسبانيا. لا يحتاج للمزيد.

رد عليه (هومبولدت): المسألة ليست مسألة الطريق، إنما مسألة المبدأ.

قرب العاصمة اتخذ ضوء النهار لونا فضيا. اختفت الأشجار.

قال (هومبولدت): وسط اسبانيا ليس حوضا، لقد أخطأ الجغرافيون مرة أخرى. على العكس، فهو صفيحة عالية ظهرت في البدء على شكل جزيرة من انحسار بحر قديم.

أخذ (بونبلاند) رشفة من علبته وقال: بديهي. جزيرة.

كان الوزير (مانويل دي اوركيخو) حاكم مدريد وكان الجميع يعلم أنه يضاجع الملكة. كان الملك لا يتمتع بأي سلطة، يحتقره أولاده، وتهزأ منه رعيته. لم يكن بالإمكان تجاوز قصر (اوركيخو)، لأن المستعمرات كانت مسدودة في وجه الأجانب، ولم يسبق أن استثني أحد. زار (هومبولدت) السفير البلجيكي، والهولندي والفرنسي. وفي الليل كان يتعلم الاسبانية.

سأله (بونبلاند) إن كان لا ينام أبدا.

رد عليه (هومبولدت): لا، إن استطعت تحاشي النوم.

تمكن بعد شهر من المثول بين يدي (اوركيخو) في قصر آرانخويز. كان الوزير سمينا، عصبيا وقلقا. بسبب سوء فهم، وربما لأنه سمع ذات مرة باسم (باراسيلزوس)، عدَّ الوزيرُ (هومبولدت) طبيبا ألمانيا وسأله عن علاج للطاقة الجنسية.

– ماذا؟

انتحى به الوزير في زاوية معتمة من الردهة الحجرية، وضع يده على كتفه، وأخفض

Twitter: @ketab_n

صوته قائلا: إن الأمر لا يتعلق بالمتعة الجنسية، سلطته على البلاد نابعة من سلطته على الملكة، هذه لم تعد شابة، وهو ذاته لم يعد شابا.

نظر (هومبولدت) عبر النافذة. كانت حديقة القصر مترامية تحت ضوء الظهر الحليبي في هندسية غير واقعية وكان شعاع مائي كسول يلمع فوق بئر مغربية.

قال (اوركيخيو) إن أمامه الكثير ليفعله. محاكم التفتيش مازالت قوية، الطريق إلى إلغاء الرق مازالت بعيدة. الدساسون يتربصون به في كل مكان. لا يعلم إلى متى سيقدر على الصمود، بكل معنى الكلمة. وتساءل إن كانت كلماته واضحة للأفهام.

ببطء مضى (هومبولدت) إلى مكتب (اوركيخيو) ببطء مكورا قبضتيه، غمس الريشة في المحبرة وكتب في وصفة: لحاء الكينا من ضفاف نهر الأمازون، خلاصة الخشخاش من أواسط أفريقيا، طحالب من سافانا سيبيريا وزهيرة من أساطير ماركو بولو. يصنع من كل هذا مرق، يقطر ثلاث مرات، يشرب ببطء كل يومين. كان يعرف أن الأمر سيدوم سنوات حتى تجتمع كل المحتويات. سلم الورقة إلى (اوركيخيو) وهو متردّد.

لم يسبق لأجنبي أن نال وثيقة كهذه: «تُقدّم للبارون فون هومبولدت ومساعده شتى التسهيلات. يؤمَّن لهما السكن ويعاملان أحسن معاملة. يحق لهما الوصول إلى أي مكان يريدانه والسفر على ظهر جميع سفن العرش». قال (هومبولدت) ليس عليهم الآن إلا النفاذ من الحصار الانكليزي.

سأل (بونبلاند): لماذا وردت هنا كلمة مساعد؟

قال (هومبولدت) شاردا إنه لا يعلم، لا بد أنه سوء تفاهم.

ـ هل يمكن تغيير الصيغة؟

– فكرة غير جيدة. أوراق كهذه هدية من السماء، ولا يتساءل أحد عما جاء فيها، إنما يسافر بها.

أخذا أول فرقاطة انطلقت من لاكورونا نحو الغابات الاستوائية.

كان الهواء يهب قويا من الغرب والأمواج عاتية. جلس (هومبولدت) على كرسي في ظهر السفينة. شعر بحرية لم يسبق له أن شعر بها من قبل. دوَّن في دفتر مذكراته، إنه

Twitter: @ketab_n

لحسن الحظ لا يصاب بدوار البحر. ولا يتقيأ. وهذه أيضا كانت مسألة إرادة. بكل تركيز، مع انقطاعات كي يتمكن من الانحناء فوق جدران السفينة، كتب ثلاث صفحات عن شعور الإبحار، وعن الليل في البحر وعن أضواء الساحل المختفية في الظلام. ظل حتى الصباح واقفا بجانب الربان، وراقبه أثناء إدارة الدفة. ثم أخرج السدسية. في الظهر بدأ بهز رأسه مستغربا. في الرابعة عصرا وضع آلته جانبا وسأل الربان عمَّ يدعوه إلى عدم الدقة في العمل؟

قال الربان إنه يعمل عمله هذا منذ ثلاثين عاما.

قال (هومبولدت): مع كل الاحترام، إلا أن هذا يدهشه.

قال الربان: لا يفعل المرء هذا لأجل الرياضيات إنما للسفر في البحر. يسافر المرء بمحاذاة خطوط العرض تقريبا، ويوما ما يصل إلى هدفه.

سأل (هومبولدت) حانقا بسبب الصراع مع الغثيان: لكن كيف يعيش المرء إذا لم تعنِ له الدقة شيئا؟

قال الربان: بأفضل حال. وعلى كل حال فهذه سفينة حرة. إذا لم يعجب أحدهم ما يجري عليها، يمكنه النزول متى شاء.

قبل الوصول إلى تينيرفا لمحوا وحشا بحريا. في البعيد، أمام الأفق، خرج جسد ثعباني شفاف من الماء، التف التفافتين ونظر إليهم بعينين من الكهرمان، تمكنوا من رؤيتهما ببالغ الوضوح من خلال المنظار. كان على شفتيه ألياف رقيقة كشعر الذقن. ما إن اختفى الوحش في الماء من جديد، حتى تصور الجميع أنه كان من بنات الخيال. قال (هومبولدت): ربما كان بسبب الأبخرة أو الطعام السيئ. قرر ألا يكتب عنه شيئا.

رست السفينة يومين للتموين. وما إن وصلوا المرفأ حتى أحاطت بهم مجموعة من بائعات الهوى، يمددن أيديهن نحوهم، ويمررن بها على أجسادهم وهن يطلقن ضحكات عالية. أراد (بونبلاند) أن يرافق إحداهن، لكن (هومبولدت) دعاه إلى الالتزام بالانضباط. ذهبت إحداهن خلفه، لفت ذراعيها العاريتين حول رقبته وأسدلت شعرها على كتفيه. أراد أن يفلت منها إلا أن أحد أقراطها اشتبك بعروة معطفه. ضحكت جميع النساء.

Twitter: @ketab_n

لم يعرف (هومبولدت) كيف يتصرف. أخيرا ابتعدت المرأة ضاحكة وابتسم (بونبلاند) أيضا، إلا أنه انقلب جادا عندما رأى سحنة (هومبولدت).

قال (هومبولدت) بصوت مرتعش: هناك يوجد بركان، الوقت قصير ولا داعي لتضييعه في السفاهات.

اتفقا مع دليلين وصعدوا القمة معا. وصلوا إلى حقل سراخس خلف غابة من أشجار الكستناء، ثم إلى سهل رملي تملؤه الأزهار، حدد (هومبولدت) ارتفاعه حسب طريقة باسكال بقياس ضغط الهواء. قضوا ليلتهم في كهف مازال ممتلئا بثلج الشتاء. متصلبين من البرد واتخذوا مكانا خلف المدخل ليحتموا به. لاح القمر في السماء صغيرا ومتجمدا. بين الحين والآخر كانت خفافيش السهول تخفق بأجنحتها وحدود قمة الجبل ترتسم في الغيوم تحتهم. شرح (هومبولدت) للدليلين: إن تينيريفا كلها جبل طلع من البحر. أليس هذا مدهشا؟

قال أحدهما: بصراحة، ليس كثيرا.

في صباح اليوم التالي تأكدا أن الدليلين أيضا لا يعرفان الطريق. سألهما (هومبولدت) إن لم يسبق لهما قط أن صعدا الجبل؟

قال الدليل الآخر: لا، ولماذا نصعده؟

كان الطمي حول القمة وعرا جدا، وكلما تزحلق أحدهم كانت الحجارة تتدحرج إلى الوادي.

فقد أحد الدليلين توازنه وكسر زجاجات الماء. فصعدوا إلى القمة عطشين وأيديهم دامية. وكانت فوهة البركان قد بردت منذ مئات الأعوام وقعره مغطى بالحمم البركانية المتحجرة ومدى النظر يصل حتى بالما، وغوميرا وجبال لانزاروت التي يحيط بها البخار. بينما كان (هومبولدت) يفحص المغاور بمقياس الحرارة والسدسية، قعد الدليلان على الأرض بروح عدوانية. ونظر (بونبلاند) إلى البعيد مرتجفا من البرد.

وصلوا إلى حدائق أوروتافا قبل أن يقضي عليهم العطش، ونظر (هومبولدت) إلى أولى نباتات العالم الجديد مبهوراً، وملأه مرأى عنكبوت مشعرة، تتدفأ في الشمس فوق نخلة،

Twitter: @ketab_n

بالخوف وبالفرح. ثم لاحظ شجرة التنين.

التفت إلى الوراء، إلا أن (بونبلاند) كان قد اختفى. كانت الشجرة عملاقة ولا يقل عمرها عن آلاف السنين. قبل الاسيان وقبل الشعوب الغابرة، وقبل المسيح وبوذا، قبل أفلاطون وتامرلان. أصاخ (هومبولدت) إلى دقات ساعته، كما تحمل هذه الوقت في رحمها، هكذا احتفظت به الشجرة. إنها جزيرة انقطع مسار الزمن عليها. لمس (هومبولدت) الجذع المتصدع برفق. في الأعلى كانت الأغصان تتشعب، وزقزقة مئات العصافير تصدح في الريح. مس اللحاء بحنان. مات كل شيء، كل البشر، كل الحيوانات لقد ماتت. لكنّ الواحد الأحد لم يمت. وضع خده على الخشب، ثم تراجع ونظر حوله مرتعبا، ليرى إن كان أحد ما يراقبه. وبسرعة مسح دموعه وبدأ البحث عن (بونبلاند).

– الفرنسي؟! دله صياد في المرفأ على كوخ.

فتح (هومبولدت) الباب وشاهد ظهر (بونبلاند) العاري فوق امرأة سمراء عارية. صفق الباب، وأسرع في الذهاب إلى السفينة. لم يتوقف عندما سمع خطوات (بونبلاند) المهرولة خلفه، ولم يبطئ السير حتى عندما رجاه (بونبلاند) المغفرة وهو مقطوع الأنفاس، واضعا قميصه على كتفه حاملا بنطاله على ذراعه.

قال (هومبولدت) إذا حدث مثل هذا الشيء مرة أخرى فإنه سيقطع علاقته به.

قال (بونبلاند) لاهثا وهو يرتدي بنطاله أثناء السير إنه يرجو عدم المبالغة. أحيانا تتغلب الرغبة على الرجل، هل يصعب فهم هذا؟ «أنت أيضا رجل».

طالبه (هومبولدت) أن يتذكر خطيبته.

أخيرا تمكن (بونبلاند) من ارتداء بنطاله وقال إنه لن يفعلها. وإنه ليس خاطبا.

قال (هومبولدت): إن الإنسان ليس حيوانا.

قال (بونبلاند): إنه أحيانا يصير حيوانا.

سأله (هومبولدت) إن لم يكن قد قرأ (كانط) في حياته كلها.

رد عليه (بونبلاند): إن الفرنسي لا يقرأ كتب الأجانب.

قال (هومبولدت): إنه يعد النقاش منتهيا. مرة أخرى وتتفرق سبلهما. هل يوافق؟

Twitter: @ketab_n

قال (بونبلاند): يا ربي!

ـ هل يوافق على هذا الشرط؟

دمدم (بونبلاند) بكلمات غير مفهومة وسدّ بنطاله.

بعد عدة أيام عبرت السفينة مدار السرطان، فوضع (هومبولدت) السمكة التي كان يشرّح حوصلتها الهوائية في ضوء المصباح الزيتي الخافت جانبا ونظر إلى النقاط الثاقبة للصليب الجنوبي. أبراج السماء الجديدة التي لم توضع في خرائط. الجزء الآخر من الأرض والسماء.

بغتة ظهر رف من الرخويات. كان تيار الأسماك الحمراء قويا بحيث يدفع السفينة نحو الخلف قليلا. اصطاد (بونبلاند) سمكتين. قال إنه لا يعرف بالضبط ما يجري له، إلا أن شيئا ما ليس على ما يرام.

في الصباح التالي جاءته الحمى. كانت الرائحة تحت السطح مفزعة، والمرضى يصدرون أنينا، ورائحة الغثيان تفوح في الهواء الطلق. لم يصطحب طبيب السفينة لحاء الكينا قائلا إنها عادة جديدة سخيفة بينما الحجامة مجربة وأكثر فاعلية. نزف بحار شاب من برشلونة نزيفا مستمرا بعد المعالجة الثالثة. كانت حالة مهووس آخر سيئة حتى أنه حاول الطيران وسقط بعد عدة خفقات بذراعيه في البحر وكاد يغرق لو لم ينزلوا قاربا وينقذوه. بينما كان (بونبلاند) مستلقيا على سرير المرض في حجرته، يشرب الروم الحار ولا يستطيع تأدية أي خدمة، كان (هومبولدت) يشرّح الرخويات تحت المجهر، ويقيس كل ربع ساعة ضغط الهواء ولون السماء وحرارة الماء، وينزل كل نصف ساعة سطلاً من التوتياء إلى البحر ويدون نتائج فحوصاته في كتاب السفينة الثخين. أوضح (لبونبلاند) الذي كان يتحشرج: في هذا الظرف تحديدا يجب ألا يستولي الضعف على المرء. العمل يساعد على المقاومة. الأرقام تضع الفوضى في نظام. حتى فوضى الحمى.

سأله (بونبلاند) ألا يعاني من دوار البحر ولو قليلا؟

قال إنه لا يعرف، فقد قرر أن يتجاهل المرض وهكذا لا يلاحظه. طبعا عليه أن يتقيأ بين الحين والآخر، إلا أنه ذاته لم يعد يلاحظ هذا الشيء.

Twitter: @ketab_n

في المساء وجب دفن أول ضحية في البحر. قال (هومبولدت) للقبطان إن هذا الأمر يقلقه. يجب أن لا تشكل الحمى خطرا على رحلته. قرر ألا يسافر بالسفينة حتى فاراكروز، بل أن ينزل منها بعد أربعة أيام.

سأله الربان إن كان سباحا ماهراً.

قال (هومبولدت) هذا ليس مهما، فحوالي الساعة السادسة من صباح اليوم الثالث يجب أن يشاهدوا جزائر، وبعدها بيوم سيصلون البر. فقد حسب المسافة.

استعلم منه الربان إن لم يكن لديه ما يشرّحه في هذه اللحظة.

تساءل (هومبولدت) وهو مقطب جبينه إن كان الربان يسخر منه.

رد الربان: مطلقا، لكنه يريد أن يذكّره بالهوة العميقة بين العملي والنظري. الحساب على العين والرأس، لكن هذا ليس واجبا مدرسيا، إنه الاوقيانوس. ليس بوسع أحد أن يتنبأ بالتيارات والرياح. ولا يمكن التكهن بظهور اليابسة بكل بساطة.

في فجر اليوم الثالث ظهرت ملامح ساحل من خلال الضباب تدريجيا.

– ترينيداد. قال (هومبولدت) بكل هدوء.

– مستحيل! أشار الربان إلى خريطة البحر.

قال (هومبولدت) إنها ليست دقيقة كفاية. من الواضح أن المسافة بين القارتين القديمة والجديدة قدرت تقديرا خاطئا. لم يسبق أن قاس أحد التيارات البحرية بشكل موثوق. إذا لم يخطئ ظنه فإنه سينزل غدا في الصباح الباكر في تيرافيرما.

غادرا السفينة على مصب نهر ضخم. كان تيار النهر قويا لدرجة بدا وكأن البحر يتألف من الماء العذب المزبد. بينما حملت ثلاثة قوارب صناديق معداتهما إلى البر، ودع (هومبولدت) الربان في بزة بروسية لا تعاب وودعه الربان بتحية رسمية. وبدأ بالكتابة إلى أخيه في القارب الذي يحملهما بكسل نحو اليابسة التي تتأرجح أمامهما، عن الهواء النقي والريح الساخنة، عن أشجار الجوز وطيور الفلامنغو: «لا أعرف متى ستصل رسالتي هذه! لكن حاول أن تنشرها في الجريدة. يجب أن يسمع بي العالم. سأكون مخطئا كثيرا إذا اعتبرت نفسي لا شيء فيه».

Twitter: @ketab_n

كان البروفسور يرد على من يسأله عن ذكريات بعيدة بأنه لا يوجد شيء اسمه ذكريات قديمة. «الذكريات، بخلاف النقش في النحاس أو رسائل البريد، لا تاريخ لها. يجد أحدنا في ذاكرته أحداثا يستطيع أحيانا ترتيبها في سياق زمني صحيح بعد أن يسترجعها».

مثلا ذكرى تلك الظهيرة، التي صحح فيها حسابات والده عندما عد مرتبه، جامدة ومن الدرجة الثانية. ربما سمعها مرارا وتكرارا، فهي تبدو له مفصلة على مقاسه وبعيدة عن الواقع. كل الذكريات الأخرى مرتبطة بأمه. كانت تواسيه عندما يسقط، وتمسح دموعه عندما يبكي، وتغني له عندما يأرق. أراد ابن الجيران أن يضربه، فشاهدت ذلك، فركضت خلف الولد، وأمسكته، ووضعته بين ركبتيها ولطمته حتى أدمت وجهه ورأى نجوم الظهر. كان يحبها حبا خرافيا. سيموت لو أصابها شيء. وهذا ليس من باب الأمثال الشائعة. كان يعلم حق العلم أنه لن يتمكن من الحياة بعد أمه. هكذا كانت الحال عندما كان في الثالثة من عمره ولم تتغير هذه الحال بعد ثلاثين عاما.

الوالد كان بستانيا يداه متسختان أغلب الأحيان، يكسب القليل وإذا تكلم فإما ليأمر أو ليشكو أوضاعه. ويُرَدّد دائماً القول: الألماني شخص لا يجلس أعوج، بينما هو يتناول مرهقا حساء البطاطا على العشاء. سأله (غاوس) مرة: هذا فقط ما يشكل الألماني؟ هل تكفي هذه الصفة ليكون أحدهم ألمانيا؟ تملى والده في السؤال مدة غير معقولة، ثم أومأ برأسه.

كانت أمه مكتنزة وسوداوية. لم يرها قط تفعل شيئا عدا الطبخ، والغسيل، الحلم والبكاء. لم تكن تستطيع القراءة ولا الكتابة. لاحظ منذ باكورة طفولته أنها بدأت تشيخ، وأن جلدها يفقد مرونته، وجسدها يفقد شكله، وأن البريق في عينيها يخبو يوما بعد يوم، وفي كل عام كانت تجاعيد جديدة تظهر على وجهها. كان يعلم أن كل البشر هكذا، إلا أنه لم يكن يطيق أن يحدث هذا معها. كانت تذوي أمام عينيه ويرى نفسه عاجزا عن الحيلولة دون انطفاء شعلة الحياة فيها.

أغلب ذكرياته التالية كانت تحوم حول الخمول. فقد تصور في مطلع حياته أن الناس

Twitter: @ketab_n

يمثلون على مسرح أو أنهم يمارسون شعيرة معينة، تضطرهم إلى عدم الحديث أو التصرف قبل أن يقوموا باستراحة قصيرة. وكان يستطيع التأقلم مع هذا الوضع أحياناً، لكنه يعود ولا يحتمله. شيئا فشيئا اكتشف أن الناس يحتاجون إلى هذه الاستراحات. لماذا يفكرون بهذا البطء، وبهذه الصعوبة وهذا الجهد البالغ؟ كأن الأفكار تخرج من آلة، يلقمها المرء ثم يعشقها لتشتغل، كأنهم ليسوا أحياء يتحركون ذاتيا. لاحظ أن الناس يتضايقون إذا لم يقم هو أيضا بهذه الاستراحات التفكيرية. بذل أقصى جهوده، إلا أنه لم يتمكن غالبا من أن يكون مثلهم.

الإشارات السوداء في الكتب، تلك التي تتكلم إلى معظم البالغين عداه وأمه، كانت تضايقه. في ظهيرة أحد أيام الأحد طلب من والده أن يفسر له بعضها. هذا المستقيم ألف، وهذا القوس باء وهذه الدائرة هاء. ثم تطلع في الصفحة حتى اتضحت له من تلقاء نفسها الإشارات التي مازالت مجهولة لديه، وفجأة عثر فيها على كلمات. قلب الصفحة فسارت الكلمات أسرع هذه المرة. بعد ساعات تمكن من القراءة وفي المساء ذاته انتهى من الكتاب، الذي كان بالمناسبة مملا، ولا يتحدث عن شيء سوى دموع المسيح وندم القلب العاصي. حمل الكتاب إلى أمه ليفسر لها هي أيضا الإشارات الموجودة فيه إلا أنها هزت رأسها ضاحكة وعلى وجهها مسحة حزن. في هذه اللحظة أدرك أن الإنسان لا يريد استخدام عقله. الناس يريدون الراحة. يريدون الأكل والنوم، ويريدون أن يكون الآخرون لطيفين معهم. أما التفكير فلا يريدون أن يتعبوا أنفسهم به.

كان اسم معلم المدرسة (بوتنر) ويجد أشهى متعه في ضرب التلاميذ. ويتظاهر بأنه شديد وزاهد، وفي أحايين نادرة جدا تنم تعابير وجهه عن السرور الذي يبعثه الضرب فيه. كان يفضل أن يعطيهم واجبات يضطرون للعمل فيها طويلا، ويصعب عليهم حلها رغم ذلك دون أخطاء، بحيث تحين الفرصة لاستخدام العصا. فالحي كان أفقر أحياء براونشفايغ، لن يدخل تلميذ واحد من تلاميذه مدرسة عليا، لن يعمل أي منهم بشيء آخر سوى بيديه. كان (غاوس) يعرف أن (بوتنر) لا يطيقه ومهما حاول الجواب ببطء كما يفعل التلاميذ الآخرون، كان يشعر بسوء نية (بوتنر) نحوه ويشعر بأن المعلم ينتظر حجة

Twitter: @ketab_n

ليشبعه ضربا أكثر من التلاميذ الآخرين.

ثم قدم له (غاوس) الفرصة السانحة.

فرض عليهم (بوتنر) جمع كل الأرقام بين الواحد والمائة. لا بد أن تدوم الوظيفة ساعات وساعات ولن يتمكن أحد من حلها، مهما كان، دون أن يخطئ على الأقل خطأ واحدا يستحق عليه الضرب.

– يا الله! ما لكم تبدون كالحمير، ابدأوا، هيا!

لن يتذكر (غاوس) إن كان في ذلك اليوم مرهقا أكثر من بقية الأيام أم أنه كان أغبى. على كل حال، لم يتمكن من السيطرة على نفسه، ونهض بعد ثلاث دقائق ليقف أمام طاولة المعلم وعلى لوحه الاردوازي سطر وحيد.

– هكذا إذن! قال (بوتنر) ورفع عصاه. نظر إلى النتيجة، وتحجرت يده. فسأل: ما معنى هذا؟

– خمسة آلاف وخمسين.

– ماذا؟

نسي (غاوس) الكلام، تنحنح، تعرق. كان كل ما يتمناه هو لو أنه جلس في مكانه وحسب كالتلاميذ الآخرين، الذين طأطأوا رؤوسهم في مقاعدهم، كأنهم لا يسمعون كلمة. نطق (غاوس): إن الوظيفة كانت جمع كل الأرقام من الواحد إلى المائة. مائة زائد واحد يساوي مائة وواحد. تسعة وتسعون زائد اثنان يساوي مائة وواحد. ثمانية وتسعون زائد ثلاثة يساوي مائة وواحد، إذن النتيجة دائما مائة وواحد. ما علينا إلا أن نقوم بالحساب خمسين مرة وستكون النتيجة خمسين مضروبا في مائة وواحد.

صمت (بوتنر).

– خمسة آلاف وخمسين. كرر (غاوس)، آملا أن يفهمه (بوتنر) هذه المرة على الأقل. وأضاف: خمسين في مائة وواحد يساوي خمسة آلاف وخمسين. فرك أنفه. أوشك أن يجهش بالبكاء.

– «لعنة الله علي». قال (بوتنر) وصمت طويلاً. امتص خديه وطالَ ذَقْنَه، وفرك جبينه،

Twitter: @ketab_n

دق بإصبعه على أنفه. ثم أرسل (غاوس) إلى مقعده. قال له إن عليه أن يجلس، أن يخرس ويبقى في الصف بعد نهاية الدوام.

عبَّ (غاوس) الهواء ليحاول الكلام.

قال (بوتنر): كلمة واحدة وتشتغل العصا شغلها.

وهكذا ظهر (غاوس) بعد الحصة الأخيرة مطأطأ الرأس أمام طاولة المعلم. طلب منه (بوتنر) أن يعطيه كلمة شرف ويقسم بالله، الذي يرى كل شيء، أنه أجرى الحساب وحده. أعطاه (غاوس) كلمة شرف، لكنه، عندما أراد أن يشرح لـ (بوتنر) أن العملية بسيطة جدا، وأن كل ما على المرء أن يفعله هو أن يراقب المسائل دون أحكام مسبقة واعتيادات، وهكذا يظهر الحل وحده، قاطعه (بوتنر) وسلمه كتابا سميكا في الحساب العالي. للموهوبين. أمر (غاوس) أن يأخذه إلى البيت، يقرأه بتمعن، شرط أن يحرص عليه كل الحرص، فثنية واحدة، بقعة زيت واحدة، أو حتى أثر إصبع، سيؤدي إلى استخدام العصا ولن ينقذه إلا الله.

في اليوم التالي أعاد الكتاب.

سأل (بوتنر) عن معنى هذا وقال: إن الكتاب صعب طبعا، لكن عليه ألا يستسلم بسهولة.

هز (غاوس) رأسه، وأراد أن يشرح لـ (بوتنر) ولم يستطع. سال أنفه واضطر للتنخم.

– ماذا بك؟

تأتأ (غاوس) أنه أنهى قراءة الكتاب. فالكتاب ممتع ثم شكر المعلم، وحدق في (بوتنر) ببلادة. وتمنى أن تنتهي الأمور عند هذا الحد.

قال (بوتنر) عليه ألا يكذب، فهذا أصعب كتب التعليم باللسان الألماني. ليس لأحد أن يدرسه في يوم واحد، فكيف بطفل ممخط الأنف في الثامنة من عمره.

لم يعد (غاوس) يعرف بماذا يرد.

بيد مرتجفة تناول (بوتنر) الكتاب منه وقال: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، الآن ستأتيه الأسئلة.

Twitter: @ketab_n

بعد نصف ساعة كان (بوتنر) ينظر إلى (غاوس) بعينين خاويتين. قال إنه يعرف أنه ليس مدرسا جيدا، فلا هو موهوب ولا هو يملك قدرات عالية. لكن حان الوقت الآن ليضع هدفا لحياته. وقال: إذا لم يعمل على إدخال (غاوس) المدرسة الثانوية فإن كل حياته راحت هباء. حدق فيه منتفخ العينين، ولكي يقاوم تأثره، رفع العصا وبذلك تناول (غاوس) آخر علقة في حياته.

في عصر ذلك اليوم طرق شابٌ باب البيت. قال إنه في السابعة عشرة، اسمه (مارتين بارتلز)، يدرس الرياضيات في الجامعة ويعمل معاونا لـ (بوتنر) ويرجو أن يُسمح له بتبادل بعض الكلمات مع ابن العائلة.

قال الأب ليس عنده سوى ابن واحد عمره ثمانية أعوام.

قال (بارتلز)، هذا هو تماما من يريد محادثته. يرجو السماح له بتعلم الرياضيات مع الابن ثلاث مرات في الأسبوع. قال إنه لا يريد الادعاء أنه سيدرّس الابن، فكلمة تدريس لا تبدو له مناسبة، ابتسم بعصبية وتابع، لفظة التدريس غير ملائمة لعملية قد يتعلم فيها هو أكثر من التلميذ.

طالبه الأب بالوقوف منتصبا وقال: هذه سفاسف. فكر لحظة ثم قال: لكن لا مانع.

عملا معا عاما كاملا. في البداية سر (غاوس) بالدروس الإضافية، التي قطعت الحياة الروتينية على الأقل، مع أنه لم يكن يعبأ بالرياضيات على الإطلاق ويفضل تعلم اللغة اللاتينية. ثم ما لبث أن شعر بالملل. فرغم أن (بارتلز) لم يكن بطيء التفكير كالآخرين، إلا أن الحياة معه أيضا لم تكن سهلة.

روى (بارتلز) أنه تحدث مع مدير المدرسة الثانوية وإذا سمح والده فإن (غاوس) سيحصل على مقعد دراسي.

تنهد (غاوس).

قال (بارتلز) مؤنبا: من غير الملائم أن يكون طفل في عمره دائم الحزن.

فكر قليلا، فقد بدت له الملاحظة ذكية نوعا ما. لماذا هو حزين؟ ربما لأنه يرى أمه تموت ببطء، لأن العالَم يخيب الظن حالما اكتشف أحدهم هشاشة بنائه وفظاظة الأوهام المغزولة

Twitter: @ketab_n

حوله وحمقه. لأن السر والنسيان وحدهما يجعلانه محتملا. لأن الإنسان لا يتحمل الحياة دون النوم، الذي ينزعه يوميا من الواقع. إن عدم القدرة على اللامبالاة أمر محزن. إن اليقظة حزن. المعرفة، يا (بارتلز) المسكين، هي الشك. لماذا يا (بارتلز)، لماذا؟ لأن الوقت يمضي ويمضي دون أن يتوقف.

أقنع (بارتلز) والمعلم والد (غاوس) بألا يعمل (غاوس) في معمل الغزل والنسيج بل يلتحق بالمدرسة الثانوية. وافق الأب على مضض، ونصحه أن يحافظ على استقامة ظهره مهما حدث في الدنيا. كان (غاوس) قد راقب البستانيين طويلا أثناء العمل، واكتشف أن حكمة والده لا تنبع من لاأخلاقية الإنسانية، إنما من آلام الظهر المزمنة لدى أبناء مهنته. حصل على قميصين جديدين ومقعد فارغ لدى القس.

خيبت المدرسة الثانوية ظنه. فهي لم تقدم له الكثير من العلم. فقط بعض اللاتينية، والبلاغة، واليونانية، والرياضيات من أدنى المستويات، وقليلا من اللاهوت. لم يكن زملاء الدراسة الجدد بأكثر ذكاء من القدماء. كما أن المدرسين لم يكونوا يضربون أقل، إلا أنهم على كل حال لا يضربون بعنف (بوتنر) ذاته. عندما تناول أول طعام غداء مع القس سأله هذا عن سير الدراسة.

– قال (غاوس) إنه عذاب.

سأله القس إن كانت المواد الدراسية صعبة عليه.

رفع أنفه وهز رأسه.

قال القس إن عليه أن يحترس.

رفع (غاوس) عينيه إلى القس مندهشا من ملاحظته.

حدجه القس بنظرة غضب. وتابع: الفخر إثم قاتل.

أحنى (غاوس) رأسه.

قال القس عليه ألا ينسى هذا أبدا. ألا ينساه طوال عمره. مهما كان أحدهم ذكيا، عليه أن يتواضع.

– لماذا؟

Twitter: @ketab_n

اعتذر القس قائلا يبدو أنه لم يفهمه بشكل صحيح.

قال (غاوس): لا شيء، لا شيء إطلاقا.

قال القس: بلى، لابد أن هناك شيئا وهو يريد أن يسمعه.

قال (غاوس) إن قصده لاهوتي بحت. خلق الرب الإنسان كما خلقه، ثم على الإنسان أن يعتذر دائما عن هذا. هذا ليس منطقيا.

لم يصدق القس أذنيه.

أخذ (غاوس) من جيبه منديلا قذرا جدا، ومخّط فيه. قال إنه واثق من أنه لا يفهم بشكل صحيح، لكن هذه النظرية تبدو له عكسا عبثيا للسبب والأثر.

وفّر له (بارتلز) مقعدا جديدا لدى مستشار البلاط (تسيمرمان)، البروفسور في جامعة غوتنغن. كان (تسيمرمان) هزيلا لطيف المعشر، لم ينظر إليه قط دون خشية مهذبة واصطحبه للمثول بين يدي هرتزوغ براونشفايغ.

الهرتزوغ، السيد اللطيف ذو الرموش التي لا تني ترف، كان بانتظارهما في غرفة موشاة بالذهب فيها عدد لا يحصى من الشموع، بحيث لا تظهر الظلال، إنما انعكاسات في مرايا السقف تجعل غرفة أخرى مماثلة تسبح فوق الرؤوس، تساءل: هل هذا هو العبقري الصغير؟

انحنى (غاوس) الانحناءة التي علموه إياها. كان يعلم أن زمن الهرتزوغ سيولي قريبا دون رجعة وعندها سيقرأ الناس عن أصحاب السلطة المطلقة في الكتب فقط، وستبدو فكرة المثول بين أيديهم والانحناء لهم وانتظار أوامرهم من قصص الخيال.

أمره الهرتزوغ أن يقوم بعملية حسابية أمامه.

سعل (غاوس). شعر بالحرارة والدوخة. كانت الشموع تستهلك الهواء الموجود في الغرفة. نظر إلى لهب الشموع واتضح له على حين غرة أن البروفسور (ليشتنبرغ) لم يكن على حق وأن نظرية اللاهوب غير علمية. إن ما يحترق ليس مادة الضوء، إنما الهواء ذاته.

قال (تسيمرمان) إنه يرجو المعذرة، لا بد أن سوء تفاهم حدث هنا. فالفتى ليس بارعا في الحساب، بل على العكس لا يجيده إطلاقا. إلا أن الرياضيات، ولا بد أن صاحب

Twitter: @ketab_n

السعادة يعرف هذا طبعا، لا علاقة لها مع فن الجمع. قبل أسبوعين قام هذا الولد باشتقاق معادلة (بوده) معتمدا على نفسه، ثم اكتشف جملتين مجهولتين من جمل (أويلر). كما أنه قدم إسهامات عظمى في علم حساب التقويم، فمعادلته لحساب تاريخ عيد الفصح تستخدم في جميع الأراضي الألمانية. كما أن إنجازاته في علم الهندسة خارقة، وقد تم نشر بعض دراساته، ولو باسم هذا الأستاذ أو ذاك، لأنهم لا يريدون أن يعرّضوا الفتى لمفاسد الشهرة المبكرة.

قال (غاوس) بصوت مرتجف إن اهتماماته تنصب على اللغة اللاتينية، كما أنه يحفظ عشرات القصائد.

سأل الهرتزوغ إن تحدث أحد ما في حضرته؟

لكز (تسيمرمان) (غاوس) في ضلعه، قائلا إنه يرجو المعذرة، فالفتى يتحدَّر من أصول اجتماعية فظة وسلوكه ليس على أحسن ما يرام. إلا أنه واثق من عدم وجود ما يحيل بين الفتى والإنجازات العلمية العظيمة، التي ستزيد الوطن شرفا، إلا منحة دراسية قد يتكرم بها البلاط عليه.

سأل الهرتزوغ: إذن، لن تجرى الآن عمليات حسابية؟!

قال (تسيمرمان): للأسف لا.

قال الهرتزوغ خائب الظن: حسنا، ليأخذ المنحة رغم ذلك وليأت من جديد إذا أراد أن يمثل بين أيدينا. فهو يشجع العلوم وابنه بالعماد، الصغير (الكسندر)، انطلق من توه ليبحث عن زهيرات ما في جنوب أمريكا وربما وجد بعض الخير في ابن آخر هنا. أشار لهما بالانصراف وكما تمرنّا تراجع (تسيمرمان) و(غاوس) منحنيين حتى الباب.

بعدها بقليل وصل (بيلاتر دو روزيبه) إلى المدينة. جاء مع الماركيز (دارلاند) في سلة ربطها (مونتغولفييه) إلى كيس ملأوه بالهواء الساخن وطاروا به خمسة أميال ونصف فوق باريس. بعد النزول اضطر رجلان، كما أشيع، إلى إسناد الماركيز ودعمه ليستطيع السير على قدميه، لأنه روى خرافات وزعم أن كائنات نورانية لها صدور النساء ومناقير الطيور حامت حولهم. بعد ساعات طويلة عاد الماركيز إلى عقله، واستعاد هدوءه، وأعاد

Twitter: @ketab_n

مزاعمه بتوتر زائد في الأعصاب. أما (بيلاتر) فقد ظل على العكس منه محتفظا بأعصابه ورد على جميع الأسئلة التي وجهت إليه، قائلا: إن الحكاية كانت عادية جدا. يتصور المرء أنه يبقى في مكانه بينما تنخسف الأرض تحته، لكن لن يفهم هذا الشعور إلا من جربه والآخرون إما سيضخمونه أو يصغرون من شأنه.

كان (بيلاتر) على الطريق إلى ستوكهولم برفقة اثنين من معاونيه مصطحبا آلة طيرانه الخاصة. قضى ليلته في أحد النزل الرخيصة وبدأ بالاستعداد لمتابعة رحلته عندما أرسل له الهرتزوغ من يطالبه بتقديم عرض من عروضه أمام عينيه.

قال (بيلاتر): إن هذا صعب جدا والوقت غير ملائم.

لمّح الرسول إلى أن الهرتزوغ غير معتاد على أن يرد الآخرون على كرم ضيافته بفظاظة.

سأل (بيلاتر): أي كرم ضيافة؟ فقد دفع ثمن مبيته كما أن إعداد المنطاد وحده سيكلفه مسيرة يومين.

قال الرسول: ربما يمكن التحدث إلى السلطات العليا بهذه الطريقة في فرنسا، فكل شيء هناك ممكن، إلا أنه يود تذكيره بأنه في براونشفايغ قبل أن يرده بمثل هذا الجواب.

تمالك (بيلاتر) نفسه قائلا كان عليه أن يتوقع هذا، فقد حدث له نفس الشيء في هانوفر وكذلك في بايرن. برعاية الله سيحلق غدا ظهرا في الهواء على أبواب هذه المدينة القذرة.

في صباح اليوم التالي طرق أحدهم بابه. فوجد (بيلاتر) ولدا ينظر إليه بعينين فضوليتين ويسأله إن كان يسمح له بالطيران معه. قال (بيلاتر): السفر. نحن نسافر بالمنطاد ولا نقول نطير بالمنطاد، إنما نسافر، هذا هو عرف أهل الصنعة.

ـ أي أهل الصنعة؟

رد عليه (بيلاتر) أنه هو الأول وهو الذي حدد هذا المصطلح. ثم لا، طبعا لن يسمح له بالسفر. ربت على خده ونوى إغلاق الباب.

قال الفتى وهو يمسح أنفه بظاهر يده إنه غير معتاد على التباهي، لكن اسمه (غاوس)

Twitter: @ketab_n

وهو ليس نكرة وسيقوم قريبا بابتكارات عظيمة على غرار (اسحق نيوتن). إنه لا يقول هذا من باب الغرور؛ بل لأن الوقت ضيق ومن الضروري أن يشارك في الطيران، فهناك في الأعالي يمكن رؤية النجوم بشكل أفضل ولابد! فهي هناك أكثر وضوحا ولا يحجبها البخار، أليس كذلك؟

- وأي وضوح!

– إذن يجب أن يشاركهم. إنه يعرف الكثير عن النجوم وإذا لم يصدقوه فليجروا له أصعب الاختبارات.

ضحك (بيلاتر) وسأل من علَّم الرجل الصغير أن يتكلم بهذه الفصاحة؟ فكر لحظة ثم قال: طيب، حسنا، إذا كنت مهتما بالنجوم فلا ضير.

في الظهر، وأمام أعين النظارة والهرتزوغ وكتيبة الحرس، التي تزجي التحية العسكرية، ملأت النار ببطء كيسا مصنوعا من الرق بهواء ساخن عبر خرطومين. لم يكن أحد يتوقع أن يدوم الأمر مدة طويلة. كان نصف المتجمهرين قد ذهبوا إلى بيوتهم عندما اتخذ المنطاد شكلا كرويا ولم يبق إلا الربع عندما بدأ بالحركة والارتفاع. اشتدت الحبال، فك معاونا (بيلاتر) الخراطيم، تلاطمت السلة الصغيرة و(غاوس)، الذي كان قابعا على الأرضية المجدولة من القنب هامسا لنفسه، كاد أن يقفز من الفرح لولا أن يد (بيلاتر) ضغطت عليه.

لهث (بيلاتر): ليس الآن. ماذا، هل تصلي؟

همس (غاوس): لا. وقال إنه يحسب الأعداد الأولية، فهذا ما يفعله كلما شعر بالتوتر.

رفع (بيلاتر) إبهامه ليحدد اتجاه الريح. سيصعد المنطاد ثم يسير حيث تقوده الريح، ثم يهبط من جديد إذا برد الهواء داخله. قريبا جدا من المنطاد زعق نورس.

صرخ به (بيلاتر): ليس الآن، ليس الآن. والآن. وجرَّ (غاوس) من رقبته وشعره نحو الأعلى.

الأرض المفلطحة في البعيد. الأفق المنخفض. قمم التلال التي يحيطها البخار. البشر

Twitter: @ketab_n

الذين يمطون أعناقهم. الوجوه الصغيرة حول النار الموقدة، جانبها سقوف المدينة. غيمات الدخان المربوطة إلى المداخن. الدرب المتعرجة بين المرج الذي يسرح فيه حمار صغير كحشرة. تمسك (غاوس) بحافة السلة وعندما حاول أن يفتح فمه اتضح له أنه كان يصرخ طوال الوقت.

قال (بيلاتر): هكذا يرى الرب العالم.

أراد (غاوس) الجواب، إلا أنه كان قد فقد صوته.

يا لقوة الريح التي تهزهم. والشمس، لماذا هي أنصع هنا فوق؟ آلمته عيناه، إلا أنه لم يرغب في إغماضهما. والمكان ذاته! مستقيم يمتد من كل نقطة إلى أخرى، بين هذا السقف إلى تلك الغيمة، إلى الشمس، يرجع إلى السقف. من النقاط تتشكل خطوط، من الخطوط مساحات، من المساحات أشكال. إلا أن الأمور لا تنتهي عند هذا الحد. في الأعلى يصبح تَقَوُّسُ المكان كلي الوضوح. شعر بيد (بيلاتر) على كتفه. لا، لا يريد النزول. نحو الأعلى، نحو الأعلى حتى لا تبقى أرض. يوما ما سيعايش كل الناس هذا المنظر. وقتها سيتمكن الجميع من الطيران، وكأن الطيران من أبسط الأمور، لكنه هو سيكون قد مات. رفع عينيه نحو الشمس بتشوق. تغير لون الضوء. بدا الغسق كأنه ضباب يصعد في السماء التي مازالت ساطعة. آخر اللهب الأحمر في الأفق. ثم اختفت الشمس، ثم ظهرت النجوم. تحت على الأرض، لم تجر الأمور بهذه السرعة أبدا.

قال (بيلاتر) إنهم بدأوا الهبوط.

توسل إليه غاوس: لا، أرجوك لا. يوجد الكثير من النجوم وفي كل دقيقة يظهر المزيد منها. كل واحدة منها شمس منطفئة. كل شيء إلى فناء وكلها تتبع مداراتها، وكما توجد معادلات لكل كوكب يدور حول الشمس، ولكل قمر يدور حول كوكب، فلابد أن توجد معادلة، أكثر تعقيدا بالتأكيد، وربما لم تكن معقدة أصلا، ربما كانت مخفية في بساطتها، معادلة تصف كل هذه الحركات، كل دورة من دورات الجزء والكل، ربما لا يجب إلا التفكير فيها مدة أطول. آلمته عيناه. بدا له وكأنه لم يرف له جفن منذ وقت طويل.

قال (بيلاتر) إنهم سيحطّون على الأرض حالا.

Twitter: @ketab_n

ـ ليس بعد. توسل إليه غاوس، ووقف على رؤوس أصابعه كان لهذا أن يساعده، حدق إلى الأعلى، للمرة الأولى فهم ما معنى الحركة، ما معنى الجسم، والأهم أنه فهم معنى المكان الذي يمتد بينهم ويحيطِ بهم جميعا، حتى هو و(بيلاتر) وهذه السلة، المكان الذي...

ارتطموا بسياج يحيط بكومة قش، انقطع أحد الحبال، انقلبت السلة، انقذف (غاوس) في حفرة طينية، انقذف (بيلاتر)، فانخلعت يده. وأطلق، عندما لاحظ الشق في الرق، أقذع الشتائم بحيث توقف الفلاح الذي هرع من البيت رافعا مِعْزقا. وصل المعاونان وقد تقطّعت أنفاسهما ولفا المنطاد المتجعد. أمسك (بيلاتر) بذراعه، ولطم (غاوس) لطمة مؤلمة.

قال (غاوس) إنه الآن يعرف.

سأله (بيلاتر) ماذا يعرف الآن؟

ـ إن الخطوط المتوازية تتقاطع.

قال (بيلاتر): عظيم.

كان قلب (غاوس) يخفق بسرعة، وفكر هل يقول فكرته للرجل أم لا. كل ما عليه أن يفعله هو أن يضع دفة في السلة ليتحكم بتيار الهواء، ويرغم المنطاد على السير في الاتجاه الذي يريده. لكنه سكت. لم يسأله أحد رأيه، ومن المعيب طرح الأفكار الخاصة على الناس، كما أن الحل بسيط جدا بحيث سيعرفه أحدهم في القريب العاجل.

أما الآن فإن الرجل كان يريد رؤية طفل يعترف بالجميل. وبعد جُهد جهيد تمكن (غاوس) من رسم ابتسامة على وجهه. مد ذراعيه أمامه وانحنى له كلعبة خشبية. سُرَّ (بيلاتر)، ضحك وربت على رأسه.

Twitter: @ketab_n

الكهف

بعد نصف عام قضاه في الأندلس الجديدة، كان (هومبولدت) قد عاين كل ما لا أقدام له وملك شجاعة كافية لئلا يهرب منه. قاس لون السماء، وحرارة البرق، وثقل الضباب الليلي، الذي تتشكل منه حبيبات مطرية، وتذوق ذرق الطيور، وفحص اهتزازات الأرض ودخل كهف الموتى.

سكن مع (بونبلاند) بيتا خشبيا أبيض على حافة المدينة التي أصابها الزلزال قبل وقت قصير. كانت التشققات توقظ الناس ليلا، وأصوات الاهتزازات تسمع من باطن الأرض إذا استلقى عليها أحدهم، وتوقف عن التنفس ليصيخ. حفر (هومبولدت) ثقوبا في كل الأنحاء، أنزل مقياس الحرارة إلى الآبار بعد أن ربطه بخيوط طويلة، ووضع حبات البازلاء على جلود الطبول. قال وهو سعيد الزلزال سيعود من جديد. قريبا ستنهار المدينة كلها.

مساء تناولوا الطعام على مائدة المحافظ ثم اغتسلوا. وضعت كراس صغيرة في ماء النهر وجلس عليها الرجال في ثياب خفيفة. بين الحين والآخر كانت تماسيح صغيرة تسبح من حولهم. ذات مرة قضمت سمكة ثلاث أصابع من قدم ابن أخي نائب الملك. اقشعر الرجل الذي كان اسمه دون (اوريندو كاساولوس) وله شارب ضخم. نظر متجمد الوجه أمامه عدة ثوان، تعبيرا عن الاستغراب لا عن الخوف، قبل أن يرفع قدمه، التي بات ينقصها ثلاث أصابع، من الماء المتلون بالأحمر. تطلع حوله كمن يبحث، عن شيء ما، ثم مال على جنب وأمسكه (هومبولدت). في السفينة التالية عاد الرجل إلى اسبانيا.

غالبا ما كانت النساء يزرن (هومبولدت). كان يحصي أعداد القمل في شعر رؤوسهن المجدول في ضفائر. كن يأتين جماعات جماعات، يتهامسن، ويتضاحكن في سرهن على الرجل القصير في بزته ملصقا عدسة على عينه اليسرى. كان (بونبلاند) يتحرق على جمالهن الفتان، ويسأله عن جدوى إحصاء القمل.

قال (هومبولدت): يريد الرجل أن يعرف لأنه يريد أن يعرف. لم يسبق لأحد أن درس هذه الحيوانات شديدة المناعة على رؤوس أهالي المناطق المدارية.

غير بعيد عن منزلهما أقيم سوق العبيد. كان نساء ورجال مفتولو العضلات، مقيدو

Twitter: @ketab_n

الأقدام في السلاسل، ينظرون نظرات تائهة إلى أصحاب الإقطاعات، الذين يدسون أصابعهم في أفواههم، وينظرون في آذانهم، ويسجدون على ركبهم ليفحصوا شروجهم. كانوا يتحسسون كعوبهم، ويشدون أنوفهم، ويفحصون شعرهم ويتحسسون أعضاءهم الجنسية وغالبا ما يمضون دون أن يشتروا. كانت تجارة العبيد قد صارت قطاعا تتضاءل وارداته. اشترى (هومبولدت) ثلاثة رجال وأمر بفك أغلالهم. لم يدركوا ما يجري لهم. طلب (هومبولدت) من المترجم أن يقول لهم إنهم أحرار، لهم الذهاب حيث يشاؤون. أحَدُّوا النظر إليه. سأل أحدهم: أحرار! أين نذهب؟ أجاب (هومبولدت) حيث شئتم. أعطاهم نقودا، فحصوا النقود بأسنانهم مترددين. جلس أحدهم على الأرض، أغمض عينيه ولم يعد يتحرك، كأن لا شيء في العالم يهمه. ابتعد (هومبولدت) و(بونبلاند) تحت الأنظار الساخرة للواقفين في السوق. التفتا إلى الوراء عدة مرات، لكن لم ينظر إليهما أحد من المعتقين. في المساء بدأ المطر، في الليل هز المدينة زلزال جديد، في صباح اليوم التالي كان الثلاثة قد اختفوا، لا يعلم أحد أين ذهبوا ولم يظهروا بعدها قط. في الموعد التالي لانعقاد السوق ظل (هومبولدت) و(بونبلاند) في المنزل، تابعا العمل سادّيْن المنافذ، ولم يخرجا إلا عندما انفضت السوق.

كانت الطريق إلى الإرسالية التبشيرية في خايماس تمر عبر غابة كثيفة. شاهدا نباتات مجهولة في كل خطوة، كأنه لم يعد على الأرض مكان كاف لكل ذاك النبات. كانت جذوع الأشجار متراصة، بعض النباتات تغطي على الأخرى، والنباتات المتسلقة تلمس رأسيهما وأكتافهما. حياهما رهبان الإرسالية بكل حرارة، مع أنهم لم يفهموا ما يريدانه بالضبط. هز رئيس الدير رأسه مفكّراً: لا بد أن لرحلتهما غاية سرية، فلا أحد يسافر في نصف العالم ليقيس أرضا لا يملكها.

كان يعيش في حدود الإرسالية التبشيرية هنود حمر معمدون تحت إدارة ذاتية. لهم قائد هندي، ومدير شرطة هندي؛ بل حتى كتيبة مسلحة وماداموا يطيعون كل الأوامر، سمح لهم بالعيش وكأنهم أحرار. كانوا عراة لا يرتدون إلا بعض قطع الملابس حصلوا عليها من مكان ما، قبعة مثلا، أو جوربا، حزاما أو كتافيات. احتاج هومبولدت إلى فترة

Twitter: @ketab_n

حتى تمكن من التظاهر بأنه اعتاد على مرأى النساء العاريات. عندما لاحظ كثرة الأماكن التي يوجد فيها الشعر على أجساد النساء، لم يعجبه الأمر، لأنه بدا له غير جدير بكرامتهن الطبيعية. لكنه عندما أبدى ملاحظة في هذا الشأن لـ (بونبلاند)، نظر إليه هذا بمرح، بحيث احمر (هومبولدت) وبدأ يتأتئ.

غير بعيد عن الإرسالية، في كهف طيور الليل، كان الموتى يعيشون. خوفا من الأساطير القديمة امتنع السكان الأصليون عن مرافقتهم إليه وبعد إلحاح طويل، صحبهم راهبان وهندي إلى الكهف، الذي كان من أكبر كهوف القارة الجديدة، كانت حفرة بعرض ستين وطول تسعين قدما، يسقط فيها الضوء عميقا بحيث يسير الباحث حتى على مسافة مائة وخمسين مترا في قلب الجبل على أعشاب تحت ذرى الأشجار. بعد المائة وخمسين مترا اضطروا لإيقاد المشاعل وهنا بدأت الصرخات.

في الظلام كانت تعيش طيور. آلاف الأعشاش معلقة في سقف الكهف كالأكياس. الضجيج يصم الآذان. لا أحد يعرف كيف يستدل على الطريق. أطلق (بونبلاند) ثلاث طلقات، علا صراخ الطيور على صوت الطلقات، وفي الحال التقط جسمين مازالا يرتعشان. حت (هومبولدت) عينات من الصخور، قاس الحرارة وضغط الهواء والرطوبة وأخذ عينات من العفنيات من الجدران. صاح أحد الراهبين عندما داس بصندله حلزونا عملاقا. واضطروا لخوض جدول، فرفرفت الطيور فوق رؤوسهم، وسدَّ (هومبولدت) أذنيه بيديه، ورسم الراهبان علامة الصليب.

قال الدليل: إن مملكة الموتى تبدأ هنا وإنه لن يمضي أبعد.

عرض (هومبولدت) أجرا مضاعفا.

رفض الدليل قائلا: إن هذا المكان ليس خيرا، ثم ما الذي يبحثون عنه هنا، الإنسان يجب أن يعيش في النور.

صرخ (بونبلاند): كلام جميل.

هتف (هومبولدت): النور ليس الضوء، إنما المعرفة.

تابع السير ولحق به الراهبان و(بونبلاند). تفرع الممر ولم يعرفوا أي الفروع يأخذون دون

Twitter: @ketab_n

الدليل. اقترح (هومبولدت) أن يتفرقوا. هز (بونبلاند) والراهبان رؤوسهم رافضين.

قال (هومبولدت): إذن نتجه يسارا

سأل (بونبلاند): لماذا يسارا؟

قال (هومبولدت): إذن يمينا

ـ لكن لماذا نحو اليمين؟

هتف (هومبولدت): اللعنة. أنت تحيّر. ثم دخل أمام الآخرين في الفرع اليساري. كان رجع صرخات الطيور أشد حدة في الأسفل. بعد مرحلة من السير تعرفوا في الصرخات على أصوات حادة تتابعت بسرعات عالية. جثا (هومبولدت) على ركبتيه، وعاين النباتات الضامرة على الأرض. نباتات مترهلة لا لون لها، وتكاد تكون بلا شكل. هدر في أذن بونبلاند: مدهش، لقد كتبت مقالة عن هذه النباتات تماما في فرايبرغ.

عندما رفع الاثنان أبصارهما، اكتشفا أن الراهبين اختفيا.

– خرافات، تابعْ! هتف هومبولدت.

كان الممر منحدرا. صفقت أجنحة الطيور حولهما، لكن لم يمسسهما طير. تلمسا الطريق بمحاذاة الجدار حتى وصلا قبة صخرية. ألقت المشاعل الضعيفة، غير القادرة على إنارة الكهف، ظلالهم الكبيرة على الجدران.

نظر (هومبولدت) إلى مقياس الحرارة. كانت الحرارة تزداد كلما هبطا أعمق. قال: إن البروفسور (فرنر) لن يسر بهذا الخبر. ثم شاهد هيكل أمه بجانبه. أغمض عينيه وفتحهما إلا أن الأم ظلت مرئية فترة أطول مما يستمر الخداع البصري. رآها رابطة شالها على عنقها، تبتسم شاردة ومائلة الرأس. وكان ذقنها وأنفها حادين كما كانت في آخر أيامها، وتحمل في يدها مظلة. أحكم سد عينيه، وعدّ حتى العشرة بصوت خافت.

– عفوا، ماذا؟ سأل (بونبلاند).

– لا شيء، قال (هومبولدت) وثابر بتركيز على حت قطعة من الصخر. قال (بونبلاند): هناك يسير الممر نحو الأسفل.

– يكفي اليوم، قال (هومبولدت).

Twitter: @ketab_n

أشار (بونبلاند) إلى إمكانية وجود المزيد من النباتات المجهولة في عمق الجبل.

قال (هومبولدت): الأفضل أن يرجعوا، يكفي يعني يكفي.

تابعا مجرى أحد الجداول حتى وصلا ضوء النهار.

قلّت الطيور شيئاً فشيئاً، خَفّتْ الصرخات، ثم تمكنا من إطفاء المشاعل.

أمام الكهف كان الدليل الهندي يشوي طيريهما على النار ليذوب الشحم. كان الريش، والمنقار، والمخالب قد احترقت والدم يتقطر على اللهب، كتلة الشحم تقرقر، ودخان مر يعلو البقعة الجرداء في الغابة. قال الدليل: أفضل أنواع الشحوم، لا رائحة له، ويبقى صالحا لمدة عام كامل.

قال (بونبلاند) غاضبا: الآن يجب صيد طيرين آخرين.

طلب (هومبولدت) من (بونبلاند) علبة العرق، تناول جرعة كبيرة، ورافق أحد الرهبان على الطريق إلى الإرسالية، بينما عاد (بونبلاند) إلى الكهف ليصيد الطيور. توقف (هومبولدت) بعد عدة مئات من الأمتار، رفع رأسه ونظر إلى ذرى الأشجار، التي ترفع السماء فوقه عاليا.

ـ الصدى!

الصدى؟ كرر الراهب.

قال (هومبولدت): إذا لم تكن الطيور تجد طريقها بحاسة الشم، فإنها تجده بالصدى. هذه الأصوات الحادة التي ترجعها الجدران. من الواضح أنّ الحيوانات تجد طريقها بهذا الشكل. دوّن أثناء السير عدة ملاحظات وتابع القول: طريقة قد تنفع الإنسان في الليل الحالك أو تحت الماء. والشحم! الشحم أفضل العناصر لتصنيع الشموع، لأنه لا تنبعث منه رائحة. بقوة دفع باب حجرته في الدير، حيث وجد في انتظاره امرأة عارية. ظن بداية أنها جاءت إليه لإحصاء القمل أو ربما كانت تحمل رسالة. ثم أدرك أن الحقيقة ليست كما ظن وأنها تريد منه تماما ذلك الشيء الذي اعتقد أنها جاءت تريده وأنه لا مهرب أمامه.

من الواضح أن المحافظ أرسلها، فقد كانت هذه تصوراته عن المزحة الثقيلة بين الرجال. كانت قد انتظرت وحيدة في الغرفة طوال يوم وليلة ولأنها ملت من الانتظار فككت

Twitter: @ketab_n

السدسية، وعبثت بمجموعة النباتات، وشربت الكحول الذي يحتفظ به للمستحضرات ونامت في سكرها. وبعد أن استيقظت رسمت صورة قزم مرح، لم تعرف فيه فريدريش الكبير، رسما سيئا. ولأن (هومبولدت) وصل أخيرا، فقد أرادت أن تنهي الموضوع بأقصى سرعة.

بينما يسألها من أين أتت وماذا تريد وإن كان له أن يقدم لها أي خدمة؟ كانت هي تفتح بنطاله برشاقة. كانت قصيرة ومدورة لما تتجاوز الخامسة عشرة. تراجع فلحقته، اصطدم بالحائط وعندما أراد أن يؤنبها، كان قد نسي اسبانيته.

قالت إن اسمها (اينيس) ويمكنه الاعتماد عليها.

عندما كانت بصدد خلع قميصه انقطع أحد الأزرار وتدحرج على الأرض. تابع (هومبولدت) دحرجته بعينيه حتى اصطدم بالجدار وسقط. أحاطت عنقه بذراعيها، جرته إلى وسط الغرفة بينما هو يدمدم بأن عليها أن تتركه في حاله، لأنه موظف لدى العرش البروسي.

هتفت: يا إلهي، دقات قلب سريعة جدا.

جرته على البساط ولسبب من الأسباب تركها لتلقيه على ظهره ومدت يديها بين طيات جسمه حتى دهشت وتأكدت ضاحكة أن لا شيء يعتمل بين فخذيه. نظر إلى ظهرها المنحني، إلى سقف الغرفة، إلى أوراق النخيل التي ترتعش على النافذة.

قالت له: إنها ليست مشكلة. عليه أن يعتمد عليها.

كانت أوراق النخلة مدببة وقصيرة، تذكر أنه لم يسبق له أن فحص هذه الشجرة. أراد الانتصاب إلا أنها ضغطت بيدها على وجهه وشدته نحو الأسفل. تساءل: لماذا لا تفهم أنه كان في الكهف؟ لاحقا لن يتمكن من القول كم دام الأمر حتى تركته بحاله، لفت شعرها ونظرت إليه متكدرة. أغمض عينيه. نهضت.

قالت بصوت خفيض مهونة عليه إن الذنب ذنبها هي.

آلمه رأسه. شعر بعطش شديد ولما سمع الباب ينسد خلفها فتح عينيه.

وجده (بونبلاند) جالسا إلى مكتبه بين معداته يعاين أوراق النخلة بعدسة ملتصقة على

Twitter: @ketab_n

عينه. قال: نظام مبدع حقا. لقد آن وقت الرحيل.

ـ هكذا فجأة؟

– حسب المأثورات القديمة يوجد قنال بين نهري الأمازون واورينوكو. عد الجغرافيون الأوروبيون هذا خرافة. تزعم المدرسة السائدة أن الجبال وحدها تشكل خط تقسيم المياه وأنه يستحيل وجود نظام نهري متصل في اليابسة.

قال (بونبلاند) إنه لدهشته لم يفكر في هذا الشيء من قبل!

قال (هومبولدت): لقد أخطأ الرحالة. سيجد القنال ويحل اللغز.

قال (بونبلاند): آها! القنال؟

قال (هومبولدت) إن هذه النظرة لا تعجبه. لا تعجبه الشكوى الدائمة، اللوم الدائم وتساءل هل يطالب بالكثير عندما يطالب بالمزيد من الحماس للعمل؟

سأل (بونبلاند) عما جرى معه.

رد عليه (هومبولدت): قريبا سيحدث كسوف للشمس، وهذا سيؤدي إلى تحديد موقع المدينة الساحلية تحديدا دقيقا اعتمادا على علم الفلك. وعندها سيمكن رسم شبكة من نقاط العلّام حتى نهاية القنال.

ـ لكن هذا القنال يقع في الغابات البدائية!

قال (هومبولدت): هذه مجرد كلمة كبيرة، يجب ألا تخيف المرء. الغابة البدائية بدروها ليست أكثر من غابة. للطبيعة اللغة ذاتها في كل مكان.

كتب إلى أخيه أن الرحلة رائعة. وإن كثرة المكتشفات تهز وجدانه. وإنه يعثر كل يوم على نباتات جديدة، أكثر من أن يمكن تعدادها، وإن الاهتزازات الأرضية تقربه من تدوين نظرية جديدة حول قشرة الأرض. كما أن المعلومات التي جمعها عن طبيعة قمل الرأس تراكمت بشكل هائل. «المخلص دائما. انشر هذه الكلمات في الجريدة».

تأكد من توقف يده عن الارتجاف. ثم كتب إلى (عمانوئيل كانط) إن مشروع علم جديد للجغرافيا الفيزيائية يزدحم في رأسه. ففي كهوف مختلفة، لكن على درجات حرارة متقاربة، تنمو نباتات متشابهة على جميع أنحاء الكوكب، حتى إن الأقاليم المناخية لا

Twitter: @ketab_n

تنقسم بالعرض فقط، إنما تمتد بالارتفاع أيضا. وفي نقطة معينة يمكن أن تكون القشرة الأرضية قد مرت بجميع المراحل من المداري إلى المتجمد. وإذا تم ربط هذه الأقاليم المناخية بخطوط، سيمكن عندها الحصول على خريطة للتيارات المناخية الكبيرة. سيظل معترفا بالجميل للإرشادات آملا أفضل الصحة للبروفسور. أغمض عينيه. وتنفس بعمق وذيّل الرسالة بأفخم الأوصاف التي يقدر عليها.

في اليوم السابق لظلمة السماء حدث أمر غير مألوف. عندما كانا يقيسان الضغط على الساحل قفز من الدغل زامبو، هجين من الهندي والأسود، رافعا قرمة خشبية. هرهر، وغمغم، وحدق، ثم هجم. «يا للحدث المؤلم»، هكذا وصف (هومبولدت) مجريات الحدث عندما كتب عنه بعد عدة أيام على ظهر السفينة المبحرة نحو كاراكاس بين الأمواج المصطخبة وعلى ضوء الشمعة المتراقص حوالي الساعة الثالثة صباحا. كتب أنه نجا من الموت لأنه قفز يسارا، أما (بونبلاند) على يمينه فقد كان أقل حظا. لكن وبينما كان منطرحا على الأرض دون حراك، تخلى الزامبو عن فرصة قتله وعوضا من الهجوم عليه ركض خلف القبعة الاسطوانية الطائرة في الهواء. وضعها على رأسه وابتعد بخطوات واسعة.

لحسن الحظ لم تصب المعدات بسوء، كما أن (بونبلاند) لم يفقد الوعي إلا عشرين ساعة فقط، واستيقظ وقد تورم وجهه، وكسرت إحدى أسنانه، وتغير شكل أنفه قليلا، وتخثر الدم حول فمه وذقنه. و(هومبولدت)،الذي جلس إلى سريره طوال ساعات الصباح والمساء والليل، صب الماء على يديه. اغتسل (بونبلاند)، بصق ونظر إلى المرآة غير راض عن سحنته.

قال (هومبولدت): كسوف الشمس، هل يقدر؟

أومأ بونبلاند.

ـ أكيد؟

بصق (بونبلاند) ولثغ أنه واثق كل الوثوق.

قال (هومبولدت) إنه متأكد من أن أياما عظيمة بانتظارهم. من اورينوكو حتى

Twitter: @ketab_n

الأمازون، في أقصى البقاع الداخلية. يجب أن يتصافحا.

كأنما يكافح ضد قوة عَطالَة، رفع (بونبلاند) ذراعه بصعوبة.

انطفأت الشمس في ساعة العصر المضروبة. وصار الضوء شاحبا، وارتفع سرب طيور عاليا يخفق بأجنحته فزعا وطار في السماء، امتصت الأشياء الضياء، وانتشر الظل وتحولت الشمس إلى قرص مظلم. ثبت (بونبلاند) المعصوب الرأس الزجاج الحاجب على الأفق الصناعي. وجه (هومبولدت) السدسية إليه وراقب الميقاتية بالعين الأخرى. توقف الزمن برهة. ثم عاد لدورته. عاد الضوء. سطعت كرة الشمس، ابتعد الظل عن الهضاب والأرض والأفق. زعقت الطيور، وفي مكان ما أطلق أحدهم رصاصة. ترك (بونبلاند) الزجاج الحاجب.

سأل (هومبولدت): كيف كان الكسوف؟

نظر إليه (بونبلاند) غير مصدق.

قال (هومبولدت) إنه لم يره وإنه لم ير إلا الانعكاس، فقد كان عليه أن يركز السدسية على النجم، ويراقب الساعة في آن واحد وبذلك لم يكن لديه وقت ليرفع رأسه.

قال له (بونبلاند) بصوت مبحوح إنه لن يشاهد كسوف الشمس في حياته مرة أخرى، وتساءل إن لم ينظر فعلا إلى الشمس؟

قال (هومبولدت): لقد تم تحديد موقع المنطقة في الخرائط العالمية إلى الأبد. إن لحظات نادرة فقط تسمح للمرء أن يصحح مجرى الساعات بمساعدة السماء. بعض الناس جادون في العمل أكثر من الآخرين. هكذا هي الحياة.

– يجوز، لكن ... تنهد (بونبلاند).

– لكن؟ تصفح (هومبولدت) تقويم الأجرام العابرة. وتناول قلم الرصاص وبدأ بالحساب. ثم قال: لكن ماذا؟

– هل يجب أن يكون المرء ألمانيا إلى هذا الحد؟

Twitter: @ketab_n

في ذلك اليوم الذي غير وجه العالم كان ألم الأضراس لا يطاق، بحيث اعتقد أنه سيجن. فاستلقى على ظهره طوال الليل واستمع إلى شخير مالكة الغرفة التي يسكنها. حوالي السادسة والنصف صباحا، عندما رف جفنه في شمس الفجر، وجد حلّاً لإحدى أقدم مشاكل العالم.

ترنح في الغرفة كالسكران. كان عليه كتابة الحل فورا، عليه ألا ينساه. فجأة لم تعد الأدراج تفتح، فجأة اختفت الأوراق، انكسرت الريشة وتلوّث الورق، ثم جاءت المبولة الملآنة في طريقه. إلا أنه وبعد نصف ساعة كاملة من الفوضى في الكتابة، كانت جميع المعادلات مدونة على أوراق متجعدة، على هوامش كتاب تعلم اللاتينية وعلى حواف الطاولة. رمى الريشة. تنفس بصعوبة. لاحظ أنه عار. استغرب من القذارة على أرضية الغرفة ومن الرائحة الكريهة. اقشعر من البرد. لم يعد يطيق ألم الأسنان.

قرأ ما دونه. أنعم فيه النظر سطرا سطرا، تابع البراهين، بحث عن خطأ ما فلم يجد. مر بيده على آخر ورقة ونظر إلى الشكل ذي السبع عشرة زاوية المائل والممحو كثيرا. لمدى ألفي عام صمم الرياضيون بالمسطرة والفرجار مثلثات ومخمسات نظامية. كان من الممكن تصميم المربع أو مضاعفة الزوايا لشكل كثير الزوايا بكل سهولة. وإذا جمع أحدهم بين المثلث والمخمس أمكن الحصول على شكل له خمس عشرة زاوية. لكن لم يستطع أحد تصميم المزيد.

ها هو الآن رسم شكلا له سبع عشرة زاوية. واستشف وسيلة يمكن المضي بها قدما إلى المزيد من الزوايا، ما عليه إلا أن يكتشفها.

ذهب إلى الحلاق. ربط هذا يديه ووعده ألا تؤلمه العملية كثيرا، ثم دفع الكماشة في فمه بحركة متقنة. أوشك أن يغمى عليه بمجرد أن لمست الكماشة سنه، وسار تيار الألم في كل أنحاء جسمه. حاول أن يجمع شتات أفكاره، إلا أن الكماشة أمسكت بسنه، طرق شيء ما في رأسه، ولم يعده إلى الغرفة، مع الرجل الذي يرتدي المريول، إلا الطعم الساخن للدم وقرع الطبول في أذنيه. قال له الرجل مداعبا: لم تكن العملية مؤلمة، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

استند في طريق البيت إلى جدران المنازل. لم تطعه قدماه وشعر بالدُّوار. طرأ على ذهنه: لا بد أن يكون هناك أطباء مختصون بالفك خلال عدة سنوات ووقتها سيمكن معالجة هذا الألم ولن يكون هناك داع لقلع كل سن ملتهبة. قريبا لن يكون العالم محشورا بمن لا أسنان لهم. كما لن يكون على وجوه جميع الناس آثار الجدري، ولن يتساقط شعر أحد. استغرب لأن أحدا غيره لا يفكر بمثل هذه الأمور. كل الأشياء بالنسبة للناس، كما هي عليه، بديهية. ذهب إلى مسكن (تسيمرمان) بعينين ذاهلتين.

دخل دون أن يطرق الباب ورمى الأوراق على طاولة الطعام أمامه. قال البروفسور مشفقا عليه: الأسنان! إنها تؤلم فعلا وأضاف أنه ذاته سعيد الحظ لأنه لا ينقصه منها إلا خمس، فالبروفسور (ليشتنبرغ) لم يعد يملك في فمه إلا اثنين منها، أما (كستنر) فقد فقدها كلها منذ زمن بعيد. تناول الورقة الأولى برؤوس الأصابع بسبب بقعة الدم عليها. عقد حاجبيه. تحركت شفتاه. ودامت القراءة عهدا طويلا غير معقول بالنسبة لـ (غاوس). من غير المعقول أن يفكر الإنسان بكل هذا البطء!

وأخيرا نطق (تسيمرمان) قائلا: إن هذه اللحظة لحظة تاريخية عظيمة.

طلب منه (غاوس) كأس ماء.

قال البروفسور إنه يشعر بالرغبة في الصلاة، لا بد أن تطبع هذه الأوراق، الأفضل باسم بروفسور. من غير المعهود أن ينشر الطلاب أبحاثهم باسمهم.

أراد (غاوس) أن يجاوب لكنه، عندما ناوله (تسيمرمان) كأس الماء، لم يقدر على الجواب ولا على الشرب. اعتذر ملوحا بيده وأسرع نحو البيت. وارتمى في السرير وتذكر أمه في براونشفايغ. لقد أخطأ في الانتقال إلى غوتنغن. صحيح أن جامعة غوتنغن أفضل، لكنه يفتقد أمه أثناء المرض أكثر من أي وقت آخر. ثم تورم خده أكثر عند الظهيرة وصارت كل حركاته تؤلمه، اتضح له أن الحلاق قلع السن بالخطأ!

لحسن الحظ كانت الشوارع خالية في الصباح الباكر، فلم يره أحد يتوقف، يسند رأسه إلى الجدران ويبكي. سيعطي روحه ثمنا لمن يضمن له الحياة بعد مائة عام، إذا كان هناك أدوية ضد الألم، وأطباء يستحقون لقب الطبيب. مع أن الحكاية كلها ليست صعبة أصلا،

Twitter: @ketab_n

فكل ما يحتاجه أحدهم هو تخدير العصب في المكان الصحيح بجرعة خفيفة من السم. يجب إجراء المزيد من الأبحاث على الترياق. هناك زجاجة منه في معهد الكيمياء، لابد أن يقوم ببعض التجارب عليه. إلا أن أفكاره أخذت منحى آخر ولم يعد يسمع إلا تأوهاته.

قال الحلاق: أحيانا تحدث أخطاء، الألم ينتشر في عدة مناطق لكن الطبيعة ذكية وللإنسان عدد كبير من الأسنان. ولما رفع الكماشة، اسودت الدنيا في عين (غاوس).

كأنما محا الألم الحدث من ذاكرته أو من الزمن. وجد نفسه بعد ساعات، ربما بعد أيام، ما أدراه هو كم من الوقت مر عليه، في غرفته المقلوبة رأسا على عقب، ورأى زجاجة عرق نصف فارغة على الطاولة وأمام قدميه الصفحة العلمية في الجريدة الأدبية العامة، التي نشر فيها مستشار البلاط (تسيمرمان) أحدث الوسائل لتصميم شكل نظامي له سبع عشرة زاوية. بجانب السرير كان (بارتلز) الذي جاء ليهنئه.

تحسس (غاوس) خده، وقال: آه (بارتلز). كان الأخير يفهم مشاعره، فهو ذاته من أصول فقيرة. اعتبر في زمنه طفلا معجزة وتصور نفسه عظيما ذات مرة. ثم جاء (غاوس) في طريقه. وهذا عرف لاحقا أن (بارتلز) لم يغمض عينيه طوال ليلتين بعد لقائهما الأول وفكر بالعودة إلى القرية ليحلب الأبقار وينظف الحظائر، لكنه أدرك في الليلة الثالثة أنه لا سبيل أمامه لإنقاذ روحه إلا أن يحب (غاوس). وقرر أن يساعده حيث استطاع. منذ تلك اللحظة وضع كل جهده في العمل المشترك، تحدث بشأنه مع (تسيمرمان)، كتب إلى الهرتزوغ وأرغم والد (غاوس) ذات مساء، مهددا إياه بشيء لم يعد أي منهما يرغب في تذكره، على إرسال ابنه إلى المدرسة الثانوية. في الصيف الماضي رافق (غاوس) إلى بيت أهله في براونشفايغ. فجأة انفردت به أمه، وطرحت عليه سؤالا واحدا وهي تشعر ببالغ القلق والخجل: ابنها هذا في الجامعة، بين كل أولئك الناس المتعلمين، هل سيكون له مستقبل؟ لم يفهم (بارتلز) السؤال. فشرحت له أنها تعني إن كان (كارل) الصغير ينفع لشيء ما، وأكدت عليه أن الكلام سيبقى بينهما، فهي كأم قلقة على ابنها. صمت (بارتلز) قبل أن يرد عليها باحتقار، ندم عليه تاليا، إن لم تكن تعرف أن ابنها أكبر علماء العالم! بكت بكاء حارا، كان الموقف محرجا جدا. لم يتمكن (غاوس) من أن يغفر لـ (بارتلز) دموع أمه تماما.

Twitter: @ketab_n

قال (غاوس) إنه الآن اتخذ قراره.

– ماذا؟ نظر إليه (بارتلز) شاردا.

تنهد (غاوس) فاقدا الصبر. وتابع أنه قرر أن يهب نفسه للرياضيات. حتى الآن كان ينوي الانتقال إلى دراسة اللغات القديمة ومازالت فكرة كتابة دراسة عن (فرجيل) تراوده، خاصة عن هبوط (عينياس) إلى العالم السفلي، فلم يحط أحد بهذا إحاطة تامة حتى الآن. سيكون عنده الوقت لتنفيذ هذه الفكرة، فهو قد بلغ بالنتيجة التاسعة عشرة توا، لكنه يرى الآن أنه يستطيع إنجاز المزيد في الرياضيات. فإذا كان الإنسان مضطرا للعيش في هذه الدنيا، حيث إن أحدا لم يسأله إن كان يريد هذا أم لا فليحاول إذن أن يقدم لها شيئا ما. مثلا: حل السؤال الأزلي عن العدد. ما هو العدد، أساس الحساب؟

قال (بارتلز): إنه إنجاز عظيم. لا مثيل له.

أومأ (غاوس) برأسه وقال إنه سينجزه في خمس سنوات إذا تيسرت الأمور.

لكن اتضح له فورا أن الفكرة قد تنجز في مدة أقصر. فحالما بدأ العمل فيها تواردت الأفكار على رأسه بتسارع غير معهود. لم ينم إلا قليلا، انقطع عن زيارة الجامعة، لم يأكل إلا الضروري، ولم يزر أمه إلا نادرا. عندما كان يعبر الشوارع متحدثا إلى ذاته، كان يشعر بنفسه في أشد حالات اليقظة. تحاشى الاصطدام بالناس دون أن ينظر إليهم، لم يحدث أن تعثر ولو مرة واحدة. قفز مرة إلى ناحية دون أدنى سبب، ولم يفاجأ عندما سقطت حجرة من حجارة سقف بجانبه. أدرك أن الأعداد لا تخطف الإنسان من الواقع، إنما تقرب الواقع أكثر، تجعله واضحا كما لم يكن من قبل.

رافقته الأعداد حيث ذهب. لم يكن ينساها حتى أثناء زيارة العاهرات. لم يكن يوجد منهن الكثير في غوتنغن وهؤلاء كن يعرفنه، يحيينه بصيغة المفرد ويمنحنه أحيانا تخفيضات لأنه شاب، حسن المنظر ويتمتع بأخلاق عالية. كان اسم عاهرته المفضلة (نينا) الفتاة القادمة من مدينة بعيدة في سيبيريا وتقطن في دار الولادة القديم ولها شعر قاتم اللون، وغمازات عميقة في الخدين وكتفين عريضتين يفوحان برائحة التراب. في تلك اللحظات التي يأخذها بين يديه، يتطلع إلى السقف، ويشعر بتأرجحها فوقه، كان يعدها بالزواج

Twitter: @ketab_n

منها وتعلم لغتها. كانت تضحك منه وعندما يقسم لها أنه جاد في القول كانت تكتفي بالرد أنه مازال غض العمر.

أشرف على امتحانه لنيل الدكتوراه البروفسور (بفاف). بناء على الرجاء الذي كتبه على ورقة سلفا أعفي من الامتحان الشفوي. كما أن مثل هذا الامتحان لم يكن له داع. عندما ذهب لاستلام الشهادة كان عليه الانتظار في الممر. أكل قطعة حلوى مجففة، وقرأ في جريدة غوتنغن العلمية تقريرا نشره أحد الدبلوماسيين البروسيين عن أخيه المقيم في الأندلس الجديدة، يصف فيه حياته هناك: بيت أبيض على حافة المدينة، مساء يتغلب فيه الرجال على الحرارة بالغطس في النهر، أفواج النساء تأتي لتعداد القمل في شعر رؤوسهن. تابع (غاوس) تصفح الوريقات باندفاع بارد: هنود عراة في إرسالية تبشيرية للكبوتشيين، طيور تعيش في المغاور، ترى بأصواتها كما ترى الكائنات الأخرى بعيونها، كسوف الشمس الكلي ثم الانطلاق نحو نهر اورينوكو. ظلت رسالة الرجل عاما ونصف على الطريق حتى وصلت ولا يعلم إلا الله إن كان حيا أم لا. أخفض (غاوس) الجريدة. كان (تسيمرمان) و(بفاف) واقفين قبالته. لم يجرؤا على إزعاجه.

قال: إن هذا الرجل مثير فعلا. لكن من ناحية أخرى لا فائدة مما يفعله، كأن الحقيقة في مكان بعيد وليست هنا. أو وكأن الإنسان يستطيع الهرب من نفسه!

ناوله (بفاف) الشهادة مترددا. طبعا تقدير امتياز. قال (تسيمرمان): يقال إن هناك بحثا عظيما قيد الإنجاز؟ وتابع إنه سعيد لأن (غاوس) وجد أخيرا ما يأسر لبه ويبعد عنه الملانخوليا.

قال (غاوس) إنه فعلا يكتب بحثا جديدا وسيذهب إذا أنهاه.

تبادل البروفسوران نظرة. من إمارة هانوفر، نرجو ألا يحدث هذا؟

قال (غاوس): لا ، لا تخافا، بعيدا جدا لكن ليس خارج إمارة هانوفر.

تقدم العمل في البحث بسرعة. تم اشتقاق معادلة المعاملة بالمثل من الدرجة الثانية. اقترب لغز الأعداد الأولية من الحل، أنهى الفصول الثلاثة الأولى ووصل إلى الفصل الرئيس. إلا أنه دائما ما كان يرمي الريشة جانبا، ليضع رأسه بين يديه، ويسأل إن كان ما

Twitter: @ketab_n

يقوم به جائزا. ألم يتعمق أبعد من الحدود؟ القواعد قامت على أساس الفيزياء، وعلى أساس القواعد قامت القوانين، وعلى أساس القوانين قامت الأعداد، فإذا تأمل المرء في هذا بعين حادة تبينت له القرابة بينها، قرابة جذب أو نبذ.

ثم جاء اليوم حيث لم تعد لديه نقود. فلأنه لم يعد طالبا انقطعت عنه المنحة الدراسية. استنكر الهرتزوغ انتقاله إلى غوتنغن وصار من المستحيل تمديد المنحة.

قال (تسيمرمان): هنا يمكن فعل شيء ما. يوجد عمل. السلطات تحتاج شابا نشيطا لمسح الأراضي.

هز (غاوس) رأسه رافضا.

قال (تسيمرمان): لن يدوم العمل طويلا، كما لم يسبق أن أضر الهواء النقي بأحد حتى الآن.

بهذا وجد نفسه فجأة يتخبط في السهول تحت الأمطار. كانت السماء منخفضة ومظلمة والأرض موحلة. قفز فوق سياج وتوقف أمام فتاتين لاهثا، متعرقا، تتناثر إبر الصنوبر في شعره. لما سألتاه عما يفعل شرح لهن بعصبية تقنية تقسيم السطح إلى مثلثات: إذا عرفنا ضلعا وزاويتين في مثلث يمكن حساب الضلعين الآخرين والزاوية المجهولة. هكذا نختار مثلثا ما هنا في الخارج على أرض الله الواسعة، نقيس الضلع الأسهل نحدد الزوايا بهذه الآلة لتحديد النقطة الثالثة. رفع المزواة، هكذا وهكذا وانظرا، هكذا، أدار الآلة بأصابع خرقاء كأنما يفعلها للمرة الأولى. ثم نجمع سلسلة من هذه المثلثات إلى بعضها البعض. هناك باحث بروسي يفعل هذا الشيء تماما في هذه اللحظة بين الكائنات الخرافية في العالم الجديد.

ردت عليه كبراهما: لكن السهل ليس سطحا.

حدق فيها. لم تقم باستراحة. كأنه ليس عليها التفكير قبل الكلام. ثم قال مبتسما: في الواقع لا.

قالت: مجموع زوايا المثلث مائة وثمانون درجة على سطح مستو فقط، لكن ليس لها نفس المجموع على كرة. وعلى هذه الحقيقة يتوقف كل شيء.

Twitter: @ketab_n

تطلع فيها وكأنه لم يرها قبل الآن. ردت على نظرته بأن رفعت حاجبيها. قال: نعم. هكذا. لإزالة هذا الخطأ يجب على المرء أن يصغر المثلثات بعد القياس إلى أصغر مساحة ممكنة. هذه بالأساس عملية تفاضلية عادية جدا، لكن في هذا الشكل ... جلس على الأرض وأخرج دفتره. غمغم وهو يرسم: بهذا الشكل لم يقم أحد بمسح الأرض حتى الآن. وعندما رفع ناظريه كان وحيدا.

استمر في التنقل بين السهوب حاملا معداته عدة أسابيع، دق في الأرض أسافين، وقاس المسافات بينها. مرة تدحرج وراء أجمة وانخلعت كتفه، سقط أكثر من مرة بين نباتات القراص وفي ظهيرة أحد الأيام، حيث كان الشتاء على الأبواب، رماه قطيع من الأطفال بكرات الثلج القذرة. وعندما اندفع كلب من الغابة وهجم عليه، أوقعه أرضا، وعض ربلته عضة غير مؤذية ثم اختفى كسحر ملعون، قرر أن يكف عن هذا العمل. فهو لم يخلق لمثل هذه المخاطر.

لكنه بالمقابل أكثر من لقاءاته بـ (يوهانا). كأنها دائما بقربه وتختفي فقط إذا ألمت به نوبة من ضعف الانتباه. كانت تسير أمامه على الشارع، ويشعر كأن مجرد رغبته في أن تبطئ الخطى تجعلها تبطئ الخطى. أو أنها كانت تجلس وراءه في الكنيسة بثلاث صفوف بملامح مرهقة إلا أنها متيقظة، بينما يصور لهم الخوري اللعنة الأبدية حال لم يجعلوا آلام المسيح آلامهم، وهمومه همومهم ودمه دمهم. منذ زمن بعيد تخلى (غاوس) عن السؤال عما تعنيه هذه السفاسف كان يعرف بأي نظرة ساخرة ستنظر إليه إذا التفت نحوها.

ذهبا مرة برفقة صديقتها الغبية، الضاحكة أبدا، (مينا) للتنزه خارج المدينة. تحدثوا عن الكتب الجديدة، التي لا يعرفها، وعن كثرة هطول المطر، وعن مستقبل حكومة الثورة في باريس. غالبا كانت (يوهانا) تجاوبه قبل أن ينهي كلامه. فكر أن يحاصرها بذراعيه ويطرحها أرضا وكان يعرف تماما أنها تعرف أفكاره. هل كل هذا التمثيل ضروري فعلا؟ طبعا كان ضروريا. وعندما لامس يدها دون عمد، انحنى انحناءة عميقة كما يفعل النبلاء وأومأت هي برأسها. تساءل على طريق العودة بينه وبين نفسه: إن كان سيأتي ذلك اليوم حيث يتعامل الناس دون رياء. لكن قبل أن يجد جوابا لسؤاله اكتشف أن كل عدد هو

Twitter: @ketab_n

حاصل مجموع ثلاثة أعداد مثلثية. تحسس دفتر ملاحظاته بيد مرتعشة، لكنه كان قد نسيه في البيت، لهذا وجد نفسه مضطرا ليدندن بالمعادلة همسا حتى وصل إلى الحانة التالية، حيث انتزع قلما من يد النادل وكتب المعادلة على غطاء الطاولة.

بعدها لم يعد يترك الغرفة. صار النهار مساء والمساء ليلا يذوب في ضوء الفجر الشاحب حتى يبدأ يوم جديد وكأن هذه السيرورة بديهية. لكن هذا لم يكن بديهيا، فالموت يحل بسرعة غير مرتقبة وعليه الإسراع في عمله. أحيانا كان (بارتلز) يأتي بالطعام، أحيانا كانت أمه تأتي، تمسح على شعره، تنظر إليه بعيون ملؤها الحب وتحمر فرحا عندما يقبل وجنتيها. ثم ظهر (تسيمرمان) وسأله إن كان يحتاج إلى مساعدة على العمل، التقت نظراتهما، وتابع طريقه محتارا مدمدما. جاءت رسائل من (كيستنر)، ومن (ليشتنبرغ)، ومن (بوتنر) وكاتب الهرتزوغ لكنه لم يقرأ أيا من رسائله. أصيب مرتين بالإسهال، وثلاث مرات بألم الأسنان وعانى مرة من مغص حاد، حتى تصور أن الموت قد حان وأن الرب لا يسمح له بمتابعة العمل، وأن النهاية قد جاءت. في ليلة أخرى بدت له كل العلوم، وكل حياته، غريبة وسطحية. لأنه لا صديق له ولا أحد يعني له شيئا عدا أمه. لكن حتى هذه الكآبة مضت دون رجعة.

ثم انتهى ذات مساء ممطر. رمى الريشة، وتنخم، ومسح جبينه. غابت عنه ذكريات الأشهر الأخيرة، وغابت كل الصراعات التي عاناها والقرارات والأفكار التي اتخذها في زاوية قصية من دماغه. كل هذا عاناه شخص آخر. أمامه كانت المخطوطة التي خلفها الآخر، مئات من الصفحات المكتوبة بخط صغير. قلب الأوراق، وتساءل كيف تمكن من إنجاز كل هذا؟ ولم يتذكر أي إلهام أو أي إيحاء. كل ما تذكره أنه كان دؤوبا على العمل.

اضطر لاستدانة تكاليف الطبع من (بارتلز)، الذي لم يكن ذاته يملك إلا القليل من المال. ثم حدثت مشكلات أثناء مراجعة الأوراق وتصحيحها، فلم يدرك المصحح اللغوي الغبي في المطبعة أن لا أحد يستطيع تصحيح أوراقه. كتب (تسيمرمان) إلى الهرتزوغ، فتبرع هذا ببعض المال وهكذا طبع كتاب (مقالة في نظرية الأعداد). لقد أنهى إنجاز عمره وهو لما يبلغ العشرين. كان يعلم أنه لن يتمكن من الإتيان بعمل على هذا النحو مهما طال به العمر.

Twitter: @ketab_n

طلب يد (يوهانا) في رسالة. رفضت الطلب، وكتبت له إنها لا ترفضه لشخصه، إلا أنها تعتقد أن الحياة في ظله تعني الضياع، وتظن أنه يمتص الحياة والقوة من الناس كما تمتص الأرض القوة من الشمس والبحر والأنهار، وأن الآخر يخبو بقربه، ويصير مجرد خيال.

أومأ برأسه. كان ينتظر تماما هذا القرار وإن لم يتوقع أن تعلله بهذا الأسلوب البليغ. لم يعد ينقصه إلا شيء واحد.

كانت الرحلة عذابا لا يوصف. بكت أمه أثناء الوداع كأنه سيهاجر إلى الصين، ورغم أنه كان مصمما على ألا يفعلها، بكى هو أيضا. تحركت العربة وكانت في بدء الرحلة مليئة بأشخاص رائحتهم نتنة، كانت امرأة تأكل بيضا نيئا بقشره، ورجل يسرد النكات دون توقف، نكاتا تسب الرب ولا تُضحِك. حاول (غاوس) أن يتخلص من عبء مرافقيه بالتركيز على العدد الجديد من جريدة (الرسالة الشهرية لتشجيع علوم الأرض والسماء). فقد ظهر شبح كويكب على منظار العالم الفلكي (بيازي) عدة ليال، ثم اختفى قبل تحديد مساره. ربما كان خطأ وربما كان كويكباً متنقلا بين الكواكب الدنيا والعليا. لكن (غاوس) اضطر لطي الجريدة لأن الشمس غابت ولأن العربة كانت تتأرجح بشدة ولأن المرأة آكلة البيض النيئ نامت على كتفه. أغمض عينيه، رأى جنودا تسير، ثم ظهرت له قبة السماء وعليها خطوط مغناطيسية، ثم (يوهانا)، ثم استيقظ. صباحا كانت السماء المكفهرة تصب الماء من أباريق. لكن الليل لم ينقض. لم يتصور أن تدوم الرحلة إحدى عشرة ليلة وأحد عشر نهارا، السفر عذاب أليم!

عندما وصل إلى كونيغسبرغ كاد يغشى عليه من الإرهاق وآلام الظهر والملل. لم يكن في جيبه المال الكافي ليستأجر غرفة في نزل ولهذا توجه من فوره إلى الجامعة حيث دله الحاجب الأبله على الطريق. ومثل جميع الناس في كونيغسبرغ كان الرجل يتكلم لهجة غريبة، حتى الشوارع كانت عجيبة ولها لوحات غير مفهومة، كما لم يكن لطعام الحانات رائحة الطعام. لم يسبق له أن ابتعد عن البيت كل هذه المسافة.

وأخيرا وجد العنوان. طرق الباب وبعد انتظار طويل فتح له عجوز مترهل وقال قبل أن يقدم (غاوس) نفسه إن رب البيت الموقر لا يستقبل الضيوف.

Twitter: @ketab_n

حاول (غاوس) أن يوضح له من يكون ومن أين هو قادم.

كرر الخادم جملته: رب البيت الموقر لا يستقبل الضيوف وأضاف أنه شخصيا يعمل في الدار منذ عهد بعيد لا يمكن تصوره وأنه لم يعارض الأوامر طوال خدمته.

أخرج (غاوس) من جيوبه توصيات من (تسيمرمان)، و (كستنر)،و (ليشتنبرغ) و (بفاف) وقال إنه يلح أن يقرأ رب البيت هذه الأوراق.

لم يرد الخادم. أمسك بالأوراق بالمقلوب دون أن يلقي عليها نظرة.

كرر (غاوس) أنه يلح على مقابلة رب البيت وأضاف أنه يدرك أن المترددين على البيت كثر ولرب البيت الحق في حماية نفسه منهم لكنه، وهو يقول هذا بكل وضوح، ليس شخصا عاديا.

تملى الخادم فيما قاله (غاوس). تحركت شفتاه دون أن ينطق كلمات. يبدو أنه لم يعد يعرف ماذا يقول. ثم غمغم: طيب. دخل البيت وترك الباب مفتوحا.

لحق به (غاوس) مترددا، عبر ممرا قصيرا ومظلما إلى غرفة صغيرة. احتاج برهة حتى اعتادت عيناه على الظلمة، وتمكن من رؤية نافذة عليها ستارة، وطاولة وأريكة فيها قزم متدثر بأغطية صوفية. قزم غليظ الشفتين، بارز الجبين، حاد الأنف دقيقُه، لم تتحول عيناه نصف المفتوحتين إلى (غاوس). كان الجو خانقا يصعب التنفس فيه. سأل بصوت مبحوح: إن كان هذا القزم هو ذاته البروفسور؟

– من يكون إذن؟ رد عليه الخادم.

تقدم إلى الأريكة، وأخرج بيد مترددة نسخة من كتابه، سطر على صفحتها الأولى شيئا على غرار بالغ الاحترام والتقدير والشكر. وضع الكتاب أمام عيني القزم، لكن هذا لم يحرك يدا. رجاه الخادم هامسا أن يضع الكتاب على الطاولة.

بصوت خافت شرح غاوس مبتغاه: لديه أفكار لم يجرؤ حتى الآن أن يطرحها على أحد. يعتقد أن المكان الاقليدي ليس محددا حسب ما نراه فعلا، وبالتالي حسب الخبرة الممكنة، كما يزعم (نقد العقل المحض)، إنما هو افتراض، حلم جميل. بينما الحقيقة مرعبة: لم يبرهن أحد على الجملة القائلة: إن المستقيمَيْن المتوازيَيْن لا يلتقيان أبدا، لا اقليدس ولا

Twitter: @ketab_n

غيره. لكنها ليست بديهية كما يقال. هو، (غاوس)، يعتقد أن الجملة ليست صحيحة. ربما استحال وجود المتوازيات. ربما سمح المكان، إذا كان لدينا مستقيم ونقطة بجانبه، بأن نرسم عددا كبيرا من المتوازيات من هذه النقطة. الأمر الوحيد المؤكد هو أن المكان مجعد، محدب وغريب جدا.

ارتاح لأنه قال كل هذا للمرة الأولى. وللحال تواردت الكلمات متسارعة وتشكلت الجمل ذاتيا. قال: إن أفكاره ليست مجرد بنات خيال، إنه يزعم أن .... توجه نحو النافذة إلا أن صريرا مذعورا أصدره القزم دعاه إلى التوقف عن قصده. تابع القول إنه يزعم أن لمثلث كبير المساحة، مرسوم بين ثلاثة نجوم، هناك في الخارج، مجموع زوايا يختلف عن مائة وثمانين درجة إذا قيست الزوايا قياسا دقيقا، أي أن مثل هذا المثلث سيكون جسما كونيا. عندما رفع ناظريه ملوحا بيده لاحظ نسيج العنكبوت على السقف، متراكما عدة طبقات متداخلة. تابع القول: ذات يوم سيمكن إجراء هذه القياسات إلا أن الأجل سيكون قد حان. ما يهمه عاجلا هو رأي الشخص الوحيد الذي لن يعده مجنونا، الوحيد الذي سيفهمه. رأي الرجل الذي وهب العالم علوما كثيرة عن المكان والزمان، لا يبزه فيها أحد. جثا على ركبتيه بحيث صار وجها لوجه مع القزم. انتظر. توجهت إليه العينان الصغيرتان.

قال (كانط): صابون.

– عفوا!؟

قال (كانط): على الخادم أن يشتري صابونا. صابونا ونجوما أيضا.

نهض (غاوس).

قال (كانط): «أيها السادة المدنية لم تهجرني كليا». سال اللعاب على ذقنه.

قال الخادم: إن السيد الموقر تعبان.

أومأ (غاوس). لمس الخادم وجنة (كانط) بظاهر يده. ابتسم الرجل ابتسامة ضعيفة. خرجا. استودعه الخادم بانحناءة خفيفة دون أن يقول كلمة. رغب (غاوس) في أن يعطيه شيئا لكنه ذاته لم يكن يملك المال. من بعيد سمع غناء أصوات غليظة لرجال. قال الخادم:

Twitter: @ketab_n

إنها جوقة السجن ولطالما أزعجت هذه الأصوات السيد الموقر.

في العربة، حيث انحشر بين قس وضابط سمين حاول يائسا أن يدير الحديث مع الركاب، قرأ للمرة الثالثة المقال عن النباتات العجيبة. تذكر الكويكب المكتشف حديثا: طبعا يمكن حساب مداره. كل ما على المرء أن يفعله هو أن يعتمد في القياس على القطع الناقص عوضاً من الاعتماد على الدائرة أثناء الحساب، وأن يكون أكبر عقلا من كل فارغي الرؤوس حتى الآن، وبعد عدة أيام من العمل سيمكن التنبؤ بموعد ومكان ظهور النجم من جديد. عندما سأله الضابط عن رأيه بالحلف الفرنسي الاسباني؟ لم يعرف جوابا.

سأله الضابط: ألا يعتقد أن هذا يعني نهاية النمسا؟

رفع كتفيه.

– ثم (بونابرت) هذا!

– عفوا، من؟! سأل (غاوس).

في براونشفايغ كتب رسالة ثانية إلى (يوهانا) يطلب فيها يدها. ثم تناول زجاجة الترياق من خزانة السموم في معهد الكيمياء. كان باحث ما قد أرسلها مع مجموعة من الأعشاب والأوراق المخطوطة عبر الاوقيانوس، واصطحبها كيمياوي من برلين وظلت في مكانها دون أن يعرف أحد ماذا يفعل بها. أشيع أن جرعة صغيرة جدا منها تقتل الإنسان. سيقال لأمه إنه أصيب بنوبة قلبية لم تظهر عليه أعراضها ولذلك لم يكن بالإمكان تفاديها، مشيئة الله. نادى ساعيا من الشارع، ختم الرسالة ودفع أجره بآخر ما لديه من النقود. ثم حدق من النافذة وانتظر.

فتح الزجاجة. لم يكن للسائل رائحة. تساءل في نفسه: إن كان سيتردد؟ أغلب الظن سيتردد. لا يمكن للرجل أن يعرف نتائج اختبار كهذا قبل أن يقوم بالتجربة العملية. إلا أن قلة خوفه فاجأته. سيأتي الساعي بالرفض ثم سيكون موته نقلة جديدة على رقعة الحياة، نقلة لم تحسب لها السماء حسابا. لقد تم إرساله إلى العالم بذهن وقّاد يحيل كل ما هو إنساني إلى شيء لا يطاق، وهذا في زمن مازالت فيه كل خطوة صعبة، ومجهدة وقذرة. لقد أرادت السماء أن تسخر منه.

Twitter: @ketab_n

ما الاحتمال الآخر للحياة، حيث أنجز عمل حياته؟ سنوات وسنوات من الحياة العادية، الارتزاق بطريقة غير مشرفة، الحلول الوسطى، الخوف والقلق، المزيد من الحلول الوسط، ألم الجسد والروح والانحطاط البطيء للطاقات حتى عجز الشيخوخة! لا ولا، هذه ليست حياة.

شعر بجلاء مدهش أنه يرتعش بقوة. سمع الهدير في أذنيه، رأى ارتجاف يديه، أصاخ إلى الضربات القصيرة لتنفسه. كادت هذه الإحساسات تسليه.

طرق أحدهم الباب. هتف صوت يشبه صوته قليلا: أدخل.

دخل الساعي، دس في يده ورقة وانتظر الإكرامية بملامح وقحة. في أسفل درج وجد قطعة معدنية. قذفها الساعي في الهواء، استدار نصف استدارة وتلقفها خلف ظهره. بعد عدة ثوان رآه يسير في الزقاق.

فتح رسالة (يوهانا) بيدين خدرتين، رماها جانبا وتناول الزجاجة. فجأة شعر بأنه أغفل شيئا في الرسالة. فكر فيه قليلا. كان قد حدث شيء غير متوقع. أغلق الزجاجة. فكر مليا، إلا أنه لم يتذكر ما الذي أغفله. ثم اتضح له أنه قرأ موافقة على الزواج.

Twitter: @ketab_n

سريعا ما انقضت الأيام في كاراكاس. اضطرا لصعود البركان المنطفئ وحيدين دون دليل، فقد تبين أنه لم يرتق أحد من المواطنين الأصليين الجبل المدرج من قبل. ما عادت أنف (بونبلاند) تتوقف عن النزيف، وسقط أغلى مقياس ضغط لديهما في الوادي وتهشم. قرب القمة وجدا محارا متحجرا. قال (هومبولدت): عجيب، من المستحيل أن يكون الماء قد ارتفع إلى هذا المنسوب وهذه القواقع ليست إلا إشارة على تكون الجبل، على قوى قادمة من باطن الأرض.

على القمة هاجمهم سرب من النحل ذو الفراء. ارتمى (بونبلاند) على الأرض بينما ظل (هومبولدت) منتصبا، السدسية في يده والعدسة على وجهه الذي غزته الحشرات. دب النحل على جبينه، وعلى أنفه وعلى ذقنه ودخل ياقة قميصه. كان المحافظ قد أنذره: المهم ألا تتحرك، ألا تتنفس. أن تنتظر.

سأل (بونبلاند) إن كان يستطيع رفع رأسه من جديد.

– الأفضل لا، قال (هومبولدت) دون أن يحرك شفتيه.

بعد ربع ساعة تطايرت الحشرات عنه، وأزّت منتشرة في سحابة داكنة في شمس المساء. اعترف (هومبولدت): أن الثبات لم يكن سهلا جدا وأنه أوشك أن يصرخ مرة أو مرتين. جلس على الأرض، دعك جبينه وقال إن أعصابه لم تعد كما كانت.

أقيم لوداعهما حفل كبير على مسرح مفتوح في كاراكاس. تصاعدت قرقرة الأنغام في الظلمة، كان الليل رحبا ومليئا بالنجوم، تدفقت الدموع في عيني (بونبلاند). همس له (هومبولدت) إنه لا يعرف. لكن الموسيقا لم تعن له شيئا أبدا.

انطلقا على ظهور البغال نحو نهر اورينوكو. حول العاصمة كانت سهوب شاسعة، خالية من شجرة أو نبتة أو هضبة، تمتد آلاف الأميال. كان الفضاء زاهيا حتى ظنا أنهما يسيران على مرآة مصقولة، تحتهما ظلالهما وفوقهما السماء، أو أنهما خيالا كائنيْن من عالم آخر. فجأة سأل (بونبلاند) إن كانا فعلا على قيد الحياة؟

Twitter: @ketab_n

رد عليه (هومبولدت) بأنه أيضا لا يعلم، وسواء كانا حيين أم ميتين، فما عليهما إلا متابعة السير.

بعد أن مر عليهما دهر شاهدا أشجارا، ومستنقعات وعشبا، لم يكونا يعرفان كم استغرقت رحلتهما. صعب على (هومبولدت) قراءة الكرونومتر، فقد نسي كيف يقيس الوقت. ظهرت لهما أكواخ واستقبلهما بشر ولم يصدقا أنهما سارا أسبوعين فقط، إلا بعد أن سألا أكثر من مرة عن التاريخ.

التقيا في كالابوزو عجوزا لم يغادر القرية طوال حياته ورغم ذلك كان يملك مخبرا فيه أنابيب وزجاجات، ومعدات معدنية لقياس الاهتزازات الأرضية ورطوبة الهواء وشدة المغناطيس، كما كان فيه آله بدائية تتحرك مؤشراتها إذا كذب أحدهم بقربها أو تفوه بترهات وجهازا يتكتك ويئن منتجا شرارات وامضة بين عشرات البكرات التي تدور متعاكسة. هتف العجوز إنه هو من اكتشف هذه الطاقة الملغزة وأن هذا الاكتشاف يجعل منه عالما كبيرا.

رد هومبولدت: ولا شك، ولكن ..

لكزه بونبلاند. أدار العجوز ذراع الجهاز بمزيد من السرعة، طقطقت الشرارات بصوت أعلى وأعلى، وارتفعت شدة التوتر حتى وقف شعر رأسهم.

قال (هومبولدت): عظيم، لكن اسم هذه الظاهرة هو الجالفانية وهي معروفة في كل العالم. لديه آلة لها أثر مماثل وإن كان أقوى. أراه زجاجة (لايدن) ودلكها بقطعة فراء لتنتج بروقا متداخلة رقيقة كالشعيرات.

فرك العجوز لحيته صامتا.

ربت (هومبولدت) على كتفه متمنيا له المزيد من التوفيق. أراد (بونبلاند) أن يدس نقودا في يد العجوز، إلا أنه أبى.

قال: من أين له أن يعرف هذا! فهو بعيد كل البعد عن العالم.

قال (بونبلاند): طبعا، معه كل الحق.

Twitter: @ketab_n

تنخم العجوز، وأعاد جملته: من أين له أن يعرف هذا! عندما ابتعدا عن الأنظار شاهداه أمام بيته ينظر في إثرهما محدودب الظهر.

وصلا بركة. خلع (بونبلاند) ثيابه ونزل إلى الماء، تردد، وتنهد، وغطس على طول البركة. كان في الماء أسماك الحنكليس المكهرب. بعد ثلاثة أيام كتب (هومبولدت) بيد خدرة نتائج اختباراته. بوسع الحيوانات أن تنشر صعقاتها حتى دون أن تُلمس. الصعقة لا تنتج بروقا ولا أثرا على مقياس الكهرباء، كما أنها لا تؤدي إلى تحرك إبرة المغناطيس، باختصار لا يمكن إدراك الصعقة إلا بأثر الألم الذي تسببه. إذا أمسك المرء بالحنكليس بيديه الاثنتين، أو إذا أمسكه بيد واحدة وأمسك بالأخرى قطعة معدنية، يكون الأثر أقوى. كذلك الأمر إذا أمسك إنسانان بيديهما وأمسك واحد منهما فقط بالحيوان. في هذه الحالة يشعر الاثنان بالصعقة في آن واحد وبنفس القوة. الجزء الأمامي وحده خطر، بينما الحنكليس ذاته محصن ضد الشحنة الكهربائية. كان الألم الذي أحدثته الصعقة لا يطاق، قويا حتى أن المرء لا يعي ما الذي يجري معه، يتخدِّر كليا ويفقد أحاسيسه فلا يعي الدوار الذي أصابه إلا بعد برهة، حيث يكون أكثر قوة في الذاكرة، يبدو وكأنه جزء من العالم الخارجي، وليس من جسد المصاب.

تابعا رحلتهما سعيدين. كرر (هومبولدت): يا للفرصة السعيدة، يا للهدية الربانية. كان (بونبلاند) يعرج فاقدا الإحساس بيديه.

حتى بعد أيام عدة كانت الشرارات تلمع في عيني (هومبولدت) كلما أغمضهما. وظلت ركبتاه متصلبتين طويلا كركبتي عجوز.

عثرا بين الأعشاب العالية على فتاة في حوالي الثالثة عشرة مغمى عليها في ثياب ممزقة. قَطَر (بونبلاند) دواء في فمها، فبصقت، وسعلت، وبدأت بالصراخ. وبينما هو يحاول تهدئتها بكلماته، كان (هومبولدت) يروح ويجيء نافد الصبر. ساكنة من الخوف نقلت ناظريها بينهما. مسح (بونبلاند) على شعرها، وبدأت بالنحيب. قال (بونبلاند): لابد أن أحدهم فعل بها فعلة شنيعة.

– مثل ماذا؟ سأل (هومبولدت).

Twitter: @ketab_n

حدق فيه (بونبلاند) طويلا.

قال (هومبولدت): مهما حدث فعليهما متابعة السير.

أعطاها (بونبلاند) ماء فشربت عِلى عجل. لم ترغب في طعام. ساعدها للوقوف على قدميها ودون أن تبدي أي علامة شكر تخلصت من ذراعيه وجرت.

قال (هومبولدت): ربما كانت الحرارة العالية. الأطفال يتيهون، ويفقدون الوعي أحيانا.

حدق فيه (بونبلاند) طويلا. ثم قال: نعم، ربما.

في مدينة سانت فرناندو باعا بغالهما واشتريا زورقا شراعيا واسعا مُلبَّسا بالخشب، ومؤونة شهر، وأسلحة حديثة. سأل (هومبولدت) عن أناس لهم خبرة بمجرى النهر. دله الأهالي على أربعة رجال جالسين أمام حانة. كان أحدهم يعتمر قبعة اسطوانية، وآخر يضع عود حلفاء في زاوية فمه، وثالث يضع على جسمه كميات هائلة من مجوهرات نحاسية، والرابع كان شاحبا ومغرورا لا ينطق بكلمة.

سأل (هومبولدت) إن كانوا يعرفون القنال بين نهري اورينوكو والأمازون؟ قال معتمر القبعة الأسطوانية: طبعا.

قال صاحب المجوهرات إنه سبق له وأن أبحر فيه. أضاف ذو القبعة الأسطوانية إنه أيضا أبحر فيه، لكنه غير موجود. كل الأحاديث عنه مجرد إشاعات.

صمت (هومبولدت) محتارا. ثم قال: مهما يكن فإنه يريد أن يمسح القنال ويحتاج إلى مجدفين ذوي خبرة.

سأل ذو الأسطوانة عمَّ سيكسبونه؟

– مالا وعلما.

تناول الثالث عود الحلفاء من فمه بإصبعين ثم قال: المال أفضل من العلم.

– أكثر بكثير، قال ذو الأسطوانة وأضاف: ثم إن الحياة قصيرة جدا، فلماذا المراهنة بها؟

قال (بونبلاند): لأنها قصيرة.

نظر الأربعة بعضهم إلى بعض ثم إلى (هومبولدت). قال ذو الأسطوانة إن أسماءهم

Twitter: @ketab_n

هي: (كارلوس)، و(غابرييل)، و(ماريو) و(خوليو)، وإنهم جيدون لكنهم ليسوا رخيصي السعر.

قال (هومبولدت) إنه موافق.

على الطريق إلى النُزُل تبعه كلب منفوش الشعر. توقف (هومبولدت)، تقدم إليه الكلب ودس أنفه في حذائه. عندما دعك (هومبولدت) أذنه، تجشأ الكلب، ثم هزّ أذنيه فرحا، ابتعد عنه قليلا ونبح في وجه (بونبلاند).

قال (هومبولدت) إن الكلب يعجبه، ويبدو أنه شارد، لذلك سيأخذه معه.

قال (بونبلاند): إن الزورق صغير جدا والكلب عضاض ورائحته كريهة.

قال (هومبولدت) إنهم لن يختلفوا لأجل هذا، وأنامَ الكلب في غرفته في النزل. عندما ذهب الاثنان في اليوم التالي إلى الزورق كانا قد اعتاد كل منهما على الآخر وكأنهما قضيا العمر معا.

قال (خوليو): لم يتم ذكر الكلاب أبدا.

– هناك في الجنوب، قال (ماريو)، وعدل اسطوانته على رأسه، حيث الناس مجانين ويتكلمون بالمقلوب توجد كلاب قزمة لها أجنحة. هذا ما رآه بأم عينه.

قال (خوليو) إنه هو أيضا رآها، لكنها انقرضت الآن. أكلتها الأسماك الناطقة.

متنهدا حدد (هومبولدت) بالسدسية والكرونومتر موقع المدينة، ومن جديد تبين أن الخرائط غير دقيقة. ثم أقلعوا.

وللحال خلفوا وراء ظهرانيهم آخر آثار المستوطنة. شاهدوا التماسيح في كل مكان. كانت الحيوانات تسبح في الماء كجذوع الشجر، تغفو على الضفة فاتحة أفواهها، وعلى ظهورها تتنقل طيور مالك الحزين الصغيرة. قفز الكلب في الماء وللفور سبح نحوه تمساح. وعندما جره (بونبلاند) إلى الزورق كانت كف الكلب تنزف إثر عضة سمكة البيرانا. كانت نباتات الليانا تلمس سطح الماء، وجذوع الأشجار تميل على الضفة. شدوا الزورق إلى الضفة وبينما جمع (بونبلاند) النباتات قام (هومبولدت) بنزهة. قفز فوق الجذور، وتسلل بصعوبة بين الجذوع المتلاصقة، ومسح عن وجهه نسيج أحد العناكب، وقطف

Twitter: @ketab_n

زهيرات النباتات، وبرشاقة قصم ظهر فراشة بالغة الجمال، ووضعها بعناية فائقة في زجاجة التحنيط، ثم لاحظ أنه يقف وجها لوجه أمام فهد.

رفع الحيوان رأسه وتطلع إليه. تنحى (هومبولدت) خطوة إلى الجانب. رفع الحيوان أحد مشفريه دون أن يتحرك. تحجر (هومبولدت) في مكانه. بعد مرور وقت طويل وضع الحيوان رأسه على أطرافه الأمامية. تراجع (هومبولدت) خطوة. ثم خطوة أخرى. نظر إليه الفهد بتركيز دون أن يرفع رأسه. طرد بذنبه ذبابة. استدار (هومبولدت).أصاخ السمع لكنه لم يسمع خلفه شيئا. حبس أنفاسه، وضغط يديه على جسمه، وخفض رأسه على صدره وركّز بصره على قدميه، ثم مضى. خطوة خطوة في البداية، ثم أسرع. يجب ألا يكبو، يجب ألا ينظر وراءه. ثم لم يستطع التحمل، بدأ بالركض. فلطمت الأغصان وجهه، وارتطمت حشرة بجبينه، وتعثرت قدمه، أمسك نبتة ليانا، تعلق بها ذراع قميصه وتمزق. وأبعد الأغصان عن طريقه. فوصل إلى الزورق متعرقا منقطع الأنفاس.

قال وهو يلهث الإقلاع فورا.

مد (بونبلاند) يده إلى سلاحه، نهض المجدفون.

قال (هومبولدت): لا، الإقلاع فورا.

قال (بونبلاند) إن أسلحتهم جيدة يمكن قتل الحيوان وسلخ جلده كشهادة على شجاعتهم.

هز (هومبولدت) رأسه بالرفض.

– لِمَ لا؟

أجاب: لأن الفهد سمح له بالذهاب.

دمدم (بونبلاند) شيئا ما عن الخرافات، وفك حبال الزورق. وابتسم المجدفون بخبث. في وسط النهر لم يجد (هومبولدت) تبريرا لخوفه. قرر وصف الأحداث كما كان يجب أن تجري: سيزعم أنهم عادوا إلى الغابة الوحشية حاملين السلاح لكنهم لم يعثروا على الحيوان.

لكن وقبل أن ينهي الكتابة صبت الغيوم سيولها. امتلأ الزورق بالماء وعجلوا بالتجديف

Twitter: @ketab_n

نحو اليابسة. وهناك كان ينتظرهم رجل، ملتح، لا يمكن تبينه لشدة قذارته. ادعى أن البستان ملكه ويمكنهم المبيت فيه مقابل أجر.

دفع (هومبولدت) السعر المطلوب وسأل عن البيت.

قال الرجل إنه ليس عنده بيت محدد، إنه دون (اغناسيو)، من نبلاء قسطليا، والعالم بأسره ملكه. وهاتان بالمناسبة هما زوجته وابنته.

انحنى (هومبولدت) للسيدتين العاريتين ولم يعلم أين يوجه بصره. مد المجدفون أغطية قماشية بين الأشجار وتقوقعوا تحتها.

سأل دون (اغناسيو) إن كانوا بحاجة إلى خدمة؟

قال (هومبولدت) مرهقا: الآن لا.

قال دون (اغناسيو) إن كرامته ستهان إذا احتاج ضيوفه شيئا. التفت بوقار وذهب.

انهمر المطر مدرارا علي رأسه وكتفيه. انبعثت رائحة الأزهار والأرض الرطبة والزبل.

قال (بونبلاند) مفكراً: أحيانا يبدو له وجوده في هذا المكان لغزا غامضا. بعيدا عن البيت، دون أن يكلفه أحد، كل هذا لمجرد أن رجلا بروسيا أقنعه بهذا، بروسيا صادفه على درج البيت.

لم يغمض لـ (هومبولدت) جفن. فالمجدفون لم يتوقفوا عن التهامس بمغامراتهم الطائشة التي أخذت لها مكانا في ذهنه. وكلما تمكن من طرد المنازل الطائرة، والنساء الحيات المرعبات، والصراع الدائم على الحياة والموت من رأسه، كان يرى عيني الفهد. الكائن اليقظ، الذكي، عديم الرحمة، ثم يستعيد وعيه ويصيخ السمع إلى المطر، وإلى الرجال وإلى نباح الكلب المذعور. بعد زمن طويل، طويل جدا، جاء (بونبلاند)، التحف بغطائه ونام على الفور. لم يسمعه (هومبولدت) عندما ذهب.

في اليوم التالي والشمس عالية في كبد السماء كأنها لم تمطر أبدا، ودعهم دون (اغناسيو) سالكا سلوك مالك قصر قائلا إنهم دائما على الرحب والسعة. قامت زوجته بإيماءة ملكية ومسحت ابنته ذراع (بونبلاند). وضع هذا يده على كتفها، ونتف خصلة من شعرها.

كان الهواء حارا كأنه يهب من فرن. غدت نباتات الضفة أكثر كثافة. تحت الأشجار

Twitter: @ketab_n

شاهدوا بيض السلاحف الأبيض والسحالي ملتصقة بمقدمة الزورق كأنها تعشيق في الخشب. كثيرا ما كان خيال الطيور يظهر على سطح الماء، حتى عندما كانت السماء خالية منها.

قال (هومبولدت): إنها ظاهرة بصرية رائعة.

قال (ماريو): ليس لهذا علاقة بالبصريات. الطيور لا تكف عن الموت، إنها تموت كل لحظة، وفي الواقع فإنها لا تقوم بشيء سوى الموت، وأرواحها تداوم الحياة في انعكاساتها على صفحة الماء. لا بد لها أن تذهب إلى مكان ما، و هي ليست مرغوبة في السماء.

سأل (بونبلاند): والحشرات؟

ـ إنها لا تموت أبدا وهذه هي الطامة الكبرى.

وفعلا تكاثرت أعداد البعوض. كانت تندفع من الأشجار، من الماء والهواء. جاءت من كل الأنحاء. ملأت الفضاء بأزيزها، ولسعت، وامتصت الدماء، وبدل كل بعوضة تُقتل ظهرت المئات منها. أدمت وجوههم. حتى الأغطية السميكة التي رموها على رؤوسهم لم تنفع شيئا، فقد كانت الحشرات تلسع عبر القماش.

قال (خوليو): النهر لا يتحمل البشر. قبل أن يصل (آغير) إلى هنا كان إنسانا عاقلا. هنا طرأ على باله أن يعلن نفسه إمبراطورا.

قال (بونبلاند): أول الباحثين عن اورينوكو كان سفاحا مجنونا! من هذا يمكن استنتاج فكرة.

قال (هومبولدت): هذا المسكين لم يستكشف شيئا. مثله مثل طير يستكشف الريح ومثل سمكة تستكشف الماء.

قال (بونبلاند): أو ألماني يستكشف المزاح.

نظر إليه (هومبولدت) رافعا حاجبيه.

قال (بونبلاند): مجرد مزحة يا رجل.

– إلا أنها مزحة ظالمة. البروسي أيضا قادر على الضحك. على العكس، في بروسيا يضحك الناس كثيرا. ما عليه إلا أن يتذكر روايات (فيلاند) أو مسرحيات (غريغيوس)

Twitter: @ketab_n

المسلية. وكذلك (هردر)، فهذا أيضا يعرف كيف يضحك الناس.

– لا شك في هذا. قال (بونبلاند) متعبا.

– حسنا انتهى الموضوع. قال (هومبولدت) وعبث بفرو الكلب الذي أدماه لسع الحشرات.

دخلوا مجرى اورينوكو. كان النهر عريضا كالبحر. بعيدا في الأفق لاحت علامات الغابات على الضفة الأخرى كالسراب. وهنا انعدمت طيور الماء تقريبا. وبدا وكأن السماء تلمع من الحرارة.

بعد عدة ساعات اكتشف (هومبولدت) أن البراغيث تغلغلت في الجلد بين أصابع قدميه، فوجب عليهم قطع الرحلة. أعدّ (بونبلاند) خلطة أعشاب وجلس (هومبولدت) في الكرسي السفري غاطسا قدميه في حوض خل، ورسم خرائط لمجرى النهر.

قال (هومبولدت): برغوث الرمل. وأضاف أنه سيكتب عنه، لكنه لن يكتب حتى في دفتر يومياته أنه أصيب به.

قال (بونبلاند): هذا ليس معيبا.

قال (هومبولدت) إنه فكّر طويلا في قواعد المجد. لن يؤخذ رجل عُرف عنه أن براغيث عاشت تحت أظافر قدميه على مأخذ الجد. مهما يكن ما أنجزه.

في اليوم التالي حلت عليهم مصيبة. في مكان عريض جدا من النهر، لم يكن بالإمكان رؤية الضفتين، أدارت الريح الشراع بعكس اتجاه السير، مال الزورق، واندفعت موجة قوية إلى داخله وللحال تطايرت عشرات الأوراق إلى النهر. مال الزورق أكثر حتى وصل الماء إلى ركبهم، عوى الكلب ونوى الرجال القفز من الزورق. انتصب (هومبولدت) على قدميه،بسرعة البرق فك الحزام الذي يشد الكرونومتر وصرخ بهم كضابط: لا أحد يترك مكانه. أخذ التيار الزورق في مجراه ولوح الشراع على غاربه دون منفعة. اقتربت الظهور الرمادية لعدد من التماسيح.

استعد (بونبلاند) للسباحة إلى الضفة كي يطلب النجدة.

قال (هومبولدت) بينما هو يرفع الحزام فوق رأسه: لن تجد نجدة. إن كان أحد مازال لا

Twitter: @ketab_n

يعرف، فليعرف الآن أننا في الغابات البدائية. ليس بوسعنا إلا الانتظار.

في اللحظة الأخيرة، نفخ الهواء في الشراع وانتصب الزورق ببطء.

صرخ (هومبولدت): أفرغوه.

أفرغ المجدفون القارب بالقدور، وبالقبعات وبأوعية الشرب وهم يتشاتمون. بعد فترة استقام الزورق تماما. وسبحت الأوراق، والنباتات المجففة، وأرياش الكتابة والكتب في النهر. وفي البعيد، كأنها تستعجل الرحيل، سبحت قبعة أسطوانية مسرعة في مجرى النهر.

قال (بونبلاند) إنه يشك أحيانا إن كان سيرجع ذات يوم إلى الوطن.

قال (هومبولدت): إن هذه فكرة عملية. وفحص الساعات ليرى إن كانت سليمة.

وصلوا إلى منطقة الشطوط المشهورة. كان النهر مليئا بالصخور والماء يزبد كأنه يغلي وصار من المستحيل متابعة الرحلة بالزورق المحمل. استقبلهم يسوعيو الإرسالية التبشيرية المحلية المدججون بالبنادق والشبيهون بالجنود أكثر من شبههم بالقسس استقبالا باردا. ذهب (هومبولدت) إلى رئيس الإرسالية، وهو رجل هزيل بوجه أصفر، وأراه وثيقة العبور.

– حسنا، قال الأب (زيا). صرخ عبر النافذة وبعد قليل جاء ستة آباء باثنين من المواطنين الأصليين. قال الأب (زيا): إن هؤلاء الرجال القديرون، الذين يعرفون الأنهار كما يعرفون كفهم، قد تطوعوا ليعبّروا قاربا مناسبا عبر الشط وعلى الضيوف الانتظار حتى يجهز القارب ثم سيكون لهم متابعة رحلتهم. لوح بيده، قاد رجالُه الهنودَ الحمر إلى الخارج وقيدوا أقدامهم.

قال (هومبولدت) بكل حذر إنه يقر بالمعروف لكنه غير موافق.

هتف الأب (زيا): دعك من هذا، هذا طبيعي جدا وسببه عدم قدرة هؤلاء الناس على التحكم بأنفسهم. فهم تطوعوا للعمل وقد يختفون فجأة عن الأعين. ثم أنهم جميعا متشابهون.

جيء بالقارب الذي سينقلهم. كان ضيقا بحيث سيضطرون إلى الجلوس بعضهم خلف

Twitter: @ketab_n

بعض على صناديق معداتهم.

قال (بونبلاند): إنه يفضل قضاء شهر في النار على هذا.

بشره الأب (زيا) بأنه سينال الاثنين معا: النار والقارب.

عند المساء تقدمت لهم أول وجبة طعام جيدة.. منذ أسابيع، بالإضافة إلى نبيذ اسباني. سمعوا عبر النافذة الأصوات المتداخلة للمجدفين الذين لا يتفقون على أحداث حكاية معينة.

قال (هومبولدت) إن لديه انطباعا بأن الناس هنا لا تتوقف عن الكلام الفارغ، لم كل هذه الخرافات الدائمة عن سير حياة متخيلة تخلو حتى من العبر؟

قال الأب (زيا): لقد حاولنا كل شيء معهم. من الممنوع تدوين الخرافات المتخيلة في جميع المستوطنات، لكن هؤلاء الناس يابسو الرأس، ثم إن لقوة الكنيسة المقدسة أيضا حدودها. السبب يكمن في هذه البلاد وهو يتساءل إن كان البارون قد التقى مع (لاكوندامين) الشهير؟

هز (هومبولدت) رأسه نافيا.

قال (بونبلاند) إنه التقاه. رجل عجوز تجادل في قصر الملك مع الخدم.

قال الأب (زيا): هذا هو بعينه. مازال في هذه الأنحاء بعض الشيوخ الذين يتذكرونه. كما توجد امرأة تناولت مسحوقا أعطاها إياه طبيب سيء، تشيخ لكنها لا تقدر على الموت، منظر مرعب. حكاياتها جديرة بالاستماع. وتساءل إن كان له روايتها؟

تنهد (هومبولدت).

قال الأب (زيا): آنذاك أرسلت الأكاديمية أفضل ثلاثة مساحي أراض لديها: (لاكوندامين)، و (بوغير) و (غودان)، للتثبت من طول خط الاستواء. وقتها أرادوا، لأسباب جمالية بالدرجة الأولى، دحض فرضية (نيوتن) البشعة حول أن الأرض تتسطح بسبب دورانها حول نفسها. حدق الأب (زيا) عدة ثوان مركزا عينيه على الطاولة. حطت حشرة عملاقة على جبينه. مد (بونبلاند) ذراعه نحوها بعفوية، بلع ريقه ثم استرد ذراعه.

Twitter: @ketab_n

تابع الأب (زيا): قياس خط الاستواء! أي رسم خط في مكان لم يكن فيه خط أبدا. وسأل إن كانوا قد شاهدوا ما حولهم في الخارج؟ وأي خط يريدون رسمه؟ الخطوط موجودة في مكان آخر، وأشار بذراعه العظمية إلى النافذة وإلى الدغل وإلى النباتات التي تغطيها الحشرات، ولكن ليس هنا.

قال (هومبولدت): إن الخطوط موجودة في كل مكان. إنها خطوط وهمية. يوجد مكان حيث توجد خطوط.

قال الأب (زيا): المكان بذاته موجود في مكان آخر.

– المكان في كل مكان.

– كل مكان اختراع والمكان بذاته موجود هناك حيث يأخذه مساحو الأراضي. أغمض الأب (زيا) عينيه، رفع كأس النبيذ، ثم أعاده إلى موضعه دون أن يشرب منه. وتابع القول: إن الرجال الثلاثة عملوا بدقة لا يتصورها أحد، ورغم هذا لم تكن نتائج قياساتهم متوافقة. قوسا دقائق على جهاز (لاكوندامين) كانت ثلاثة أقواس على جهاز (بوغير). نصف درجة في منظار (غودان) كانت درجة ونصف في منظار (لاكوندامين). لرسم خطهم كان عليهم الاستدلال بقياسات فلكية. مثل هذه الساعات المفيدة، المحمولة – نظر الأب (زيا) نظرة ساخرة إلى الكرونومتر في حزام (هومبولدت) – لم تكن موجودة آنذاك. لم تكن الأشياء قد اعتادت على أن تقاس. لم تكن ثلاث حصيات وثلاث وريقات نفس الثلاثة، لم تكن لخمسة عشر غرام بازلاء وخمسة عشر غرام تراب نفس الوزن. إضافة إلى كل هذا القيظ والرطوبة والبعوض وضجيج صراع الحيوانات الدائم. حل على الرجال غضب لا سبب له ولا غاية. خرب ابن الأسر (لاكوندامين) أجهزة (بوغير) الذي كسر بدوره أقلام (غودان) الرصاصية. كانوا يتشاجرون كل يوم، حتى استل (غودان) خنجره ودخل أعماق الغابة. والشيء ذاته حدث بعد عدة أسابيع بين (بوغير) و (لاكوندامين) – شبك الأب (زيا) يديه – ما كان ينقصنا إلا هذا، تخيلوا، أمثال هؤلاء السادة المتمدنين، بباروكات ومناديل معطرة. تماسك (لاكوندامين) أطول من الآخرين. ثمانية أعوام في الغابة، لا يحميه إلا عدد من الجنود المصابين بالحمى، يحصون على أصابع اليد. سار في

Twitter: @ketab_n

دروب سدتها الأحراج خلفه، قطع أشجارا ارتفعت في الليلة التالية في عنان السماء، إلا أنه تمكن بعناده من تدوين شبكة من الأرقام عن الطبيعة العنيدة. رسم مثلثات اقترب مجموع زواياها شيئا فشيئا من المائة والثمانين درجة، وشد أقواسا بتقنية تثليث السطح. ثم وصلته رسالة من الأكاديمية جاء فيها أنه خسر المعركة، ظهرت البراهين على صحة نظرية نيوتن. الأرض تتسطح، كل عمله ضاع هباء.

تناول (بونبلاند) جرعة من زجاجة الخمر. بدا وكأنه نسي وجود الكؤوس كما نسي أن الشرب من الزجاجة دليل على قلة الأدب. حدق فيه (هومبولدت) بنظرة غاضبة.

قال الأب (زيا): هكذا سافر الرجل المهزوم إلى وطنه. طوال أربعة أشهر بمحاذاة نهر لا اسم له، عمده لاحقا باسم الأمازون. وضع على الطريق خرائط، وأطلق على الجبال أسماء، وسجل درجات الحرارة، وصنف أنواع الأسماك، والحشرات، والأفاعي والبشر. لا لأن هذه الأشياء كانت تهمه، لكن كي يحافظ على عقله. لم يتحدث في باريس قط عن الأشياء التي يتذكرها بعض جنوده: الأصوات المبحوحة، والسهام السامة المصوبة أدق التصويب من أعماق الغابة، والظواهر الضوئية ليلا، وأبرزها تلك الانزياحات الصغيرة عن الواقع عندما كان العالَم يدخل حدود اللاواقع لعدة لحظات. ثم كانت الأشجار مازالت تحتفظ بشكل الأشجار، الماء الجاري بتكاسل يحتفظ بشكل الماء، لكن المرء كان ينظر إليها بفزع كأنها متنكرة بيئيا. في هذا الوقت اكتشف (لاكوندامين) القنال الذي وصفه المجنون (آغير)، صلة الوصل بين أكبر نهرين في القارة.

قال (هومبولدت) إنه سيبرهن على وجود هذا القنال. جميع الأنهار الكبيرة مترابطة، الطبيعة وحدة متكاملة.

– واثق!؟ هز الأب (زيا) رأسه شاكا في الأمر وتابع حديثه: لاحقا، عندما بدأ (لاكوندامين)، الذي كان آنذاك عضوا في الأكاديمية وعجوزا مشهورا، ولم يعد يستيقظ على صرخاته إلا نادرا، بل أشيع أنه تمكن من استعادة إيمانه بالله، أعلن أن القنال كان خطأ. قال: إنه لا يوجد ترابط بين الأنهار الكبيرة على اليابسة، لأن مثل هذا يؤدي بالقارة إلى تشتت هي غير جديرة به. – صمت الأب (زيا) لحظة ثم نهض وانحنى: أحلاما جميلة

Twitter: @ketab_n

أيها البارون، تصبحون على خير.

في الصباح الباكر أيقظتهم صرخات ألم. كان اثنان من القساوسة يسوطان الرجال المقيدين في الفناء. ركض (هومبولدت) نحوهم وسأل عمَّ يجري؟

قال أحد القساوسة لا شيء، لماذا؟

قال الآخر: مسألة قديمة جدا. لا علاقة لها برحلتهم. ورفس الهندي الأحمر، الذي احتاج وقتا حتى فهم المطلوب منه وأكد باسبانية سيئة: أنها مسألة قديمة جدا لا علاقة لها برحلتهم.

تردد (هومبولدت) ونظر إليه (بونبلاند) –الذي انضم إليهم– نظرة ملؤها العتاب.

قال (هومبولدت) بصوت منخفض: لكن يجب متابعة الرحلة. ماذا بيده ليفعله؟

ناداهما الأب (زيا) وأراهما أثمن ما لديه. طائر ببغاء منفوش، ينطق عدة جمل بلهجة قبيلة منقرضة. وقال: إن هؤلاء الناس كانوا موجودين إلى ما قبل عشرين سنة، ولا يعيش منهم الآن أي فرد ولا أحد يفهم ما يتلفظ به الطائر.

مد (هومبولدت) يده إلى الطائر، فمد الطائر منقاره إليها، نظر إلى الأرض مطرقا كمن يتملى في أفكاره، رفرف بجناحيه ونطق كلمات غير مفهومة. سأل (بونبلاند) عن السبب في انقراض القبيلة.

قال الأب (زيا): كثيرا ما تنقرض القبائل.

– لماذا؟

حدق به الأب (زيا) بعينين ضيقتين: طبعا السؤال سهل. يأتي أحدهم، ويشفق على كل ما له عينان حزينتان، ويستطيع أن يسرد أسوأ الحكايات في الوطن. لكن من عليه أن يحكم فجأة عشرات الآلاف من المتوحشين وليس تحت إمرته إلا خمسين رجلا، من عليه أن يتساءل كل ليلة عما تعنيه الأصوات القادمة من الغابة ويدهش كل صباح ببقائه على قيد الحياة، يحكم على الأمور بشكل آخر.

قال (هومبولدت): إنه سوء تفاهم. لا أحد يريد أن ينتقد شيئا ما.

قال (بونبلاند): قد يوجد من يريد الانتقاد. إنه يريد الاطلاع على بعض الحقائق.

Twitter: @ketab_n

توقف ولم يصدق أن (هومبولدت) داس على قدمه. نقل الطائر نظراته بينهما. فنطق شيئا وحدق فيهما بفضول.

– صحيح، أجاب (هومبولدت) الذي لم يرد أن يكون غير مهذب.

لاح وكأن الطائر يفكر، ثم أضاف جملة طويلة. مد (هومبولدت) ذراعه، نقرها الطائر واستدار مهان الكرامة.

بينما يوجه الهنديان الأحمران القارب لأجلهما في الشط، صعد (هومبولدت) و (بونبلاند) الصخور الغرانيتية فوق الإرسالية. كان هناك كهف على القمة. كان من الصعب العثور على موضع قدم. لم يكن بوسعهما التمسك بشيء آخر سوى النتوءات الصخرية البارزة. عندما وصلا إلى القمة كتب (هومبولدت) على أوراقه مقطعا نثريا متقنا عن الشط، وعن قوس قزح الذي ينحني عطوفا على النهر وعن لمعان الفضة الرطب للبعيد، ولم تشبه شائبة إلا عندما كان يضطر لسحق البعوض. ثم توازنا على التلال الموجودة على القمة الجانبية ودخلا الكهف.

مئات من الجثث، كل منها في سلة من الخوص، عظام اليدين حول الركبة، والرأس مضغوط على القفص الصدري. كانت الجثث القديمة قد تحولت إلى هياكل عظمية والأخرى في مراحل مختلفة من التعفن: قطع جلدية، وأحشاء تخثرت في قطع لحمية، وأعين سوداء وصغيرة كنوى الفاكهة. أزيل لحم الكثير منها عن العظام. لم يكن هدير النهر يصل إلى الأعلى، كان الصمت مطبقا بحيث يسمعان أنفاسهما.

قال (بونبلاند): الوضع هنا مسالم، ليس كما كان في الكهف الآخر. هناك موتى، وهنا مجرد أجسام. هنا يشعر المرء بالأمان.

جر (هومبولدت) عدة جثث من السلال، وفصل الجماجم عن الأعمدة الفقرية، ونزع أسنانا من عظام الفك وخواتم من الأصابع، ووضع جثة طفل وجثتي بالغين في صرة شدها بحبال بحيث يمكن لرجلين حملها.

سأله (بونبلاند) إن كان جادا في عزمه؟

قال (هومبولدت) فتقد الصبر عليه أن يبدأ بمساعدته، فهو لن يتمكن وحده من حمل

Twitter: @ketab_n

الصرة إلى البغال.

وصلوا الإرسالية متأخرين جدا. كان الليل رائقا، والنجوم تتلألأ ساطعة، وأسراب الحشرات تنشر ضوءا أحمر، ورائحة الفانيليا تنبعث من المكان. تجنبهما الهنود الحمر صامتين، نظرت إليهما النساء العجائز من النوافذ، هرب منهما الأطفال. تقدم منهما رجل مصبوغ الوجه، اعترضهما وسألهما عما يحملانه في الصرة؟

قال (هومبولدت): أشياء مختلفة. من كل شيء قطعة.

قال (بونبلاند): إنها عينات صخرية، نباتات.

شبك الرجل ذراعيه.

قال (هومبولدت): إنها عظام.

ـ عظام؟!

قال (بونبلاند): إنها عظام تماسيح وبقر البحر.

– عظام بقر البحر!؟ ردد الرجل.

سأله (هومبولدت) إن كان يرغب في رؤيتها؟

– الأفضل لا. تنحى الرجل مترددا وأضاف: إنه يفضل تصديقهما.

لم تكن حياتهما في اليومين التاليين سهلة. لم يجدا أدلاء هنود يرشدونهما على محيطهما وحتى اليسوعيون كانوا عجولين دائما عندما يخاطبهم (هومبولدت). كتب إلى أخيه أن هؤلاء الناس يؤمنون بالخرافات، يعرف المرء أن الطريق إلى الحرية والرشاد طويلة جدا عليهم. وأنه تمكن على الأقل من صيد بعض القردة الصغيرة، لم يسبق أن كتب عنها عالم أحياء قبله.

في اليوم الثالث تمكن المتطوعان من إيصال القارب عبر الشط دون أضرار كبيرة ودون أن يصابا بجروح عميقة. أهداهم (هومبولدت) بعض المال وبعض البلى الزجاجية، أمر بتحميل صناديق المعدات، وأقفاص القردة والجثث وأقر عند الوداع بشكره للأب (زيا) مدى حياته.

قال الأب (زيا) إن عليه أن يحترز، وإلا لن تكون حياته هذه طويلة.

Twitter: @ketab_n

التحق بهم المجدفون الأربعة وتشاجروا بحدة حول الحمولة. قال (خوليو) مشيرا إلى صرة الجثث: في البداية الكلب والآن هذا.

سأل (هومبولدت) إن كانوا يخافون؟

– قال (ماريو) : طبعا.

سأل (بونبلاند): ممَّ الخوف. من أن ينبعثوا فجأة؟

–قال (خوليو): من هذا بالضبط.

قال (كارلوس) إن هذا سيكلفهم كثيرا.

كان النهر خلف الشط ضيقا جدا وكان تيار المياه يعبث بالزورق، ويشده إلى هذه الضفة وإلى تلك. وكان الزبد يرطب الهواء، والصخور تركض على الجانبين بسرعة مرعبة. والبعوض لا يرحم. بدا أن ما فوقهم ليس سماء، وإنما سحابة حشرات. للحال توقف الرجال عن محاولة طردها وعودوا أنفسهم على النزيف الدائم.

في الإرسالية التالية قدمت لهم فطائر النمل. امتنع (بونبلاند) عن تناولها، لكن (هومبولدت) تذوقها، ثم اعتذر، واختفى في الغابة قليلا. وعندما عاد قال: شيء على قدر عال من الأهمية. على الأقل احتمال لحل مشاكل الغذاء مستقبلا.

قال (بونبلاند): المكان هنا خال من البشر، الشيء الوحيد المتوافر بكثرة هو الطعام.

سأل زعيم القرية عمَّ تحتويه الصرة القماشية؟ وقال إن لديه شكا مخيفا.

قال (بونبلاند): إنها عظام بقر البحر.

قال الزعيم: ليس لها رائحة بقر البحر.

صاح (هومبولدت): طيب. إنه يعترف. لكن هؤلاء ماتوا من زمن بعيد، بحيث لا تصح تسميتهم جثثا.

قال الزعيم خجلا إنه سأل مجرد سؤال.

للوقاية من البعوض كان القرويون قد بنوا أكواخا طينية بمداخل قابلة للسد. يشعل المرء في داخلها نارا تطرد الحشرات، ثم يدخل الكوخ، يحكم إغلاق المدخل، ويطفئ النار ليقضي عدة ساعات في الهواء الحار دون أن تلسعه الحشرات. في أحد هذه الأكواخ

Twitter: @ketab_n

استغرق (بونبلاند) طويلا في ترتيب نباتاته حتى أغمي عليه بسبب الدخان والرطوبة. بجانبه كتب (هومبولدت) إلى أخيه وهو يكاد لا يبصر، يسعل والكلب يتنحنح بجانبه. عندما خرجا بثيابهما المنتنة لتنفس الهواء، ركض نحوهما رجل عار، أراد أن يقرأ كفيهما. كان الرجل مصبوغا بمختلف الألوان ويضع على رأسه ريشا. رفض (هومبولدت)، بينما بدت الحكاية مسلية لـ (بونبلاند). لمس العراف أصابعه، رفع حاجبيه ونظر إلى كفه بمرح.

–قال العرّاف: أواه، كأنه يحدث نفسه، أواه، أواه.

ـ ماذا؟

هز العراف رأسه وقال: لا شيء مؤكد. قد تسير حياته بهذا المنحى أو ذاك. النصيب ليس بيد الإنسان. من له أن يعرف الغيب؟

سأله (بونبلاند) بعصبية عمَّ يراه في كفه؟

رفع العراف كتفيه: حياة طويلة. لا شك.

ـ والصحة؟

ـ جيدة عموما.

إلى الشيطان، صرخ فيه (بونبلاند)، وقال إنه يريد أن يعرف الآن معنى هذه النظرة.

استغرب العراف: أي نظرة! حياة طويلة وصحة وعافية. هذا هو الموجود هنا وهذا ما قاله، وسأل إن كانت القارة الجديدة تعجب السيد المحترم؟

ـ لماذا؟!

ـ سيقضي فيها وقتا طويلا.

ضحك (بونبلاند) وقال إنه لا يظن هذا. حياة طويلة! وفي هذا المكان الملعون! لا، بالتأكيد لا. إلا إذا أرغمه أحدهم.

تنهد العراف، وأمسك يده لحظة أطول كأنه يريد أن يرفع معنوياته ثم التف إلى (هومبولدت).

هز هذا رأسه.

Twitter: @ketab_n

ـ بالمجان تقريبا.

– كلا، قال (هومبولدت).

تناول العراف يد (هومبولدت) خطفا. أراد (هومبولدت) أن يسحبها، لكن العراف كان أقوى، وإذ وجد (هومبولدت) نفسه مرغما على المشاركة في اللعبة ابتسم ابتسامة صفراء. قطب العراف جبينه وقرب يد (هومبولدت) إلى عينيه. انحنى عليها، وأبعدها من جديد. وأغمض عينيه نصف إغماضه، ونفخ وجنتيه.

صاح (هومبولدت) إن عليه أن يبدأ بالكلام فلديه أشغال كثيرة. وإذا كان العراف يتكهن بمصائب فليقلها الآن. هذا لا يهمه مطلقا، فلن يصدق كلمة واحدة.

ـ ليس في اليد شر.

ـ إنما؟!

– لا شيء. ترك العراف يد (هومبولدت) وقال إنه آسف كما إنه لا يريد أجرا، فقد فشل في قراءة كفه.

قال (هومبولدت) إنه لا يفهم.

قال العراف إنه هو أيضا لا يفهم. فليس في يده شيء. لا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل. لا يمكن مشاهدة أحد في خطوط يده. نظر العراف إلى وجه (هومبولدت) بتركيز وكرر: لا أحد. حدق (هومبولدت) في كفه. أضاف العراف، هذه حماقة منه نفسه، طبعا الذنب ليس ذنب السيد (هومبولدت)؛ فربما ضعفت موهبته. سحق بعوضة على بطنه وتابع: ربما لم يكن موهوبا أصلا.

في المساء ربط (هومبولدت) و (بونبلاند) الكلب عند المجدفين ليقضيا ليلة خالية من الحشرات في أكواخ الدخان. لم تغمض لـ (هومبولدت) عين إلا في ساعات الصباح الباكرة وهو يستحم في عرقه وعيناه تحرقانه بسبب الدخان والأفكار المتلاطمة في رأسه.

أيقظته خشخشة. كان أحدهم قد تسلل إلى الكوخ واضطجع بجانبه. تمتم (هومبولدت): بحق الله، ليس من جديد. أشعل بيد مرتجفة فتيل الشمعة فرأى غلاما، فسأله: ماذا تريد، ماذا، ما معنى هذا؟

Twitter: @ketab_n

حدق فيه الطفل بعينين ضيقتين كعيني الحيوان.

– ماذا تريد؟ سأله هومبولدت: ماذا؟

لم يحول الغلام طرفه عنه. كان عاريا. لم يرف له جفن رغم تقريب الشمعة من وجهه.

همس (هومبولدت): ماذا تريد يا صغيري، ماذا؟

ضحك الغلام.

ارتجفت يد (هومبولدت) ارتجافا شديدا حتى وقعت الشمعة منها. سُمِع صوت تنفسه هو والغلام في الظلام. مد يده ليبعد الغلام عن نفسه، لكن عندما شعر برطوبة جلده انتفض كأنما أصابته صعقة. همس له: ابتعد.

لم يتحرك الغلام.

قفز (هومبولدت) على قدميه، ارتطمت رأسه بالسقف، ركل الغلام، فصرخ هذا، وتكوم على نفسه. منذ أن أصيب ببراغيث الرمل كان (هومبولدت) يرتدي حذاء طويلا حتى في الليل. رفس (هومبولدت) الغلام مرة أخرى وأصاب رأسه. أطلق الغلام أنينا، ثم خرس. سمع (هومبولدت) أنفاسه المتقطعة، نظر إلى الشبح الجامد. شده من الكتفين، وجره خارج الكوخ.

استعاد وعيه في نسيم الليل، الذي أنعشه وبرّد قلبه بعد دخان الكوخ. بخطوات غير واثقة ذهب إلى الكوخ المجاور، حيث (بونبلاند)، لكنه توقف عندما سمع صوت امرأة. تصنت وسمع الصوت من جديد. التفت إلى الوراء، زحف إلى كوخه، سد المدخل. كان البعوض قد دخل عبر الستارة التي فتحت قليلا، ورفرف خفاش فوق رأسه خائفا. همس: يا إلهي. ثم دخل في نوم قلق من شدة الإرهاق.

عندما استيقظ كان الصباح قد حل، والحرارة ارتفعت، والخفاش اختفى. خرج في أبهى ثيابه واضعا خنجره على جنبه والقبعة تحت ذراعه. كانت الساحة أمام الكوخ خالية. كان وجهه ينزف من عدة جروح.

سأله (بونبلاند) عمّا جرى له

Twitter: @ketab_n

قال: إنه حاول حلاقة ذقنه. على المرء ألا يصبح متوحشا لمجرد وجود البعوض، مهما كان فإن المرء متمدن. وضع (هومبولدت) قبعته، وسأل إن كان (بونبلاند) قد سمع أصواتا في الليل.

قال (بونبلاند) خدرا إنه لم يسمع شيئا غير عادي. هناك أصوات كثيرة يسمعها المرء في الظلام.

أومأ (هومبولدت) وقال: إن المرء يسمع أكثر الأشياء شرا.

قال (بونبلاند): يجب عدم الإصغاء لكل ما يسمع.

قال (هومبولدت): بالنهاية يجب على المرء أن ينام.

في اليوم التالي دخلوا مجرى نهر ريونيغرو، حيث قلّ البعوض فوق مائه الأسود. كما أن الهواء كان أفضل. لكن وجود الجثث كان يقلق المجدفين. حتى (هومبولدت) ذاته كان شاحبا وصامتا. أغمض (بونبلاند) عينيه طوال الوقت، وقال إنه يخشى أن تعود إليه الحمى. صرخت القرود في أقفاصها، فهزت القضبان، وسخر بعضها من البعض. بل تمكن أحدها من فتح الباب، ضايق المجدفين، صعد على طرف القارب، قفز على كتف (هومبولدت)، وبصق على الكلب المتذمر.

رجا (ماريو) (هومبولدت) أن يروي هو أيضا شيئا ما.

فرد إنه لا يعرف حكايات، وعدّل قبعته التي غير القرد الصغير وضعيتها على رأسه، وتابع إنه لا يحب رواية القصص، لكنه يستطيع إلقاء أجمل قصيدة ألمانية في ترجمة مرتجلة إلى الاسبانية: السكون يسود قمم الجبال، الريح لا تهب بين الأشجار، كما أن الطيور صامتة، وحالا سيحل الموت.

نظر إليه الجميع.

– انتهت، قال (هومبولدت).

– كيف انتهت! سأل بونبلاند.

تناول (هومبولدت) السدسية.

قال (خوليو): عفوا، لكن بالتأكيد ليس هذا كل ما لديه.

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت) بعصبية: طبعا هذه ليست خرافة عن الدم والحرب والتقمص. ليس فيها سحر وسحرة، لا أحد يتحول إلى نبتة، لا أحد يطير، أو يأكل شخصا آخر. وبحركة سريعة أمسك بالقرد الذي كان يحاول فك حذائه، ودسه في القفص. صرخ القرد الصغير، ومد ذراعيه، ومط لسانه، ووضع يديه على أذنيه، ولوح بهما، وأراه عجزه. تابع (هومبولدت): وإن لم يكن مخطئا فإن للجميع ما يكفي من العمل على ظهر هذا القارب.

قطعوا خط الاستواء المغناطيسي عند سان كارلوس. راقب (هومبولدت) المعدات وملامحه تدل على بالغ الاهتمام وقال إنه حلم في طفولته بهذا المكان.

قرب المساء وصلوا إلى مصب القنال الأسطوري. فهجمت عليهم أسراب البعوض حالاً، لكن الرطوبة تبخرت مع الحرارة العالية وصفت السماء فتمكن (هومبولدت) من تحديد خط الطول واستمر في العمل طوال الليل، قاس زاوية مدار القمر من برج الصليب الجنوبي ثم، على سبيل التأكد، ركز المنظار على أقمار المشتري، وقال للكلب الذي يراقبه بانتباه: لاشيء يوثق فيه، لا اللوائح، ولا الأجهزة، ولا حتى السماء. على المرء أن يكون دقيقا جدا حتى لا تقدر هذه الفوضى أن تأخذ لبه.

مع حلول الفجر انتهى من مراقباته. صفق بيديه: قوموا، لا وقت نضيعه. لقد تم تحديد إحدى نهايات القنال، علينا الوصول بسرعة إلى النهاية الأخرى.

سأله (بونبلاند) ناعسا إن كان يخشى أن يسبقه أحد إليه، في نهاية العالم بعد كل هذه القرون، التي لم يعبأ طوالها أحد بالنهر الملعون؟

–قال (هومبولدت): من يعلم.

لم تكن المنطقة مرسومة في أي خارطة، لم يكن لديهم أدنى علم إلى أين يحملهم الماء. كانت جذوع الأشجار متراصة في تلك البقعة بحيث لم يكن بوسعهم إنزال قاربهم على الضفة، وكان المطر الناعم يبلل الهواء كل عدة ساعات دون أن يبرّد الجو، أو يطرد الحشرات. كان صدر (بونبلاند) يصدر صفيرا.

قال وهو يسعل: لا خوف، لا يعرف إن كانت الحمى فيه، أم في الهواء. وبوصفه طبيبا فإنه ينصح بعدم التنفس عميقا. إنه يظن أن الغابات تطلق أبخرة ضارة بالصحة. وربما

Twitter: @ketab_n

كانت الجثث هي السبب.

قال (هومبولدت): مستحيل، الجثث لا تلعب دورا.

أخيرا عثروا على مكان يُنزلون فيه القارب. فقطعوا النباتات والحشائش بالفؤوس والسواطير ليمهدوا مجالا للمبيت. كان البعوض يفرقع في لهب النار التي أوقدوها. عض خفاش أنف الكلب الذي نزف بشدة وتلوى حول نفسه ولم يعد يهدأ. فاختبأ تحت السرير المعلق لـ (هومبولدت) ولم يناموا لشدة نباحه.

في الصباح التالي لم يتمكن (هومبولدت) و(بونبلاند) من حلاقة ذقنيهما لأن وجهيهما كانا متورمين من لسعات البعوض. عندما أرادا تبريد أورامهما في النهر لاحظا أن الكلب لم يعد موجودا. لقمّ (هومبولدت) بندقيته بأقصى سرعة.

قال (كارلوس): فكرة غير جيدة. الغابة هنا أكثف من أي بقعة أخرى والهواء رطب جدا لاستخدام السلاح. لقد اختطف الكلبَ فهدٌ ومن المستحيل استعادته.

اختفى (هومبولدت) بين الأشجار دون أن يرد عليه.

بعد مرور تسع ساعات كانوا ما يزالون في مكانهم. للمرة السابعة عشرة عاد (هومبولدت)، شرب ماء، واغتسل في النهر وأراد العودة للبحث عن الكلب. أمسكه (بونبلاند).

ـ لا فائدة من البحث. لقد ضاع الكلب.

قال (هومبولدت): لا أبدا، إنه لا يسمح بهذا.

وضع (بونبلاند) يده على كتفه وقال: اللعنة، لقد مات الكلب وانتهى.

قال (خوليو): مات تماما.

قال (ماريو): مات وشبع موتا.

قال (كارلوس): قد يكون الكلب الأكثر موتا في التاريخ!

نظر إليهم (هومبولدت) واحدا بعد الآخر. فتح فمه وأغلقه، ثم وضع البندقية على الأرض.

لم يلمحوا مستوطنة إلا بعد أيام. رحّب بهم عضو إرسالية وهو يتأتئ. كان الناس عراة

Twitter: @ketab_n

وملونين. رسم البعض على أجسامهم بزة سهرة، وآخرون بدلات رسمية من المستحيل أن يكونوا قد رأوها. انفرجت أسارير (هومبولدت) عندما علم أن أحدهم يحضر سم السهام.

كان صانع السم رجلا جليلا، نَاحلا كزاهد. شرح له طريقة صنع سم الكوراره: هكذا يكشط المرء الأغصان، وهكذا يسحق اللحاء على حجرة، وهكذا يعبئ – حذار – العصارة في قُمع من ورق الموز، وهذا أهم ما في طريقة التحضير. وأبدى شكه في أن تكون أوروبا قد ابتكرت شيئا على كل هذا القدر من الإتقان.

قال (هومبولدت): على كل حال، إنه قُمْع جدير بكل احترام ولا شك.

قال صانع السم: وهكذا يتم تقطير المادة في إناء فخاري، الحذر من فضلك، حتى النظر خطير، وهكذا يضاف منقوع الأوراق المكثف إليه. وهذا – أرى (هومبولدت) الإناء الطيني – هذا هو أقوى سم في هذا العالم وكل العوالم الأخرى، إنه قادر على قتل الملائكة.

سأل (هومبولدت) إن كان بالإمكان شربه.

قال صانع السم إنه يوضع عادة على السهام. لم يحاول أحد أن يشربه من قبل. الناس ليست مجنونة.

ـ لكن الحيوانات المقتولة به قابلة للأكل مباشرة.

قال صانع السم: طبعا، هذا هو هدف العملية كلها.

دقق (هومبولدت) النظر في سبابته، دسها في الإناء ولعقها.

أطلق صانع السم صرخة.

قال (هومبولدت) عليه ألا يخاف، فإصبعه سليمة وكذلك فجوة فمه، وإذا لم يكن المرء مجروحا فإنه سيتحمل السم. لابد من دراسة هذه المادة بدقة ولهذا عليه أن يخاطر. رجا المعذرة لأنه يشعر ببعض الضعف. خر على ركبتيه، وظل مدة على الأرض. ومسح جبينه ودمدم، ثم نهض برفق، واشترى كل الكمية المتوافرة.

تأخروا في متابعة الرحلة يوما كاملا. جلس (هومبولدت) و(بونبلاند) متجاورين على

Twitter: @ketab_n

شجرة مائلة. كانت عينا (هومبولدت) مركزتين على حذائه و(بونبلاند) يكرر المقطع الأول لأغنية أطفال فرنسية للمرة الألف. الآن صارا يعرفان طريقة تحضير سم الكوراره وبرهنا معا على إمكانية تجرع كمية لا بأس بها عبر الفم دون عواقب وخيمة، اللهم إلا قليل من الدوار والخدع البصرية. يفقد المرء الوعي إذا اختلطت قطرة واحدة منه في الدم ويكفي خُمس غرام لقتل قرد صغير، لكن يمكن إنقاذه إذا نفخ في صدره الهواء بالقوة عبر فمه مادام السم يشل عضلاته، إلا أن مفعول السم يخف بعد ساعة، تعود إلى القرد قدرته على الحركة ولا يبقى من المفعول إلا أثر ضعيف من الكآبة. كما بدا لهما أنهما يريان خداعا بصريا عندما انشق الدغل فجأة، وتقدم نحوهما رجل ذو شارب في قميص من الكتان وصديري من الجلد لكنه رزين. كان في منتصف الثلاثين، اسمه (برومباخر) وأصله من ساكسونيا. قال إنه ليس لديه خطط ولا هدف، كل ما يريده هو رؤية العالم.

اقترح عليه (هومبولدت) أن يرافقهما.

رفض (برومباخر) قائلا: إن المرء يتعلم أكثر إذا كان وحده، ثم إن الألمان متوافرون بكثرة في الوطن، ولا يسعده لقياهم في آخر الدنيا.

سأله (هومبولدت) عن مدينته متلعثماً وناسياً لغته الأم، وعن ارتفاع برج كنيستها وعن عدد سكانها؟

فرد عليه (برومباخر) باحترام وهدوء: باد كورتينغ، أربعة وخمسون قدما، ثمانمائة واثنتان وثلاثون نفسا. قدم لهما خبزا مرققا قذرا. رفضاه. حكى لهما عن المتوحشين، وعن الحيوانات وعن الوحدة في ليالي الغابة البدائية. نهض بعد قليل، نفض قبعته واختفى فجأة وانغلقت الأحراش خلفه. في اليوم التالي كتب (هومبولدت) إلى أخيه: من بين جميع العجائب التي صادفته كان هذا اللقاء الأكثر جنونا. لن يتضح له تماما إن جرت الواقعة فعلا، أم أنها كانت آخر أثر للسم الذي فعل فعله على مخيلتيهما.

قبل المساء كان أثر السم قد خف لدرجة أنهما قدرا على السير، بل شعرا بالجوع . كان سكان الإرسالية التبشيرية يديرون على النار أسياخا شُوِيَ عليها رأس طفل، وثلاثة أيد صغيرة وأربعة أقدام تشاهَد أصابعها بوضوح. قال رئيس الإرسالية: ليس إنسانا،

Twitter: @ketab_n

وأضاف إنه يحاول منع أكل لحوم البشر قدر الإمكان. فقط القردة من الغابة.

امتنع (بونبلاند) عن تذوق اللحم. تناول (هومبولدت) يدا وعضها مترددا. قال إن طعمها ليس سيئا، لكنه يشعر بعذاب الضمير وسأل إن كان يهين أحدا إن لم يأكلها؟

هز رئيس الإرسالية رأسه وفمه ملآن، وقال: إن هذا لا يهم أحدا.

أبقاهم ضجيج أصوات الحيوانات المتداخلة يقظين طوال الليل. ضربت القردة المحجوزة بشدة على قضبان أقفاصها، ولم تكف عن الصراخ. كتب (هومبولدت) بداية مقاله حول أصوات الليل في الغابة البدائية والوجود الحيواني، الذي يجب فهمه على أنه صراع مستمر ونقيض الجنة.

قال (بونبلاند) إنه يظن أن رئيس الإرسالية كذب عليهم.

رفع (هومبولدت) بصره إليه.

قال (بونبلاند): الرجل يعيش هنا منذ زمن بعيد. للغابة البدائية قوة كبيرة. لقد خجل الرجل من قول الحقيقة فكذب. الناس هنا يأكلون لحم الإنسان، هذا ما قاله الأب (زيا)، وهذا ما يعرفه الجميع. ماذا يستطيع مبشر وحيد أن يفعل ضده؟

– قال (هومبولدت): كلام فارغ.

قال (خوليو): كلام غير فارغ. كلام معقول جدا.

صمت (هومبولدت) لحظة وقال إنه يرجو المعذرة، لابد أنهم يخطئون خطأ كبيرا. إنه يتفهم موقفهم، لكن إذا تجرأ أحد منهم مرة ثانية وقال: إن ابن هرتزوغ براونشفايغ بالعماد قد أكل لحم إنسان، فإنه مضطر لاستخدام السلاح.

ضحك (بونبلاند).

قال (هومبولدت): إنه جاد.

قال (بونبلاند): لكنه ليس جادا فعلا.

ـ بلى فعلا!

صمت الجميع منقبضي الصدر. تنفس (بونبلاند) عميقا. لكنه لم يقل شيئا، التفتوا واحدا بعد الآخر ناحية النار، وتظاهروا بالنوم.

Twitter: @ketab_n

بعد هذه الحادثة اشتدت الحمى على (بونبلاند). كثيرا ما صار ينهض ليلا، يسير، ويسقط بعد عدة خطوات. تخيل (هومبولدت) مرة أن أحدا ينحني فوقه. تعرف فيه على طيف وجه (بونبلاند) وهو يصر على أسنانه وفي يده ساطور. تفحص مليا. كان (هومبولدت) واثقا بأن المرء يحلم في هذه الأنحاء أغرب الأحلام. إنه يحتاج (بونبلاند). عليه أن يثق به. ليس ما يراه إلا حلما. أغمض عينيه وأرغم نفسه على البقاء مستلقيا بهدوء حتى سمع صوت خطوات تبتعد. عندما رمشت عيناه في المرة التالية، كان (بونبلاند) راقدا بجانبه مغمض العينين.

تداخل الوقت أثناء النهار. كانت الشمس منخفضة جدا تتلظى ككتلة نارية فوق النهر. كان النظر إليها مؤلما. هجمت عليهم أسراب البعوض من جميع الجهات. كان المجدفون مرهقين لا يستطيعون الكلام. ولفترة طويلة تبعهم قرص معدني، طار من أمامهم ثم من ورائهم، انزلق صامتا في السماء، اختفى، ظهر من جديد، اقترب عدة دقائق بحيث شعر هومبولدت عبر منظاره بتقوس النهر والزورق وتقوسه هو ذاته على سطح القرص اللاهب. ثم ذهب القرص بسرعة ولم يعد.

وصلوا نهاية القنال فكان الطقس صافيا. في الشمال ارتفعت جبال غرانيتية بيضاء، على الجانب الآخر تمددت سهوب معشبة. ركز (هومبولدت) السدسية على الشمس الغاربة، وقاس الزاوية بين مداري المشتري والقمر السائر.

قال: الآن فقط يوجد القنال فعلا.

قال (ماريو): إن سرعة الماء تزداد مع التيار. لن يكون عليهم الخوف من الدوامات كثيرا، وسيمكنهم التجديف في وسط النهر وبهذا يتخلصون من البعوض.

قال (بونبلاند) إنه يشك في هذا. لم يعد يؤمن بوجود مكان دون بعوض. لقد دخلت حتى في ذاكرته. عندما يتذكر لاروشيل يراها ملآى بالحشرات.

قال (هومبولدت): إن رسم القنال على الخرائط سيعود بفائدة كبيرة على هذه الناحية من العالم. يمكن الآن نقل البضائع عبر القارة. ستنشأ مراكز تجارية جديدة، يمكن أن تجري الآن أشياء لم تطرأ في بال أحد.

Twitter: @ketab_n

هجم السعال على (بونبلاند)، فسالت الدموع على وجهه. وبصق دما. فقال هو متقطع الأنفاس: لا شيء هنا. المكان أحر من الجحيم، لا شيء غير النتن والبعوض والأفاعي ولن يكون شيء أبدا ولن يبدل هذا القنال إلقذر شيئا من هذه الحقيقة. فهل يرجعون أخيرا؟

بحلق فيه (هومبولدت) عدة ثوان وأعقب أنه لم يقرر بعد. الإرسالية التبشيرية في اسميرالدا هي آخر مستوطنة مسيحية في الغابة البدائية. انطلاقا منها يصل المرء إلى نهر الأمازون خلال أسابيع عبر منطقة لم تكتشف بعد. لم يعثر أحد حتى الآن على منابعه.

رسم (ماريو) إشارة الصليب.

أضاف (هومبولدت) متفكرا: من ناحية أخرى ربما لم تكن الفكرة ذكية تماما. العملية غير محمودة العواقب، إذا اختفى ستضيع كل الاكتشافات والنتائج التي توصل إليها. لن يعلم أحد عنها شيئا.

قال (بونبلاند): وطبعا يجب عدم المخاطرة بهذا.

قال (خوليو): العملية مخاطرة حمقاء!

قال (ماريو) مشيرا إلى الجثث: هذا بصرف النظر عنها، فلن يشاهدها أحد!

أومأ (هومبولدت): أحيانا على المرء أن يعرف حدودا.

كانت إرسالية اسميرالدا مؤلفة من ستة بيوت بين أحراج الموز العملاقة. لم يكن فيها حتى مبشر، إنما يرأس جندي اسباني خمس عشرة عائلة من الهنود الحمر. كلف (هومبولدت) عدة رجال بِحَتِّ النمل الأبيض عن خشب القارب.

قال الجندي الاسباني: إن قرارهم، في عدم المضي أبعد، هو القرار الصحيح. في المناطق الوحشية خلف المستوطنة يقتلون دون رادع. الناس هناك متعددو الرؤوس، لا يموتون ويتكلمون بلغة القطط.

تنهد (هومبولدت) في أسى وقال إن ما يزعجه هو أن يعثر رحالة آخر على منابع الأمازون. ولكي يبعد الأفكار السوداء عن رأسه، فحص صور الشموس والأقمار والثعابين المحفورة في صخرة تعلو النهر حوالي مائة متر والمتداخلة بشكل معقد.

قال الجندي: لا بد أن النهر كان أعلى في السابق.

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت): ليس لهذا المستوى. واضح أن الصخور كانت أخفض. لديه معلم في ألمانيا، لن يجرؤ على قول هذه الحقيقة له.

–قال الجندي: أو رسمها بشر يطيرون.

ابتسم (هومبولدت).

قال الجندي: هناك كائنات كثيرة تطير، ولا أحد يستغرب من هذا. وبالعكس لم ير أحد حتى الآن جبالا ترتفع.

قال (هومبولدت): إن البشر لا يطيرون. حتى لو رأى هذا بعينيه فلن يصدقه.

– وهذا هو العلم!؟

قال (هومبولدت): نعم، هذا بالضبط هو العلم.

عندما أعيد تجهيز القارب وخفت حمى (بونبلاند) استعدوا للعودة. أثناء الوداع رجا الجندي (هومبولدت) أن يذكره بكلمة خير في العاصمة كي ينقلوه إلى مكان آخر قائلا :إنه لا يتحمل البقاء. منذ زمن غير بعيد وجد في طعامه عنكبوتا – وضع راحتي يديه متلاصقتين – بهذا الحجم. اثنتا عشرة سنة، لا يتحمل أي إنسان. أهدى (هومبولدت) طائري ببغاء ولوح لهم طويلا وكله أمل.

كان (ماريو) محقا. فمع التيار سارت الرحلة أسرع، ولم تكن الحشرات في وسط النهر بتلك العدوانية. لم يمر الكثير من الوقت حتى وصلوا إرسالية اليسوعيين، حيث رحّب بهم الأب (زيا) بكثير من الدهشة.

قال إنه لم يتوقع لقاءهم من جديد بهذه السرعة. قوة تحمل جديرة بالإعجاب. كيف نجوا من آكلي لحم البشر؟

قال (هومبولدت) إنه لم يجد أيّاً منهم.

قال الأب (زيا): غريب، عمليا كل القبائل، هناك تحت، تفترس لحوم البشر.

قال (هومبولدت) إنه ليس بمقدوره أن يقره على هذا الرأي، وقطب جبينه.

قال الأب (زيا) إن أعضاء إرساليته لم يجدوا الهدوء منذ رحيلهم. إنهم غاضبون غضباً حقيقياً بسبب نبش قبور أجدادهم. ربما كان الأفضل لهم أن يستقلوا زورقهم القديم فورا،

Twitter: @ketab_n

ويتابعوا السفر.

اعترض (هومبولدت): السماء تنذر بالعاصفة.

قال الأب (زيا): لا، ينصح بعدمِ الانتظار. الوضع جاد، فعلا لن يتمكن من ضمان أمنهم.

فكر (هومبولدت) لحظة ثم قال: إن على المرء أن يطيع السيادة.

في ظهيرة اليوم التالي تجمعت الغيوم، وامتدت الرعود عبر السهوب. وفجأة هبت عليهم عاصفة هوجاء، لم يسبق لهم أن شاهدوا مثلها. أمر (هومبولدت) بلف الشراع، وإنزال الصناديق والجثث والأقفاص والطيور على جزيرة صخرية.

قال (خوليو) إنهم يستأهلون.

قال (ماريو): المطر لا يضر أحدا.

قال (كارلوس): المطر يضر بكل شخص. بإمكانه أنه يقتل. سبق وأن قتل المطر الناس.

قال (خوليو) إنهم لن يستطيعوا العودة إلى البيت.

قال (ماريو): وماذا إن لم يعودوا! الحياة في البيت لم تعجبه أبدا.

قال (كارلوس): في البيت ليس سوى الموت.

أشار عليهم (هومبولدت) بربط الزورق على الضفة. جدفوا. وفي هذه اللحظة تحديدا رفعت موجة مياه النهر عاليا وجرّت الزورق معها. شاهد (بونبلاند) و(هومبولدت) أحد المجاديف يطير في الهواء، ثم خطف الماء المزبد المشهد من أمام أعينهم. بعد ثوان لمع الزورق مرة ثانية في البعيد ثم اختفى المجدفون الأربعة دون أثر.

– والآن؟ سأل (هومبولدت).

قال (بونبلاند): بما أنهم هنا، فإنه يقترح استكشاف الصخور.

شاهدا مدخل كهف تحت مسيل الماء فدخلاه. كان الماء يرعد فوق رأسيهما وينزل من خلال شقوق السقف على شكل أعمدة عملاقة يمكن الوقوف بينها دون أن يبتل المرء. اقترح (بونبلاند) بصوت مبحوح أن يقيسوا الحرارة.

بدا الإرهاق على (هومبولدت). قال إنه لا يعرف ما هو السبب، لكنه يخطر له أحيانا

Twitter: @ketab_n

أن يرمي كل شيء وراء ظهره. اشتغل على المعدات بحركات بطيئة. ثم قال: والآن إلى الخارج، يمكن أن يغرق الكهف في أي لحظة.

أسرعا بالخروج إلى العراء، وازدادت غزارة المطر. كأنه ينصب من دلاء، بلل ثيابهما، وملأ أحذيتهما، وجعل الأرض تحتهما زلقة بحيث صار من الصعوبة عليهما أن يقفا على أقدامهما. جلسا، وانتظرا. سبحت التماسيح في الزبد. صرخت القردة في الأقفاص، ضربت بأيديها على الأبواب، وجرت القضبان. جلس طائرا الببغاء على عموديهما كمنديلين مشربين بالماء. كان أحدهما يُحَمْلقُ منقبض النفس، والآخر يدمدم دون توقف بشكاوى بلغة اسبانية رديئة.

سأل (هومبولدت): وماذا إذا لم يعد الزورق؟

قال (بونبلاند) إنه سيعود. عليه أن يبقى هادئا.

اشتدت غزارة المطر وكأن السماء تريد تنظيف الجزيرة منهما. تلألأ الأفق بالبروق، قصف الرعود على صخور الضفة الأخرى حتى تداخل صداها الرعود بعضه ببعض.

قال (هومبولدت): إن هذا ليس نذير خير، فالماء يحيط بهما مع أنهما يجلسان على أعلى نقطة. يرجو ألا يكون السيد (فرانكلين) على حق في نظريته حول صعقة البرق.

تناول (بونبلاند) علبته بصمت وشرب منها.

قال (هومبولدت) إنه تفاجأ بوجود كل هذه الأعداد من السحالي في مجاري الأنهار، ما يخالف كل تصورات علماء الحيوان.

أخذ (بونبلاند) جرعة أخرى من العلبة.

– من ناحية أخرى، عثر المرء على نماذج من الأسماك التي تتغلب على قوة الشلالات وتسبح بعكسها.

رفع (بونبلاند) حاجبيه. كان الرعد قد تحول إلى هدير لا يتوقف. في النهاية الأخرى للجزيرة، على مسافة لا تبعد عنهما خمسين خطوة، كان شيء ما، داكن وكبير، يتخبط.

قال (هومبولدت) إنهما إذا ماتا فلن يعلم أحد شيئا عنهما.

– ماذا يعني؟ سأل (بونبلاند) ورمى العلبة الفارغة. وأضاف: الموت موت.

Twitter: @ketab_n

نظر (هومبولدت) إلى التمساح خائفا وقال حين يعودون إلى الساحل، فإنه سيرسل كل شيء إلى أخيه. النباتات، الخرائط، اليوميات والمجموعات على باخرتين مختلفتين. ووقتها سيمضي إلى جبال الكورديليرا.

– الكورديليرا؟؟

أومأ (هومبولدت) وأضاف أنه يريد أن يرى البراكين العملاقة. يجب عليه إيجاد الجواب الشافي لمسألة النظرية النبتونية.

لم يعودا يعرفان منذ متى ينتظران. مرت بهما بقرة ميتة، ثم غطاء بيانو، ثم رقعة شطرنج وكرسي هزاز مكسور. تناول (هومبولدت) ساعته بكل حذر، أصغى إلى دقاتها الباريسية الخفيفة، وأصاخ السمع إلى عقاربها عبر الغطاء النسيجي المشمع. وقال: إما أن العاصفة بدأت قبل دقائق، أو أنهما محجوزان منذ اثنتي عشرة ساعة، أو أن المطر لم يخلط النهر والغابة والسماء فقط، بل خلط الزمن ذاته، مسح ببساطة عدة ساعات منه، بحيث سال الظهر الجديد في الليل والصباح التالي. لف (هومبولدت) ذراعيه حول ركبتيه.

قال إن حياته تدهشه أحيانا. حسب الأصول كان عليه أن يصبح مفتشا للمناجم، يسكن قصرا ألمانيا، ينجب أطفالا، يصطاد الغزلان يوم الأحد، ويزور مدينة فايمار مرة في الشهر. والآن، ها هو يجلس هنا في الطوفان، تحت نجوم غريبة، منتظرا زورقا لن يأتي أبدا.

سأله (بونبلاند) إن كان نادما على ما فعله. قصر، أطفال، فايمار، ليست حياة سيئة؟

رفع (هومبولدت) قبعته التي جعل منها الماء خرقة لا تنفع في شيء. ارتفع خفاش من الغابة، ودخل العاصفة، أسقطه المطر، وجرته المياه بعد عدة خفقات من جناحيه.

ـ لم يفكر بهذا قط

ـ ولا حتى ثانية واحدة.

انحنى (هومبولدت) نحو الأمام واستطلع التمساح. تملى في أفكاره. ثم هز رأسه نافيا.

Twitter: @ketab_n

إذن منذ أن تنبأ بمكان وزمان ظهور الكويكب من جديد، طبعا دون أن يصدقه أحد، وبعد أن لاحت الصخرة الملعونة رغم أنف الجميع في ظلمات الليل في المكان والزمان المحددين بالضبط، صار مشهورا.

كان الفلك علما محبوبا، يعجب الملوك، يتابع الجنرالات آخر تطوراته، يعلن الأمراء عن مكافآت عليه، وتنشر الجرائد أخبار (ماسكيلينه)، و(ماسون)، و(ديكسون) و(بيازي) وكأنها تكتب عن الأبطال. العالم الذي يوسع أفق الرياضيات كان ظاهرة طريفة، أما الذي يكتشف نجما، فقد كان رجلا حقيقيا.

قال الهرتزوغ: حسنا، إنه الآن يشاهد نتائج تعبه، لقد بلغ مرامه.

(غاوس)، الذي لم يكن يعرف كيف يرد على هذا الإطراء، انحنى بصمت.

– وماذا يعمل أيضا؟ سأله الهرتزوغ بعد فترة التفكير المعتادة، ثم أضاف أنه يعني في مجال الحياة الخاصة. سمع أنه ينوي الزواج.

قال (غاوس): فعلا، فعلا، نعم.

كان الإيوان قد تغير. استبدلت بمرايا السقف، التي أصبحت قديمة كما يبدو، ألواح ذهبية وقل عدد الشموع المحترقة. كما بدا الهرتزوغ ذاته مختلفا. أكبر في السن. كان أحد جفنيه متهدلا، ووجنتاه غليظتين، لاح وكأن جسده الثقيل يضغط بقوة على ركبتيه.

ـ ابنة دباغ، كما سمع.

– صحيح، قال (غاوس) وأضاف مبتسما: صاحب السمو. يا له من خطاب. يا له من مكان. كان عليه أن يتمالك نفسه كي لا يبدو عديم الاحترام. مع أنه كان يحب هذا الهرتزوغ، فهو لم يكن رجلا سيئا، ويبذل جهده ليقوم بأشياء صحيحة، كما أنه وبخلاف الآخرين، لم يكن غبيا تماما.

قال الهرتزوغ: والعائلة تحتاج إلى من يعيلها.

قال (غاوس) إنه لا يمكن إنكار هذا، ولهذا وضع كل طاقاته في سيريس.

نظر إليه الهرتزوغ مقطب الجبين.

Twitter: @ketab_n

تنهد (غاوس). قال ببطء وتركيز: سيريس. هذا هو الاسم الذي أطلق على الكويكب، الذي كان (بيازا) أول من رآه، وعيَّن هو، (غاوس)، مداره. لقد شغل نفسه بالمسألة أصلا في سبيل الزواج، لأنه بدأ يعرف أن عليه أن ينتج شيئا عمليا، يفهمه حتى الناس قليلو ... – تردد لحظة – يفهمه أيضا ناس لا يهتمون بدراسة الرياضيات.

أومأ الهرتزوغ. تذكر (غاوس) أن عليه ألا ينظر في عينيه مباشرة فأخفض عينيه. تساءل في نفسه متى سيأتيه العرض أخيرا. دائما هذا الكلام المتكرر، دائما هذا اللف والدوران، كل هذا الزمن المفقود في الهراء.

قال الهرتزوغ إن لديه فكرة قريبة مما يطرحه (غاوس). رفع (غاوس) حاجبيه قدر الإمكان ليبدي دهشته. كان يعرف أن الفكرة فكرة (تسيمرمان)، الذي أقنع الهرتزوغ بعد ساعات وساعات من الإلحاح.

– ربما لاحظ عدم وجود مرصد فلكي في براونشفايغ.

قال (غاوس): بين الحين والآخر.

ـ ماذا؟

ـ لقد لاحظ هذا.

ويتساءل الآن إن لم يكن من الضروري وجود مرصد في المدينة. والدكتور (غاوس)، رغم صغر سنه، سيكون أول مدير له. ضغط الهرتزوغ يديه على جنبيه، وتشوه وجهه بابتسامة عريضة. أضاف: هذه مفاجأة، أليس كذلك؟

قال (غاوس) إنه يريد علاوة على ذلك لقب بروفسور.

صمت الهرتزوغ.

كرر (غاوس) مشددا على كل حرف: لقب البروفسور، وكرسيا في جامعة هيلمشتيت، وأجرا شهريا مضاعفا.

تقدم جسم الهرتزوغ، وتأخر. دمدم متذمرا، نظر إلى السطح المشغول بالذهب. استغل (غاوس) الفرصة ليحصي مجموعة جديدة من الأعداد الأولية. سبق له وأن أحصى الآلاف منها. كان شبه واثق أنه لن يجد أبدا معادلة لحسابها، لكن إذا أحصى المرء مئات

Twitter: @ketab_n

الآلاف منها سيتمكن من تعيين احتمال ظهورها تقريبيا. وللحظة ركز أفكاره حتى إنه ارتعش عندما قال له الهرتزوغ: إن المرء لا يساوم مع أبي الوطن.

قال (غاوس): حاشى له أن يفعل هذا، لكنه على العكس يؤمن بضرورة أن يخبر الهرتزوغ أن مركزا عرض عليه في برلين وآخر في أكاديمية سانت بطرسبورغ. لقد شدت روسيا اهتمامه دائما وكثيرا ما نوى تعلم اللغة الروسية.

قال الهرتزوغ: إن سانت بطرسبورغ، بعيدة جدا. كما أن برلين أيضا ليست على مرمى حجر. وإذا لم يخطئه الظن فإن أقرب مكان له هو هنا. كل مكان آخر يقع في مكان آخر. حتى غوتنغن. إنه ليس عالما ويرجو تصحيح معلوماته إذا كان مخطئا.

قال (غاوس) وعيناه مركزتان على الأرض إن الحق معه، طبعا هذا صحيح.

– ومن لم يمسكه حب الوطن، عليه أن يتذكر على الأقل أن السفر مرهق. يجب عليه الاعتياد على المكان الآخر، مكان آخر يعني مهانة، ونقل البيت عمل جهنمي يكلف ثروة. كما أن للرجل أما عجوزا في الوطن.

شعر (غاوس) بوجهه يحمر، ما كان يحدث له دائما عندما يأتي ذكر أمه، ليس خجلا، بل لأنه يحبها حبا عميقا. رغم هذا – كان عليه أن يتنحنح وكرر – رغم هذا، لا بد مما ليس منه بد. من يكفل عائلة يحتاج المال، وعليه الذهاب إلى حيث يجده.

قال الهرتزوغ إنهم سيتفقون. لقب البروفسور ممكن، لكن دون أجر مضاعف.

– وماذا لو كان يريد اللقب لأجل الأجر المضاعف!

قال الهرتزوغ ببرود: إذا فإنه لا يشرف لقب البروفسور.

اتضح لـ (غاوس) أنه تجاوز الحدود. انحنى. أخلى الهرتزوغ سبيله بتلويحة من يده فتح له خادم يقف وراء الباب حالاً.

بينما هو ينتظر كتاب تعيينه، انشغل عن فن حساب مدارات الكواكب. قال لـ (يوهانا): إن مدار نجم ليس مجرد حركة ما، بل هو النتيجة الحتمية لتأثيرات جميع الأجسام على جسم واحد في الفراغ. إذاً ذلك الخط الذي ينشأ بنفس التقوس على الورقة وفي المكان، عندما يقذف المرء جسما في الفراغ. لغز الدوران. المسعى المشترك لكل الأجسام الذي

Twitter: @ketab_n

لا تلين عريكته.

المسعى المشترك للأجسام، كررت، وضربت مروحتَها على كتفه. أراد تقبيلها لكنها نفرت منه ضاحكة. لم يكتشف قط لماذا غيرت رأيها وقبلت الزواج به . كانت تتصرف منذ رسالتها الثانية بكل بداهة. وأعجبه وجود أشياء لا يفهمها.

قبل حفل الزواج بيومين ركب نحو غوتنغن ليزور (نينا) للمرة الأخيرة.

قالت إنه سيتزوج الآن، وطبعا لن يتزوجها هي.

قال لها: لا، طبعا لا.

سألته إن لم يكن قد أحبها قط.

– قليلا، جاوبها بينما هو يفك أربطة فستانها ولا يستطيع تصديق أنه سيفعل نفس الشيء بعد يومين مع (يوهانا). لكنه، أردف، سيحافظ على وعده الآخر لها، سيتعلم الروسية. ورغم أنها أكدت له أن لا معنى لها، ففي مهنتها تصير المرأة عاطفية، أدهشته دموعها، ولم يجد لها مبررا.

كان الحصانُ يشخر بقوة عندما أوقفه على سهل في طريق العودة. بغتة اتضح له كيف يمكن استنتاج كتلة المشتري من التغيرات على مدار كويكب سيريس. نظر إلى السماء حتى أوجعته رقبته. قبل لحظات كان فيها مجرد نقاط براقة، والآن يميز بين أشكالها، ويعرف ما هي أهم تلك النقاط التي تحدد خطوط العرض المهمة للاستدلال على الطرق البحرية، ويعرف مسالكها، ساعات اختفائها وظهورها. فجأة صارت هي مهنته وصار هو عرافها، هذا لأنه يحتاج إلى المال.

إلى حفل الزفاف جاء عدد قليل من الضيوف: والده العجوز المتقوس الظهر، وأمه المتنشجة كالأطفال، و(مارتين بارتلز) والبروفسور (تسيمرمان)، علاوة على عائلة (يوهانا)، وصديقتها القبيحة (مينا)، وكاتب أرسله البلاط، بدا وكأنه لا يعرف لماذا أوفد إلى العرس. أثناء تناول الطعام المقتصد تحدث والد (غاوس) عن عدم جواز الانحناء لأحد أبدا، مهما كان، ثم نهض (تسيمرمان)، فتح فمه، ابتسم بكل حب للضيوف وجلس. لكز (بارتلز) (غاوس).

Twitter: @ketab_n

نهض هذا، بلع ريقه وقال إنه لم يتوقع أبدا أن يجد شيئا يشبه السعادة، كما أنه لا يؤمن بهذا الآن أيضا والحق يقال. يخال أن ما يجري خطأ حسابي، غلط، يأمل ألا يكتشفه أحد. ثم أخذ مكانه واستغرب من نظرات الحضور المندهشة. سأل (يوهانا) بصوت منخفض إن كان قد قال شيئا خطأ؟

ردت عليه : وهل هذا معقول!. هذه هي تماما الخطبة التي كانت تحلم بها ليوم زفافها.

بعد ساعة ذهب آخر الضيوف وكان هو و(يوهانا) على الطريق إلى البيت. تكلما قليلا وفجأة كانا غريبين كل منهما على الآخر.

في غرفة النوم أنزل الستائر، تقدم نحوها، شعر بنفورها، أمسك بها برقة وبدأ بفك أربطة فستانها. لم يكن الأمر سهلا دون ضوء. (نينا) كانت ترتدي دائما فساتين يسهل فكها. دام الأمر طويلا. كان القماش عنيدا والأربطة كثيرة، بحيث ظن أنه لن يتمكن من فكها أبدا. لكنه تمكن أخيرا. وهكذا نزل الفستان وبرز عري كتفيها في الظلام. وضع يده على كتفيها، حمت ثدييها غريزيا بيديها وشعر بممانعتها عندما قادها إلى السرير. احتار كيف يتصرف مع تنورتها الداخلية، فقد كان حاله مع الثوب صعبا كفاية. لماذا لا ترتدي النساء أثوابا يمكن فكها بسهولة؟ – لا تخافي، همس لها، وفوجئ عندما ردت عليه أنها ليست خائفة ومدت يدها إلى حزامه بحركة متمرنة، لم يحسب حساب دقتها. –هل فعلت هذا من قبل؟ سألها.

–ماذا يظن بها؟ سألت ضاحكة وفي لمح البصر تكومت تنورتها الداخلية على الأرض. ولأنها ترددت، جرها معه وهكذا صارا فجأة مستلقيين على السرير متقطعي الأنفاس وكل منهما ينتظر أن تهدأ خفقات قلب الآخر. عندما مر بيده عبر صدرها إلى بطنها ثم، صمم على أن يجرؤ على فعلته رغم أنه شعر بحاجة إلى الاعتذار لتصرفه، مرر يده نحو الأسفل، ظهر قرص القمر شاحبا وكئيبا بين شقوق الستائر وخجل لأنه اتضح له في هذه اللحظة تحديدا كيف يمكن حساب مدار الكواكب على وجه التقريب. تمنى لو يدون ما اكتشفه، لكن يدها كانت تنحدر على ظهره نحو الأسفل. قالت في مزيج من الاستغراب

Twitter: @ketab_n

والفضول إنها لم تكن تتصور أن الأمر على هذا الشكل، حيا كأن معهما كائن ثالث.

تمدد فوقها ولأنه شعر أنها خافت، انتظر لحظة ثم لفت هي ساقيها على جسمه، لكنه رجا المعذرة، نهض، تعثر، دس الريبثة في الحبر وكتب في الظلام: مجموع مربعات الفرق بين الكمية المراقبة والمحسوبة يعطي أدنى قيمة. قال: إن هذا كان مهما جدا، يجب ألا ينساه. سمعها تقول إنها لا يمكن أن تصدق مثل هذا التصرف كما أنها لا تصدقه الآن أيضا، بينما هي تعيشه بنفسها. لكنه كان قد انتهى من معادلته. على طريق العودة ارتطمت قدمه بعمود السرير، ثم شعر بها تحته من جديد ولم يلاحظ مدى توتر أعصابه إلا عندما جرته إليها ودهش للحظة من استلقائهما معا في هذا الوضع، هما اللذان لا يعرفان بعضهما إلا قليلا. ثم تغيرت الأحوال وزال خوفه. وفي الصباح كان تعارفهما عميقا كأنهما فعلاها معا طوال العمر.

هل تجعل السعادة المرء غبيا؟ عندما كان يتصفح كتاب مقالة في نظرية الأعداد في الأسابيع التالية، بدا له غريبا أن المقالة بريشته. كان عليه أن يتمالك نفسه ليفهم كل الاشتقاقات. تساءل إن كان ذهنه قد انحط إلى مستوى عادي. كان علم الفلك أكثر فظاظة من الرياضيات. لا يمكن حل مسائله بمجرد التفكير وحده، يجب تدقيق النظر في عدسة حتى تؤلم العين، ويجب وجود شخص آخر يدون نتائج القياس في لوائح متعبة وطويلة إلى ما لانهاية، الأمر الذي قام به في مدينة بريمن سيّد اسمه (بيسيل)، موهبته الوحيدة هي انه لا يخطئ أبدا. كمدير للمرصد الفلكي كان من حق (غاوس) أن يعين مساعدين، حتى لو لم يكن حجر الأساس قد وضع بعد.

قدم عدة طلبات للتشرف بلقاء الهرتزوغ، لكن هذا كان مشغولا دائما. أرسل كتابا غاضبا ولم يتلق ردا. وعندما أرسل كتابا آخر ولم يتلق ردا عليه أيضا، انتظر أمام إيوان الهرتزوغ حتى جاءه كاتب بشعر أشعث وبزة رثة، وطرده. على الطريق صادف (تسيمرمان)، واشتكى بمرارة من سوء المعاملة التي تعرض لها في البلاط.

تطلع إليه البروفسور وكأنه يرى ظاهرة غريبة وسأله إن كان لا يعرف فعلا أن الحرب قامت؟

Twitter: @ketab_n

تطلع غاوس حوله. كان الشارع مرتميا بصمت في شمس الظهيرة، مر بهما خباز يحمل سلة خبز، لمع الديك المعدني فوق سطح الكنيسة كسولا، وفاحت رائحة الريش. سأل مندهشا: حرب؟!

فعلا لم يكن قد قرأ الجرائد منذ أيام. جلس لدى (بارتلز) الذي كان يحتفظ بكل شيء أمام كومة من الجرائد القديمة. تصفح عابساً تقريرا لشخص اسمه (الكسندر هومبولدت) عن مرتفعات كاخاماركا. اللعنة، هل يوجد مكان لا يعرفه هذا اللعين؟ لكنه عندما وصل إلى أخبار الحرب، قاطعه صرير عجلات مركبة لنقل الجنود. مشت الحراب وخوذ الفرسان والرماح طوال نصف ساعة مارة بالنافذة. جاء (بارتلز) إلى البيت مقطوع الأنفاس، وروى أن الهرتزوغ أصيب قرب مدينة ييينا، ينزف في إحدى تلك العربات كالخروف، سيموت حالا. ضاع كل شيء.

لف (غاوس) الجريدة. وقال إنه سيذهب إذن إلى البيت.

قال (غاوس) إن عليه ألا يخبر أحدا، لكن (نابليون) هذا يعجبه. يشاع أنه يملي ست رسائل مختلفة في الآن ذاته. كتب مرة مقالة رائعة عن تقسيم الدائرة بفرجار ثابت. ربح معارك، كان أول من يزعم ويثق أنه سيربحها. يفكر أعمق وأسرع من الآخرين، هذا هو سر نجاحه. تساءل (غاوس) إن كان (نابليون) قد سمع به.

قال لـ (يوهانا) أثناء تناول العشاء: إذن انتهى موضوع المرصد الفلكي. مازال يراقب السماء من غرفته، هذه ليست حياة. جاءه عرض من غوتنغن. إنهم يريدون بناء مرصد فلكي، غوتنغن ليست بعيدة، منها سيستطيع زيارة أمه مرة في الأسبوع. يمكن نقل البيت قبل مجيء الطفل.

قالت (يوهانا): لكن غوتنغن ألحقت بفرنسا.

– غوتنغن! في فرنسا؟

صرخت به، لماذا بحق السماء هو أعمى عن أشياء يراها كل الناس. غوتنغن تقع في إمارة هانوفر التي انتهت وحدتها مع التاج الانكليزي بسبب انتصار الفرنسيين وضمها (نابليون) إلى مملكة وستفاليا الجديدة بإمرة (جيروم نابليون). إذن، لمن يقدم موظف من

Twitter: @ketab_n

وستفاليا قسم الولاء؟ طبعا لـ (نابليون)!

مسح (غاوس) جبينه. وستفاليا! كرر الكلمة، كأن الأمور ستتضح له أكثر إذا نطق بها بصوت عال. (جيروم). وسأل ما علاقة كل هذا بهما؟.

قالت (يوهانا): إن لهذا علاقة بألمانيا، ومع الطرف الذي يقف فيه المرء.

نظر إليها عاجزا.

قالت إنها تعلم أنه سيقول الآن، من وجهة نظر مستقبلية فإن الطرفين سيتساويان وإن أحدا لن يثور في المستقبل على ما يضحون اليوم لأجله بالغالي والنفيس. لكن ماذا يغير هذا في الموضوع؟! إن منافقة المستقبل نوع من الجبن. هل يؤمن فعلا أن الناس ستكون أكثر ذكاء في المستقبل؟

قال: قليلا على أقل تقدير، بحكم الضرورة.

ـ لكنهم أبناء اليوم.

قال: للأسف. وأطفأ الشموع. وذهب إلى المنظار ووجهه إلى سطح المشتري المحاط بالضباب. رأى أقماره القزمة في الليل الصافي أوضح من ذي قبل.

بعد أيام أهدى المنظار للبروفسور ونتقل (بفاف) إلى غوتنغن. هنا أيضا لم تكن الحياة هادئة تماما. في الليل كان الجنود الفرنسيون يصدرون الضجيج، وحيث يجب تشييد المركز الفلكي، لم تكن الأرض قد سويت أصلا، وليس فيها إلا عدة خراف تقضم الأعشاب. اضطر لمراقبة النجوم من غرفة عالية على سور المدينة تحت تصرف البروفسور (ليشتنبرغ). وأسوأ ما في الأمر أنه أرغم على إلقاء محاضرات على الطلاب. جاء إلى بيته شبان، اهتزوا على كراسيه، نفشوا المخدات على أريكته، بينما هو يحاول أن يفهمهم شيئا ما على الأقل.

طلابه كانوا أغبى ناس صادفهم في حياته. تكلم ببطء شديد حتى إنه كان ينسى بداية الجملة قبل أن يصل إلى نهايتها، لكن هذا لم ينفع معهم. وفّر عليهم الصعوبات وحاول أن يعلمهم المبادئ الأولية. لم يفهموا. أوشك أن يبكي. تساءل إن كان للعاجزين لغة خاصة يتعلمها المرء كما يتعلم لغة أجنبية. استخدم يديه، أشار إلى فمه، وشدّد على كل حرف

Twitter: @ketab_n

كأنه يعلم صما بكما. رغم كل جهده لم ينجح في الامتحان إلا شاب واحد دامع العينين، اسمه (موبيوس) ويبدو أنه الوحيد الذي لم يكن متخلفا عقليا. وعندما كان (موبيوس) الوحيد الذي نجح في الامتحان الثاني أيضا، أخذ رئيس الجامعة (غاوس) بعد الاجتماع على ناحية ورجاه ألا يكون بهذه الشدة مع الطلاب. عندما وصل (غاوس) إلى البيت وهو يكاد يبكي، وجد فيه غرباء غير مرغوب فيهم: طبيبا، قابلة وحمويه.

قالت الحماة إنه استهان بواجباته. لابد أن عقله كان في النجوم.

قال منقبض الصدر إنه ليس عنده حتى منظار محترم، واستعلم إن كان قد حدث شيء لا سمح الله.

ـ ولد.

أي ولد؟! ولم يفهم إلا لما شاهد عينيها. وعرف للفور أنها لن تغفر له هذا الخطأ أبدا.

أسف لأنه صعب عليه أن يحب الصغير. قيل له إن الطبيعة ستحبوه حنان الأب. لكنه لم يشعر حتى بعد أسابيع من الولادة إلا بالعطف والنفور عندما حمل الكائن الضعيف، الذي أطلق عليه لسبب من الأسباب اسم (يوسف)، بين يديه وتطلع إلى أنفه الصغير وأصابعه الكاملة رغم ولادته للتو –الأمر الذي شتت عقله– أخذته منه (يوهانا) وسألته وفي صوتها شيء من القلق: إن كان سعيدا؟ قال إنه طبعا سعيد، ومضى إلى المنظار.

منذ أن انتقلوا إلى غوتنغن، عاد إلى التردد على (نينا). لم تعد شابة وكانت تستقبله بألفة الزوجة. لامته بحنان لأنه لم يتعلم الروسية بعد. اعتذر، ووعدها أنه سيتعلمها قريبا. أقسم لنفسه ألا تعلم (يوهانا) شيئا عن هذه الزيارات. سيكذب عليها حتى تحت التعذيب. كان مرغما على إبعاد الألم عنها، لكنه لم يكن مرغما على قول الحقيقة لها. المعرفة تؤلم. لم يمر عليه يوم إلا تمنى لنفسه القليل منها. كان قد بدأ كتابا عن الفلك، عملا غير كبير. لن يخلد مثل (مقالة في نظرية الأعداد). سينساه التاريخ. لكنه يعد بأدق المعادلات التي توافرت على مدى الدهر لحساب مدارات النجوم والكواكب. وكان عليه الإسراع في العمل. فرغم أنه بلغ الثلاثين، كان يلاحظ أن قوة التركيز لديه قد ضعفت، وأن فترات الاستراحة التي يحتاجها الآخرون للتفكير قد قلت. فقد المزيد من الأسنان، وبدأ المغص يهجم عليه

Twitter: @ketab_n

بين أسبوع وآخر. نصحه الطبيب بتدخين غليون في الصباح، وأخذ حمام فاتر قبل النوم. كان واثقا أنه لن يشيخ. عندما أخبرته (يوهانا) أن هناك طفلا آخر على الطريق، لم يطق أن يقول لها إنه سعيد بالخبر. فالطفل سينمو من دونه، الأمر الذي كان واثقا منه. على الأقل قام هذه المرة بكل شيء على الوجه الصحيح: تظاهر بالخوف أثناء الولادة وبالراحة بعدها، وعلى شرف صديقتها الغبية (مينا) أطلقا عليها اسم (فيلهلمينه). عندما حاول بعد عدة أسابيع أن يعلمها الحساب، قالت (يوهانا) بقرف إن البنت مازالت فعلا صغيرة.

حيث إنها كانت حاملا للمرة الثالثة، سافر إلى بريمن، ليدرس مع (بيسيل) لوائح كوكب المشتري. عانى من سوء النوم طوال أسبوع قبل السفر. فأتته الكوابيس وتعكر مزاجه واكتأب طول النهار. كانت الرحلة إلى بريمن أسوأ من رحلته إلى كونيغسبرغ، العربة أضيق، والركاب أقل نظافة وعندما انكسرت عجلة العربة، كان عليهم الانتظار في الطين أربع ساعات، حتى يصلح الحوذي العجلة شامتا. نزل (غاوس) من العربة مرهقا، وشعر بثقل في الرأس وآلام في الظهر، سأله (بيسيل) عن حساب حجم المشتري بناء على انحراف كويكب سيريس وإن كان قد توصل إلى معادلة متماسكة لحساب مدار النجوم؟

احمر (غاوس). قال إنه لن يتمكن من إنجاز هذه المعادلة، ماذا بوسعه أن يفعل! لقد انشغل بها مئات الساعات. المسألة صعبة لدرجة غير معقولة. إنها عذاب وهو لم يعد شابا، بحق الشيطان. عليهم أن يرحموه، فهو لن يعيش طويلا بجميع الأحوال. لقد أخطأ عندما شغل نفسه بهذه الصغائر.

بصغار سأله (بيسيل) إن كان قد شاهد البحر؟

قال (غاوس): رجاء، لا رحلات استطلاع.

ـ قال (بيسيل): إنه قريب جدا. مجرد نزهة قصيرة.

في الواقع كانت رحلة أخرى مضنية. كانت العربة تتأرجح بحيث جاءه المغص من جديد. وكان المطر ينهمر، والنافذة غير محكمة، وتبللا حتى العظام.

– لكن البحر يستحق التعب، كان (بيسيل) لا يكف عن تكرار هذه الجملة، لا بد أن

Twitter: @ketab_n

يرى المرء البحر في حياته.

– لابد، سأل (غاوس)، أين كتب هذا؟

كان الشاطئ قذرا وكذلك المياه. لاح الأفق ضيقا، والسماء منخفضة، والبحر كحساء تحت ضباب عكر. هبت ريح باردة. احترق قربهم شيء ما وجعل الدخانُ التنفسَ صعبا. وعلى المياه تأرجح ديك مقطوع الرأس.

– طيب، حسنا. رفت عين (غاوس) في البخار وأضاف: بوسعهم الآن أن يعودوا إلى البيت.

إلا أن رغبة (بيسيل) في المغامرة لم يكن لها رادع: رؤية البحر لا تكفي، لا بد من زيارة المسرح أيضا.

–قال (غاوس): لكن المسرح غال.

ضحك (بيسيل). وقال على السيد البروفسور أن يعد نفسه ضيفا يتشرف بضيافته. سيستأجر عربة خاصة. وبسرعة البرق سيكونون هناك.

استغرقت الرحلة أربعة أيام. كان سرير النزل في فايمار قاسيا ولم يعد (غاوس) يتحمل آلام الظهر. علاوة على هذا أصابته الأعشاب على نهر إيلم بالعطاس. في مسرح البلاط كان الجو خانقا والجلوس ساعات عذاباً. عرضت مسرحية لـ (فولتير). أحدهم يقتل آخر. امرأة تبكي. رجل يَنْعى حظه. امرأة أخرى تسقط على ركبتيها. مونولوجات. كانت الترجمة جميلة ومنظومة، لكن (غاوس) فضل لو أنه يقرأها. سالت الدموع على وجنتيه من كثرة التثاؤب.

همس (بيسيل): المسرحية مؤثرة فعلا، أليس كذلك؟

لوح الممثلون بأيديهم في الهواء، وتقدموا وتراجعوا للخلف مرات ومرات، وأداروا أعينهم في أرجاء المسرح وهم يهذرون.

قال (بيسيل) إنه يظن أن (غوته) حاضر اليوم في غرفته.

سأل (غاوس) إن كان هو ذاك الحمار الذي يتطاول، ويدعي أنه سيصحح نظرية (نيوتن) في الضوء؟

Twitter: @ketab_n

التفت إليهما المشاهدون، تقلص (بيسيل) في مقعده، وما نطق بكلمة واحدة حتى نهاية العرض وإسدال الستارة.

كلمهم سيد ناحل لدى خروجهم من المسرح. سأل إن كان يتشرف بلقاء (غاوس)، عالم الفلك؟

ـ عالم الفلك والرياضيات، قال (غاوس).

قدم الرجل نفسه على أنه دبلوماسي من بروسيا. يسكن في روما، وأنه في طريقه إلى برلين حيث سيستلم منصب رئيس قطاع التعليم في وزارة الداخلية. قال: يوجد الكثير ليفعله، يجب إصلاح نظام التعليم الألماني من أساسه. هو ذاته حصل على أفضل تربية وقد حانت الفرصة ليمنح شيئا منها للآخرين. كان يقف منتصبا جدا دون أن يستند على عكازه الفضي. وقال إنهما بالمناسبة، خريجا نفس الجامعة، لديهما أصدقاء مشتركون. ما كان يعلم أن السيد (غاوس) يشغل نفسه بالرياضيات أيضا، شيء عظيم أليس كذلك؟

لم يفهم (غاوس) شيئا.

ـ المسرحية.

– لنقل، قال (غاوس).

قال الدبلوماسي إنه يتفهم موقفه. ليست المسرحية المثالية، في هذا الوقت تحديدا. كان الأفضل تقديم مسرحية ألمانية. لكن (غوته) صعب المراس من هذه الناحية.

رجا (غاوس)، الذي لم يكن قد أصغى إلى الدبلوماسي، أن يعيد عليه اسمه.

أعاد عليه الدبلوماسي اسمه مع انحناءة وأضاف أنه بالمناسبة بحاثة أيضا.

انحنى (غاوس) نحوه مستفهما.

ـ يدرس اللغات القديمة.

– آها، قال (غاوس) لاويا شفتيه.

قال الدبلوماسي: كأن ظنه خاب.

اللغات! هز (غاوس) رأسه وقال إنه لا يريد التجرؤ على أحد.

ـ لا، لا، يمكنه قول رأيه بصراحة.

Twitter: @ketab_n

رفع (غاوس) كتفيه. وقال: إن هذا علم ينشغل به ناس يتحذلقون في الرياضيات، لكن ليس لديهم الذكاء الكافي له. ناس يخترعون منطقهم الخاص الضعيف.

صمت الدبلوماسي.

سأله (غاوس) عن رحلاته. لقد شاهد العالم كله بالتأكيد.

قال الدبلوماسي ممتعضا إن هذا هو أخوه. هذه ليست المرة الأولى التي يخلط فيها أحد بينهما. ودّع ومضى على عجل في خطوات قصيرة.

في الليل لم تدعه آلام الظهر والبطن ينام. تقلب في الفراش وصب الشتائم على قسمته، وعلى فايمار، وعلى (بيسيل) بشكل خاص. وفي فجر اليوم التالي، كان (بيسيل) مايزال نائما، طلب (غاوس) إعداد الخيل وأمر الحوذي بأخذه إلى غوتنغن مباشرة.

وصل الجامعة حاملا حقيبة السفر، متلويا نحو الأمام بسبب آلام البطن وإلى الخلف بسبب ظهره المتصلب، فسأل عن موعد البدء ببناء المرصد الفلكي.

قال الموظف: إنهم لا يسمعون حاليا الكثير من طرف الوزارة. هانوفر بعيدة جدا. لا يعرف شيئا أكيدا. إذا كان قد نسي، فإن الناس في حرب.

قال (غاوس): إن الجيش يملك سفنا، يجب توجيه هذه السفن، لهذا يحتاجون إلى خرائط للنجوم، وهذه لا يمكن رسمها بشكل جيد في مطبخ البيت.

وعده الموظف بنبأ قريب. وقال: إن الحكومة تخطط بالمناسبة لمسح جديد شامل في مملكة وستفاليا، لقد سبق أن عمل السيد البروفسور في المساحة. الحكومة تبحث عن محاسب نشط يشرف على عملية المسح.

فغر (غاوس) فمه. تمكن بكل ما فيه من قوة ألا يصرخ في وجه الرجل. أعاد غلق فمه ومضى دون تحية.

فتح باب البيت، ونادى أنه عاد، ولن يخرج من البيت أبدا. عندما كان يخلع حذاءه في الممر، خرج الطبيب والقابلة والحماة من غرفة النوم. طيب، لن يجعلهم يخرجوه هذه المرة. سأل متظاهرا بالاهتياج وعلى فمه ابتسامة عريضة إن كانت الأم قد ولدت؟ وإن كان الطفل ولداً أم بنتاً؟ وكم وزنه؟ هذا هو الأهم.

Twitter: @ketab_n

قال الطبيب: إنه ولد. يموت. كذلك الأم.

قالت القابلة إنهم بذلوا كل جهودهم.

لم تستطع ذاكرته أن تستجمع ما حدث بعد ذلك في وحدة متكاملة. كأن الزمن تقدم وتأخر بنفس اللحظة، كأن عدة احتمالات تبينت معا، ثم ألغى بعضُها بعضا. في إحدى الصور من ذاكرته كانت (يوهانا) تفتح عينيها في السرير وتنظر إليه نظرة لا تعرفه فيها. كان شعرها ملتصقا على وجهها، يدها رطبة، سلة الطفل بجانب كرسيه. في الصورة المناقضة، ما كانت (يوهانا) تعي شيئا عندما اقتحم الغرفة. في الصورة الثالثة كانت (يوهانا) قد ماتت عندما اقتحم الغرفة، كان جسدها شاحبا وشمعيا. في الصورة الرابعة كانت تجري معه نقاشا على أقصى درجة من الوضوح. سألته إن كانت ستموت؟ أومأ لها بعد لحظة من التردد، وطلبت منه ألا يحزن طويلا، الإنسان يعيش ثم يموت، هكذا هي الحياة. لم تستعد الحياة مجراها إلا بعد مرور ست ساعات على الظهيرة. كان جالسا إلى سريرها. كان ناس يتهامسون في الممر. كانت (يوهانا) ميتة.

دفع كرسيه للخلف وحاول أن يعتاد على فكرة اضطراره للزواج من جديد. عنده أطفال لا يعرف كيف يربيهم، لا يستطيع تدبير المنزل. الخدم يكلفون كثيرا.

فتح الباب بهدوء. فكر: هكذا إذا، انتهينا. سيكون عليه أن يعيش رغم أن الحياة انتهت. سيكون عليه أن يضع الخطط، أن ينظم الحياة كل يوم، كل ساعة وكل دقيقة. كأن هذه الأشياء مازالت تحتفظ بمعناها.

هدّأه وصولُ أمه قليلا. فكر في النجوم، في المعادلة القصيرة التي تحسب كل حركاتها معا في سطر واحد. للمرة الأولى أدرك أنه لن يجدها. ببطء حل الظلام. اتجه مترددا إلى المنظار.

Twitter: @ketab_n

بينما تحمل الريح المزيد من قطع الثلج حاول (ايميه بونبلاند) أن يكتب في ضوء المصباح الزيتي الخافت رسالة إلى البيت: عندما يسترجع ذكرى الأشهر الماضية، يبدو له أنه عاش عشرات المرات حيوات متشابهة كليا دون أن تكون أي حياة منها جديرة بالاستعادة. الرحلة إلى اورينوكو تبدو له كرحلة قرأ عنها في الكتب، الأندلس الجديدة أسطورة ممّا قبل التاريخ، اسبانيا مجرد كلمة. تحسنت حالته في هذه الأثناء، حتى إن بعض الأيام تخلو من الحمى، وكذلك صارت أقلّ الأحلام لديه تلك التي يخنق فيها البارون (هومبولدت)، أو يقطّعه، أو يطلق عليه النار، أو يحرقه، أو يسممه أو يدفنه تحت الأحجار.

فكر ومضغ نهاية ريشته. تحته قليلا على سفح الجبل، كان (هومبولدت)، متجمد الشعر مغطى بالثلج قليلا، يحاول تعيين موقع ما بمساعدة قمر المشتري وهو محاط بالبغال النائمة.

تابع (بونبلاند) الكتابة: غدا سيرتقون قمة خيمبورازو. ألح عليه البارون (هومبولدت) ناصحا ليكتب رسالة وداع احتياطا لموتهما لأنه، كما قال، لا يجدر بالإنسان أن يموت دون كلمة ختامية.

سيجمعون على الجبل عينات من الحجارة والنباتات. حيث توجد نباتات غير معروفة. لقد جمع الكثير منها في الأشهر الأخيرة. يزعم البارون وجود ستة عشر نوعا أساسيا فقط. وهو جيد في التعرف على الأنواع. بالنسبة إليه هو، (بونبلاند)، تبدو أنواع النباتات لا نهائية. القسم الأعظم من مستحضراتهم، بينها أيضا ثلاث جثث قديمة، شحنت في هافانا على ظهر سفينة مبحرة إلى فرنسا وعلى ظهر سفينة أخرى أرسلوا مجموعات النباتات المجففة وكل ما دونوه من مقالات إلى أخي البارون (هومبولدت)، هذا قبل ثلاثة أسابيع، وربما قبل ستة، فالأيام تمضي بسرعة كما أنه فقد إحساسه بالزمن. علموا أن إحدى السفن غرقت، الأمر الذي عكر صفو البارون (هومبولدت) عدة أيام، ثم قال لا بأس، فهما مازالا في بداية الرحلة. أمّا فيه، (بونبلاند)، فلم يؤثر غرق السفينة، فقد كانت الحمى مرتفعة حتى إنه لا يعرف أين هو ولماذا. قضى معظم وقته في الصراع مع الذباب،

Twitter: @ketab_n

والعناكب الميكانيكية في كوابيسه ويحاول ألا يستعيد ذكراها، كل ما يتمناه هو ألا تكون السفينة الغرقى هي المحملة بالجثث، فقد قضى معها كثيرا من الساعات حتى لم يعد يجد فيها بنهاية الرحلة النهرية مجرد حمولة بل رفقاء صامتين.

مسح (بونبلاند) عينيه، وتناول جرعة كبيرة من العلبة النحاسية. تابع الكتابة: كان لديه علبة فضية فقدها في ظروف لم يعد يتذكرها. «مازلنا في بداية رحلتنا». لاحظ أن الجملة وردت مرتين، فمسحها. «مازالت الرحلة في بدايتها». رفّت عيناه ومسح الجملة من جديد. وتابع، إنه للأسف لا يستطيع كتابة التفاصيل الدقيقة لرحلتهم، أحداثها مموهة، لا يرى منها إلا صورا لا يستطيع أن يجد رابطا بينها إلا بصعوبة. في هافانا مثلا حبس البارون (هومبولدت) تمساحين مع قطيع من الكلاب ليدرس سلوك التماسيح أثناء الصيد. كان صراخ الكلاب لا يطاق، كان كنحيب الأطفال. بعدها كانت جدران الغرفة ملطخة بدماء كثيرة بحيث أرغم البارون (هومبولدت) على دفع تكاليف إعادة دهانها.

أغمض عينيه، فتحهما من جديد، ونظر حوله متفاجئا، كأنه نسي للحظة أين يكون. سعل، وتناول جرعة كبيرة من علبته ثم تابع الكتابة: أوشكت سفينتهم أن تتحطم قرب كارتاجينا، كان العذاب الذي نالوه من البعوض على نهر الماجدلين أشد من عذابهم على نهر اورينوكو. بالنهاية ارتقوا آلاف الدرجات التي عمّرها شعب الاينكا المنقرض إلى مرتفعات الكورديليرا العالية. عادة ما يحمل الحمالون الناس، لكن البارون (هومبولدت) رفض أن يحمله بشر. بدافع من كرامة للإنسان. شعر الحمالون بالإهانة وكادوا يفتكون بهم. – شهق (بونبلاند) عميقا، ثم تنهد دون إرادة منه بصوت منخفض متقطع الأنفاس – كان أشراف سانتا في دي بوغوتا في استقبالهم على أبواب المدينة. يبدو أن سمعتهم سبقتهم. وتماما مثلما سمع الجميع باسم البارون (هومبولدت)، لم يسمع أحد باسم (ايميه بونبلاند). ربما هذا بسبب الحمى. – توقف عن الكتابة. بدت له الجملة الأخيرة غير منطقية. فكر في مسحها لكنه قرر العكس– كانوا نبلاء. انطلقت الضحكات عندما رفض البارون (هومبولدت) أن يضع مقياس الضغط من يده. كما استغربوا أن يكون رجل على كل هذه الشهرة قصيرا كل هذا القصر. سكنوا في دار عالم الأحياء (موتيس). كان البارون

Twitter: @ketab_n

يريد الحديث دائما عن النباتات و(موتيس) يكرر عليه أنه لا يليق به الحديث عن مواضيع كهذه في المجتمع. على كل حال، خفض هو، (بونبلاند)، درجة حرارته بمساعدة أعشاب (موتيس). كان (موتيس) يشغّل وصيفة شابة، هندية حمراء من المرتفعات، دخل معها – تناول جرعة كبيرة واستطلع نحو (هومبولدت) مقطب الجبين – في أحاديث رائعة عن هذا وذاك وذلك أيضا. – في هذه الأثناء فحص البارون (هومبولدت) مناجم ورسم خرائط – خرائط ممتازة. لا يشك في هذا.

أومأ عدة مرات دون إرادة منه ثم كتب إنهم تابعوا رحلتهم مع أحد عشر بغلا عبر النهر بمحاذاة مضيق جبلي. مطر كثير. الأرض كُلها وَحَل وأشواك وبما أن البارون (هومبولدت) أصر على ألا يحملهم الناس، كان عليهم السير حفاة حرصا على أحذيتهم. تقطرت الدماء من أقدامهم. وكانت البغال عنيدة. كفوا عن ارتقاء جبل (بيخينخا) عندما صرعه الغثيان والدوار. أراد البارون (هومبولدت) أن يتابع الصعود وحده إلا أنه أيضا فقد الوعي. ثم تمكنوا من العودة إلى الوادي. أعاد البارون المحاولة بمساعدة دليل لم يسبق له طبعا أن صعد القمة، ففي هذه البلاد لا يصعد الناس الجبال إذا لم يرغمهم أحد. نجحت المحاولة الثالثة وبهذا صاروا يعرفون ارتفاع الجبل تماما، وحرارة أبخرته، وعروق صخوره. البارون (هومبولدت) يهتم بالبراكين أكثر من أي شيء آخر. هذا ناشئ عن معلميه في ألمانيا ورجل في فايمار يحترمه كإله. والآن سيبدأان تاج عمليتهم، عملية (خيمبورازو). تناول (بونبلاند) آخر جرعة، وشد الغطاء على جسمه، ونظر إلى (هومبولدت) وبصعوبة رآه، كان يصغي إلى باطن الأرض عبر قمع نحاسي.

قال (هومبولدت) إنه سمع هديرا. انزياحات في القشرة الأرضية. بقليل من الحظ سيعايشان ثورة البركان.

هذا كل ما لديه، كتب (بونبلاند). طوى الرسالة، ودسها في جيبه، وتمدد على الأرض. شعر ببرودة الأرض المتجمدة على وجنته. أحس أنها تخفض الحمى.

نام كما ينام دائما، وحلم كما يحلم كثيرا أنه في باريس، ذات صباح خريفي، المطر يطرق بِرقّةٍ على زجاج النافذة. سألته امرأة لا يعرفها إن كان قد صدق فعلا إنه يسافر عبر

Twitter: @ketab_n

الغابات الاستوائية وأجاب هو: ليس فعلا، وإذا صدق الأمر فليس لأكثر من لحظة. ثم استيقظ لأن (هومبولدت) هز كتفه وسأله: ماذا ينتظر؟ فالساعة تجاوزت الرابعة وعليهم الانطلاق. نهض (بونبلاند). وعندما استدار (هومبولدت) أمسكه، طرحه أرضا، جره إلى الحافة ودفعه إلى الهاوية بكل قوة. هز أحدهم كتفه وسأله: ماذا ينتظر؟ فالساعة بلغت الرابعة وعليهم الانطلاق. مسح (بونبلاند) جفنيه، أبعد الثلج عن شعره ونهض.

تطلع فيهما الأدلاء ناعسين. سلمهم (هومبولدت) مظروفا مختوما. رسالة الوداع إلى أخيه. كان دقيقا جدا في كتابتها. قال موجها الكلام إلى الأدلاء: إذا لم يعد، يرجوهم أن يسلموا الرسالة إلى إرسالية اليسوعيين.

وعده الأدلاء متثائبين.

قال (بونبلاند) إن هذه هي رسالته، إنها غير مغلقة، ليقرؤها إذا شاءوا، وإذا لم يسلموها أيضا فليفعلوا ما يريدون.

أمر (هومبولدت) الأدلاء أن ينتظروهم ثلاثة أيام على الأقل، فأومأوا له بملل، وعدلوا أرديتهم الصوفية. توثق هومبولدت من الكرونومتر والمنظار. شبك ذراعيه وحدق بنظرة متصلبة في اللاشيء. ثم سار فجأة. بعجلة، مَدّ (بونبلاند) يده إلى صفيحة جمع النباتات والعكاز، وسار خلفه.

منبسط الأسارير كما لم يره (بونبلاند) من قبل، روى (هومبولدت) عن طفولته، وعن العمل في مانع الصواعق، والمشاوير التي قضاها وحيدا في الغابة ورتب بعدها أولى مجموعات الجعلان، وصالون (هنرييته هرتز). قال إنه يأسف على كل إنسان لم تتشكل أحاسيسه بهذه الطريقة.

قال (بونبلاند) إن أحاسيسه تشكلت مع ابنة فلاّح من الجيران. كانت تسمح بكل شيء تقريبا. كل ما عليه أن يفعله كان أن يحذر إخوتها.

قال (هومبولدت) فجأة إنه غير قادر على نسيان الكلب. لم يستطع حتى الآن التخلص من عذاب الضمير. كان مسؤولا عن الحيوان.

ـ ابنة الفلاح كانت مدهشة، تتقن حتى قبل أن تبلغ الرابعة عشرة فنونا لا يتخيلها عقل.

Twitter: @ketab_n

ـ مشاعره تجاه الكلاب في هافانا كانت مختلفة. طبعا تحسر عليها هي أيضا، لكن العلم تطلب ذلك، هكذا صار المرء يعرف المزيد عن سلوك التماسيح في الصيد. ثم إنها كانت كلابا هجينة، غير كريمة المحتد، وشبه برية.

لم تكن هناك نباتات حيث يسيران. إنها عروق بنية صفراء على الحجارة المطلة من تحت الثلج. سمع (بونبلاند) بكل وضوح نبضات قلبه، وفحيح الرياح التي تتلاعب فوق الغطاء الثلجي. ارتعب عندما طارت أمامه فراشة صغيرة.

جاء (هومبولدت) متقطع الأنفاس على نبأ سقوط، سقوط (اوركيخو) من مركزه. شيء رهيب. مازالت الحكاية في دائرة الإشاعات، لكن الإشارات على أن الوزير فقد حظوة الملكة تتكاثر. هذا يعني عقودا أخرى من الرق والعبودية. سيكتب بعد عودتهما مقالات لن تعجب هؤلاء الناس.

ارتفع الثلج أكثر فأكثر. تزحلق (بونبلاند) وانزلق نحو الأسفل، بعد قليل حدث الأمر نفسه لـ (هومبولدت). ولكي يحميا أيديهما المتشققة من البرد غطياها باللفاحات. راقب (هومبولدت) الكعب الجلدي لحذائه. قال متفكرا: المسامير، لو وجهت من الكعب نحو الأسفل! هذا ما يحتاجانه الآن.

بلغ الثلج ركبهما. وفجأة حاصرهما الضباب. فقاس (هومبولدت) ميل العقرب المغناطيسي، وحدد ارتفاعهما بوساطة مقياس الضغط. قال إنه إذا لم يكن مخطئا فإن أقصر الطرق إلى القمة تمر في الشمال الشرقي عبر السفح المنبسط. ثم قليلا إلى اليسار، ثم صعود مائل نحو الأعلى.

الشمال الشرقي، كرر (بونبلاند). في الضباب لا يعرف المرء حتى أين القمة وأين الوادي؟

– هناك، قال (هومبولدت) مشيرا بكل تصميم إلى ناحية معينة.

منحيي الظَهْر ارتقيا الجدرانَ الصخرية المتصدعة، المتحولة إلى أعمدة. كان فوقهما حافة مغطاة بالثلوج تقود إلى القمة، تظهر لحظات ثم تختفي. فانحرفا إلى اليسار حيث السفح منحدر وصقيل كالمرآة. فظهرت لهما الهاوية. في البداية لم يلاحظ (بونبلاند)

Twitter: @ketab_n

الرجل الذي يخوض الثلج بجانبهما حزينا يرتدي السواد. وعندما تحول إلى شكل هندسي، إلى قرص عسل ينبض بضعف، شعر ببعض القلق.

سأل: هناك يسارا، هل هناك شيء ما؟

نظر (هومبولدت) نظرة قصيرة إلى الناحية التي أشار إليها وقال: لا.

– جيد، قال (بونبلاند).

قاما باستراحة على منصة صخرية ضيقة لأن أنف (بونبلاند) لم يكف عن الرعاف. نظر قلقا إلى قرص العسل المتقدم نحوهما ببطء. سعل وتناول جرعة من العلبة النحاسية. عندما خف الرعاف تابعا السير وشعرا بالراحة. أشارت لهما ساعة (هومبولدت) أنهما لم يسيرا إلا ساعات قليلة. كان الضباب على درجة عالية من الكثافة، بحيث لم يكن هناك فرق بين فوق وتحت. حيثما ينظران كان البياض ذاته الذي لا يعكر صفوه شيء.

بلغ الثلج وركيهما. أطلق (هومبولدت) صرخة، وغاص في الثلج المتكوم. حفر (بونبلاند) بيديه حتى لمس معطفه وجره نحو الأعلى. نفض (هومبولدت) الثلج عن ثيابه، وتوثق من عدم تَعَطُّل الأجهزة. انتظر على بروز صخري حتى خف الضباب قليلا وسمح بمرور بعض النور. حالا ستظهر الشمس.

«صديقي العزيز»، قال (هومبولدت) إنه لا يريد أن يصبح عاطفيا، لكن بعد هذه الرحلة الطويلة التي قضياها معا. في هذه اللحظة الحاسمة عليه أن يبوح بالتالي.

أصغى إليه بونبلاند، لكن لم يسمع المزيد. بدا وكأن (هومبولدت) نسي الأمر.

قال (بونبلاند) إنه لا يريد أن يفسد العملية، لكن هناك خطأ ما. على يمينهم، لا، أبعد قليلا، لا على اليسار، صحيح، هناك. ذلك الشيء الذي يبدو كنجمة من شمع أو كخلية نحل. لن يكون مخطئا إذا قال: إن هذا الشيء يظهر له وحده؟

أومأ (هومبولدت) موافقا.

تساءل (بونبلاند) إن كان عليه أن يخاف على عقله؟

قال (هومبولدت): حسب. هذا ناتج بالتأكيد عن الضغط المنخفض، وتغير تركيب الهواء. يمكن التخلي عن الأفكار الشريرة. بالمناسبة، ليس هو الطبيب هنا.

Twitter: @ketab_n

– من إذن؟

قال (هومبولدت): إن انخفاض كثافة هواء البحر –كلما صعد المرء أعلى– شيء خلاب. إذا أجرى حسابا نهائيا سيستنتج أين يبدأ العدم. أو أين يبدأ الدم بالغليان في الشرايين بسبب انخفاض نقطة الغليان. فيما يتعلق به شخصيا، فإنه ومنذ ساعات يرى الكلب الضائع. يبدو مشعثا وينقصه ساق وأذن، علاوة عليه فإنه لا يغوص في الثلج. عيناه تبدوان سوداوين جدا وميتتين. ليس ما يراه منظرا جميلا، عليه أن يتماسك بكل صلابة حتى لا يصرخ. وما يشغل باله دائما، هو أنهما لم يعطيا الحيوان اسما. لكن هذا لم يكن ضروريا، فلم يكن عندهما إلا هذا الكلب. وإلا؟

قال (بونبلاند) إنه لا يتذكر كلبا آخر.

أومأ (هومبولدت) مطمئنا وتابعا الصعود. بسبب الشقوق في الصخور تحت الثلج كان عليهما السير ببطء شديد. مرة فتح الضباب مجال الرؤية أمامهما عدة ثوان، كشف لهما عن واد عميق، ثم انغلق عليه من جديد. قال (هومبولدت) مؤنبا نفسه: اللعنة على نزيف اللثة هذا، هذه ليست حالا، عليه أن يخجل من نفسه.

كما أن أنف (بونبلاند) بدأ بالرعاف من جديد ولم يعد في يديه إحساس رغم لفهما باللفاع. رجا المعذرة، وسقط على ركبتيه وتقيأ.

تسلقا جرفا منحدرا بحذر. تذكر (بونبلاند) يوم ظلا محجوزين في نهر اورينوكو تحت المطر على الجزيرة. كيف نَجَوَا هناك؟ لم يتذكر. في ذات اللحظة، عندما أراد أن يسأل (هومبولدت)، تدحرجت حصية من تحت حذاء هذا وارتطمت بكتف (بونبلاند). آلمته الضربة بحيث كاد يسقط عن الجرف. تقلصت سحنته، ومسح وجهه بالثلج. شعر بعدها بالتحسن. رغم أن قرص العسل النابض ظل معلقا قربه. العذاب الأكبر كان في أن الجرف العمودي يبتعد قليلا إلى الوراء كلما أراد التمسك به.

كانت تتطلع إليه بين الحين والآخر. من بين الصخور وجوه عليها تعابير من يشعر بالملل أو التقزز. لحسن الحظ جعل الضباب النظر إلى الأسفل مستحيلا.

هتف آنذاك على الجزيرة، كيف خرجا منها؟

Twitter: @ketab_n

لم يأته جواب. حتى أن بونبلاند نسي السؤال عندما التفت إليه (هومبولدت): بحق السماء لا يعرف، فعلاً كيف؟

تشتت الضباب فوق الجرف المنحدر. شاهدا قطعا زرقاء من السماء وقمة الجبل. كان الهواء البارد رقيقا جدا. ومهما شهق المرء عميقا ما كان يحصل على كم كاف من الهواء في رئتيه. حاول (بونبلاند) أن يقيس نبضه، لكنه أخطأ في العد المرة تلو الأخرى، حتى استسلم وكف عن المحاولة. دخلا ممرا ضيقا مغطى بالثلج يقود عبر فالق في الصخر.

قال (هومبولدت) إن عليه النظر إلى الأمام، عليه ألا ينظر أبدا إلى الأسفل.

وفورا نظر (بونبلاند) إلى الأسفل. كأن الجهات تتموه، اتجه قعر الوادي نحوه، أسرع الممر إلى الأسفل. مرتعباً فتمسك بعكازه.

– الجسر! تأتأ.

– تابع! قال (هومبولدت).

– ليس من الصخر. قال (بونبلاند).

ظل (هومبولدت) واقفا. حقا لم يكن ما تحتهم صخرا. كانا واقفين على قنطرة من الثلج معلقة في الهواء. حدّق نحو الأسفل.

قال (بونبلاند) عليه ألا يفكر، أن يتابع نحو الأمام.

– تابع! كرر (هومبولدت) دون أن يتحرك من مكانه.

– ببساطة تابع نحو الأمام، قال (بونبلاند).

بدأ (هومبولدت) السير.

وضع (بونبلاند) قدما أمام الأخرى. سمع تقصف الثلج لساعات طويلة، وأدرك أن لا شيء ما بينه وبين الهاوية سوى حبيبات الماء المتجمدة. تمكن حتى نهاية حياته، وهو عاجز، وحبيس العزلة في باراغواي، من استعادة صور هذا الموقف بأدق تفاصيلها: السحب المتليفة، والهواء المضيء، والوادي في أقصى زاوية الرؤية. حاول أن يدندن بأغنية، لكن الصوت الذي سمعه لم يكن صوته. وهكذا كف عن الغناء. الهاوية، والقمة، والسماء والثلج المتقصف ومازالا على الطريق لم يصلا. ثم لم يصلا. ثم وصلا بشكل من الأشكال

Twitter: @ketab_n

إلى الجهة الأخرى، حيث كان (هومبولدت) ينتظره مادا له يده.

– (بونبلاند)! قال (هومبولدت). بدا قميئا، أشيب وعجوزا فجأة.

– (هومبولدت)! قال (بونبلاند).

ظلا متجاورين وصامتين لحظة. ضغط (بونبلاند) المنديل على أنفه الدامية. شيئا فشيئا، على شكل لمحات في البداية، ثم أكثر وضوحا، عاد قرص العسل النابض للظهور. كان طول الجسر الثلجي لا يتجاوز عشرة أقدام، خمسة عشر قدماً في أقصى حد. لن يكون السير فوقه قد دام أكثر من ثوان.

سارا بمحاذاة القمة وهما يجسان الأرض تحتهما جسا. بدا لـ (بونبلاند) كأنه يتكون من ثلاثة أشخاص: شخص يسير، وشخص ينظر إلى السائر، وشخص يعلق على كل ما يجري دون توقف بلغة لا يفهمها أحد. صفع وجهه في محاولة لاستعادة صفاء ذهنه. ساعدته الصفعة قليلا، وفكر عدة لحظات تفكيرا أوضح. لكن هذا لم يغير شيئا في أن الأرض معلقة هناك، حيث يجب أن تكون السماء، وأنهما يتقدمان بالعكس، أي رأسا على عقب.

قال (بونبلاند) بصوت عال: لكن هذا المشهد صحيح، فهما على الناحية الأخرى من العالم.

لم يفهم جواب (هومبولدت)، الذي غطت عليه دمدمة المُرافِق المُعلِّق. بدأ (بونبلاند) بالغناء. غنى معه المرافقان واحدا بعد الآخر. كان قد تعلم الأغنية في المدرسة ومن غير المعقول أن يعرفها أحد في هذه الناحية من الأرض. هذا برهان قاطع على أن المرافقين شخصان حقيقيان وليسا خداعا بصريا وإلا فمن أين تعلما الأغنية؟ أدرك وجود شيء غير منطقي في هذه الأفكار، إلا أنه لم يكتشف ما هو. بالنتيجة صار كل شيء سيان عنده، حيث لم يكن بيده ما يضمن له أنه هو من يفكر وليس أحد المرافقين الآخرين. كان تنفسه قصيرا وعاليا وقلبه يخفق بشدة.

توقف (هومبولدت) بغتة. وصرخ فيه (بونبلاند) غاضبا: ماذا هناك؟

سأله (هومبولدت) إن كان يرى ما يراه؟

– طبعا، قال (بونبلاند) دون أن يعرف ما يعنيه (هومبولدت).

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت) إنه مضطر للسؤال، فهو لم يعد يثق بحواسه، وعدا ذلك فالكلب يدخل المشهد دائما.

قال (بونبلاند) إنه لم يطق الكلب أبدا.

– سأل (هومبولدت): هذا الوادي، هنا واد، أليس كذلك؟

نظر (بونبلاند) إلى الأسفل. أمام قدميه هوت حجرة في واد يتجاوز عمقه أربعمائة قدم. على الطرف الآخر كان لهما متابعة الطريق، ومن هناك لاحت القمة غير بعيدة.

– لن يتمكنا من العبور إلى الناحية الأخرى أبدا.

ارتعب (بونبلاند) لأن من قال هذا لم يكن هو، إنما الرجل عن يمينه وحتى يكون للكلام صلاحيته كان عليه أن يعيد الجملة. لن يتمكنا من العبور إلى الناحية الأخرى أبدا.

أكد الرجل عن يساره: مطلقا، إلا إذا طارا.

نزل (هومبولدت) ببطء على ركبتيه وكأن هناك قوة عطالة تمنعه من النزول، وفتح الصندوق الذي يحوي مقياس الضغط. كانت يداه ترتجفان بشدة حتى كاد مقياس الضغط يسقط منهما. كان الدم قد بدأ يخرج من أنفه أيضا، ويتقطر على سترته. قال خاشعا: بالله لا تقم الآن بخطأ.

– بكل سرور، قال (بونبلاند).

بشكل من الأشكال تمكن (هومبولدت) من إشعال نار، وتسخين الماء في قدر صغير. قال ليبرّر تصرفاته إنه لا يثق بمقياس الضغط، ولا برأسه. عليه أن يحسب الارتفاع اعتمادا على نقطة الغليان. كانت عيناه قد ضاقتا من شدة التركيز. عندما غلى الماء قاس الحرارة وقرأ الساعة. ثم أخرج دفتر ملاحظاته. ثَنَى عدة أوراق حتى أطاعته يده في كتابة الأرقام.

نظر (بونبلاند) إلى قعر الوادي بحذر. كانت السماء ثقيلة ومعلقة تحتهما. لقد استطاع التعود على الوقوف على رأسه، لكنه لم يتعود على أن يحسب (هومبولدت) بهذا البطء. لهذا سأله بضيق صدر إن كان سينهي حساباته اليوم.

قال (هومبولدت) إنه يرجو المعذرة، من الصعب عليه استجماع أفكاره. ألن يربط أحد الكلب إلى السير؟

Twitter: @ketab_n

قال (بونبلاند) إنه لم يطق الكلب أبدا. خجل من نفسه فورا لأنه سبق له أن قال هذا. كان خجله شديدا حتى شعر بالغثيان. انحنى نحو الأمام وتقيأ من جديد.

قال (هومبولدت): انتهينا. والآن يرجو السماح له بإخباره أنهما يقفان على ارتفاع 18690 قدما.

– قال (بونبلاند): هلّلوا يا.

– هذا يجعلهم أول من وصل إلى هذا الارتفاع. لم يرتفع قبلهما أحد هذا الارتفاع عن سطح البحر.

– لكن القمة؟

– مع أو بدون قمة، هذا رقم قياسي.

قال (بونبلاند) إنه يريد ارتقاء القمة.

–صرخ (هومبولدت): ألا يرى الهاوية؟ لم يعودا يملكان حواسهما. إذا لم ينزلا الآن فلن يرجعا أبدا.

قال (بونبلاند) يمكنهما ببساطة الادعاء بأنهما بلغا القمة.

قال (هومبولدت) إنه سيعتبر أنه لم يسمع هذا.

– وهو أيضا لم يقله، هذا ما قاله الشخص الآخر.

قال (هومبولدت) متفكرا: لكن لن يختبر أحد زعمهما.

قال (بونبلاند): هذه هي.

هتف (هومبولدت) إنه لم يقل هذا.

–سأل (بونبلاند): لم يقل ماذا؟.

نظر كل منهما إلى صاحبه في حَيرة.

ثم قال (هومبولدت): إن الارتفاع قد ضبط، عينات الحجارة جمعت، والآن بسرعة نحو الأسفل.

دام النزول طويلا. كان عليهما أن يقوما بدورة طويلة حول الوادي الذي عبراه على الجسر الثلجي، لكن الرؤية كانت واضحة، ووجد (هومبولدت) الطريق دون صعوبات.

Twitter: @ketab_n

سار (بونبلاند) خلفه وهو يتعثر. لم يعد يثق بركبتيه. كان يتصور أنه يسير في مياه جارية. حرف انكسار الضوء قدميه بأسوأ صورة. كما أن عكازه قام بحركات غير لائقة. كان ينوس، ينغرس في الثلج، يتحسس الصخور دون أن يقدر (بونبلاند) على شيء. كانت الشمس قد انخفضت. تزحلق (هومبولدت) في سهل من الحصى، تجرحت يداه ووجهه، تمزق معطفه، إلا أن مقياس الضغط ظل سليما.

قال (هومبولدت) وهو يصر على أسنانه: إن للألم أيضا حسناته. فأفكاره في هذه اللحظة أكثر وضوحا. اختفى الكلب من ذهنه.

قال (بونبلاند) إنه فعلا لم يطق الكلب نهائيا.

قال (هومبولدت) إن عليهما الوصول إلى الأسفل اليوم. فالليل سيكون باردا. هما تائهان، ولن يبقيا على قيد الحياة. بصق دما. وهو يأسف على الكلب. لقد أحبه.

قال (بونبلاند): بما أنهما متصارحان في هذه اللحظة، ويمكنهما غدا أن يضعا ذنب كل أقوالهما على مرض الأعالي، فإنه يريد أن يعرف ما فكر فيه (هومبولدت) هناك، على الجسر الثلجي.

قال (هومبولدت) إنه أمر نفسه بعدم التفكير،. وهكذا فلم يفكر بأي شيء.

ـ فعلا لا شيء؟

ـ ولا ذرة تفكير.

نظر (بونبلاند) نحو قرص العسل الذي بدأ يختفي تدريجيا. كان اثنان من مرافقيه قد اختفيا. لكن مازال عليه التخلص من الشخص الثالث. وربما لم يكن هذا ضروريا أصلا. كان يشك في أن يكون هذا الشخص الثالث هو ذاته.

قال (هومبولدت) إنهما صعدا معا أعلى جبال العالم. الأمر الذي سيخلد ذكرهما مهما حدث في حياتهما.

قال (بونبلاند) إنهما لم يصعداه تماما.

ـ حماقة.

ـ من يصعد جبلا، يصل إلى قمته. من لم يصل إلى القمة لم يصعد الجبل.

Twitter: @ketab_n

تملى (هومبولدت) يديه الداميتين صامتا.

قال (بونبلاند) إنه هناك على الجسر، تحسر فجأة أن يكون هو الثاني.

قال (هومبولدت): إن طبيعة الإنسان هي هكذا.

– لكن ليس لمجرد أن الأول يصل أسرع إلى بر الأمان. فقد طرأت على مخيلته أفكار غريبة. لو كان هو الأول لقام شيء ما فيه بتدمير الجسر حالما عبره. كانت تلك الرغبة قوية جدا.

لم يُجب (هومبولدت). بدا غارقا في أفكاره الخاصة.

آلم (بونبلاند) رأسه، كما جاءته الحمى من جديد. كان التعب قد أرهقه. قال، سيمر وقت طويل قبل أن يرتاح من هذا اليوم. من يسافر بعيدا يتعلم أشياء كثيرة، بعضها عن نفسه.

رجا (هومبولدت) المعذرة، وقال إنه لم يفهم شيئا للأسف. الريح!

صمت (بونبلاند) عدة ثوان. قال شاكرا: غير مهم، ثرثرة، هراء.

قال (هومبولدت) جامد القسمات: إذن، فلا داعيَ للتكاسل.

بعد ساعتين وصلا حيث ينتظرهم الأدلاء. للفور طلب (هومبولدت) استعادة رسالته ومزقها. قال: يجب ألا يهمل المرء هذه الأشياء. لا شيء يبعث على الخجل أكثر من رسالة وداع مازال كاتبها حيا.

قال (بونبلاند) إن الحياة كلها سواء عنده. أمسك رأسه التي تؤلمه وقال يمكنهم أن يحتفظوا برسالته أو يرموها، كما يمكنهم أن يرسلوها إذا أرادوا.

في الليل كتب (هومبولدت)، الذي كان متكوما على نفسه تحت غطاء محتميا من الثلج، عشرات الرسائل أعلم فيها أوروبا أنه الإنسان الوحيد الذي بلغ أعلى مكان في العالم. بعناية فائقة أغلق كل رسالة على حدة. ولم يفقد الوعي إلا بعدها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في وقت متأخر من المساء طرق البروفسور باب رب البيت. فتح خادم شاب نحيل الباب وقال: إن الغراف (فون دير اوهه تسور اوهه) لا يستقبل الضيوف.

رجاه (غاوس) أن يكرر الاسم.

فعلها الخادم: الغراف (هينريش فون دير اوهه تسور اوهه).

لم يتمالك (غاوس) نفسه عن الضحك.

تطلع فيه الخادم وعلى وجهه تعبير من وطأ كومة من روث البقر وقال: هذا هو اسم عائلة السيد كريم المحتد منذ آلاف السنين.

قال (غاوس): إن ألمانيا رقعة مسلية فعلا. وأضاف أنه على كل حال قادم بشأن المساحة، يجب إزالة بعض العوائق، والحكومة مضطرة لشراء بعض الأشجار من السيد ... ضحك (غاوس). الحكومة مضطرة لشراء بعض الأشجار، ومخزن خشب عديم القيمة من السيد الغراف. مسألة شكلية، يمكن إنجازها بسرعة.

قال الخادم: ربما، لكن بالتأكيد ليس مساء اليوم.

نظر (غاوس) إلى حذائه المتسخ. ثم قال هذا ما كان يخشاه. طيب، إذا سيقضي ليلته هنا، عليهم أن يُعِدوا له غرفة للنوم.

قال الخادم إنه لا يعتقد أن لديهم مكانا خاليا.

رفع (غاوس) قبعته المخملية، مسح جبينه وتلمس ياقته. شعر بالغثيان والتعرق. آلمته معدته. قال: هذا سوء فهم، فهو لم يأت ليتسول، إنه مدير اللجنة الوطنية للمساحة وإذا طرد من عتبة الباب فإنه سيرجع مع رفقة. مفهوم؟

تراجع الخادم خطوة إلى الوراء.

ـ مفهوم؟

– نعم، قال الخادم.

– نعم أيها السيد البروفسور، قال (غاوس).

ـ نعم أيها السيد البروفسور، كرر الخادم.

Twitter: @ketab_n

ـ والآن يريد رؤية الغراف.

عقد الخادم حاجبيه بشدة بحيث تجعد كل جبينه. وقال إنه ربما لم يكن واضحا في كلامه. السيد كريم المحتد انسحب إلى مخدعه. إنه نائم.

–قال (غاوس): لحظة واحدة فقط.

هز الخادم رأسه رافضا.

ـ النوم ليس قضاء وقدرا، يمكن إيقاظ النائم. كلما أطال وقوفه على الباب كلما تأخر الغراف في العودة إلى السرير، كما أن وقوفه على الباب لا يساهم في تحسين مزاجه الشخصي. إنه ككلبٍ تَعِبٍ.

بصوت مبحوح رجاه الخادم أن يتبعه.

حمل الشمعدان وسار بسرعة كأنه يأمل أن يهرب من (غاوس). ما لم يكن صعبا، فقد كانت قدما (غاوس) تؤلمانه، كان جلد حذائه قاسيا، بشرته تحكه تحت القميص الصوفي والحرقة في رقبته دليل على إصابته بلسعة شمس جديدة. دخلا ممرا منخفضاً مغطى بورق جدران مصفر. مرت خادمة جميلة القد وهي تحمل مبولة، نظر (غاوس) في إثرها متحسرا. نزلا درجا، ثم صعدا آخر ونزلا من جديد. كان هدف الممرات التشويش على الضيوف، الأمر الذي يجري أغلب الظن لأناس ليس لديهم مخيلة هندسية. قدّر (غاوس) أنه في حوالي اثني عشر قدما فوق وأربعين قدما غرب البوابة الرئيسية وأنهما يتوجهان نحو الجنوب الغربي. طرق الخادم على باب، فتحه، نطق عدة كلمات في الفراغ وسمح لـ (غاوس) بالدخول. كان عجوز جالسا في كرسي هزاز يرتدي ثوب النوم وفي قدميه قباقيب. كان ضخما، وخداه عميقتين، وعيناه بارزتين.

ـ (فون دير اوهه تسور اوهه)، تشرفنا.... لماذا تضحكون؟

قال (غاوس) إنه لا يضحك. إنه مساح الأراضي الحكومي. إنه لا يضحك أبدا، وكل ما يريده هو التعريف بنفسه والشكر على الضيافة الكريمة.

سأل الغراف إن كان قد أيقظه لهذا السبب.

قال (غاوس): بالضبط لهذا السبب، والآن يتمنى للغراف ليلة سعيدة. ولحق بالخادم

Twitter: @ketab_n

بنفس راضية لحق بالخادم في نزول درج آخر والدخول في ممر خانق. فكر أن هؤلاء الناس لن يعاملوه بعد اليوم كحيوان أليف.

لم تستمر نشوة الانتصار طويلا. قاده الخادم إلى جحر مرعب ونتن، لا يحوي مرحاضا، على أرضيته بقايا قش متعفن، فيه عارضة خشبية مكان السرير ودلو يحوي ماء عكرا.

قال (غاوس) إنه سبق له أن شاهد في حياته الكثير. قبل أسبوعين أنامه فلاح في كوخ كلب، لكنه كان أجمل من هذا الجحر.

قال الخادم وهو يذهب: ربما، لكن ليس عندهم مكان آخر.

أرغم (غاوس) نفسه متنهداً على التمدد على العارضة الخشبية. كانت المخدة قاسية ورائحتها كريهة. وضع عليها قبعته لكن هذا لم يمنع نفاذ الرائحة. ظل يقظا لفترة طويلة. آلمه ظهره، كان الهواء فاسدا، خاف من الأشباح، افتقد (يوهانا)، كما يفتقدها كل مساء.

غفل لحظة عن مجرى الحياة لتعاسته فباغتته الوظيفة اللعينة. تنقل بين الغابات، وساوم الفلاحين على أثمان أشجارهم المائلة. اليوم ظهرا دفع خمسة أضعاف ثمنا لشجرة بتولا قديمة. دام الأمر طويلا حتى نشر مساعدوه الجذع العنيد وتمكن هو من تحديد موقع الإشارات المتوهجة في يد (اوجين) بوساطة المزواة. طبعا في البداية أشار الحمار إلى الجهة الخطأ. غدا سيلتقون، وسيكون عليه أن يجد وسيلة للوصول من هناك إلى العقدة التالية في مستقيمين في أقصى حد.هذه صارت مهنته. نشر كتابه عن الفلك منذ عهد بعيد، أعطته الجامعة إجازة. على الأقل كان أجر العمل جيدا وإذا لم يكن المرء غبيا سيستطيع كسب مبالغ إضافية بطرق ملتوية. نام على هذه الفكرة.

في الصباح الباكر أيقظه حلم معذب. فرأى نفسه مستلقيا على العارضة الخشبية يحلم أنه مستلق على العارضة الخشبية حالماً أنه مستلق على العارضة الخشبية. استيقظ منقبض الصدر، وعرف للفور أنه سيستيقظ، ثم تدرج خلال ثوان من واقع لآخر ثم لواقع آخر ولم ير في جميع الوقائع إلا نفس الغرفة القذرة بالتبن على الأرض وسطل الماء العكر في الزاوية. مرة وقف في الباب شخص طويل يرتدي السواد، مرة شاهد كلبا ميتا في الزاوية، ثم دخل طفل يرتدي قناعا خشبيا لكنه اختفى فجأة قبل أن يراه بوضوح. عندما جلس

Twitter: @ketab_n

أخيرا على حافة السرير بعد كل هذه المعاناة، ونظر إلى سماء الصباح المشمسة لم يتخلص من الشعور بأنه غير بعيد عن ذلك الواقع الذي حلم به إلا قيد شعرة. رش ماء باردا على وجهه وفكر في (اوجين) الذي سيلتقيه بعد الظهر. عادة كان مزاجه يروق عندما يصرخ فيه. ارتدى ثيابه وخرج متثائبا.

رأى في الحجرات التي اجتازها لوحات من عوالم ماضية، ألوانها سميكة جدا وعليها رجال جادون متصلبو الوجه. وأثاثا من الخشب المبقع، وغبارا متراكما. وقف مفكّراً أمام مرآة، لم يعجبه ما رآه فيها. فتح بعض الأدراج. كانت فارغة. وعندما شاهد قضبان باب يؤدي إلى الحديقة ارتاح قليلا.

كانت الحديقة منسقة بعناية فائقة. فيها أشجار نخيل، واوركيديا، وبرتقال، وشجيرات صبار بأشكال غريبة ونباتات كثيرة لم يرها (غاوس) حتى في الصور. صَرّ الحصى تحت حذائه، علقت قبعته بنبتة متسلقة، وسقطت أرضا، وهبت رائحة طيبة، كانت هناك ثمار متفتقة مرمية على الأرض. صار النبات أكثف، والممر أضيق واضطر للسير منحنيا. يا له من تبذير. رجا ألا توجد أيضا حشرات غريبة. عندما انزلق بين جذعي نخلة تعلقت سترته بها، وكاد يتعثر بنبات شوكي. ثم دخل مرجا. بشعر أشعث وأقدام عارية كان الغراف جالسا في كرسيه يشرب الشاي وهو لا يزال في ثوب النوم.

–قال (غاوس): مدهش.

قال الغراف إنها كانت في السابق أجمل بكثير. أجور النواطير باهظة اليوم، كما أن إيواء الفرنسيين خرب الكثير. لم يعد إلى هنا إلا منذ عهد قريب. كان في سويسرا، مهاجرا، والآن تغيرت الأحوال مؤقتا. ألا يرغب السيد مساح الأراضي في الجلوس؟

نظر (غاوس) حوله. لم يكن هناك إلا كرسي واحد وفي هذا الكرسي كان الغراف جالسا.

–قال متردداً: ليس ضروريا.

قال الغراف: طيب. يمكنه الآن أن يدخل الموضوع.

قال (غاوس): إنها مجرد مسألة شكلية. فَلِكَيْ يكون مجال الرؤية حتى شارنهورست

Twitter: @ketab_n

مفتوحا عليه أن يحتطب ثلاثة أشجار من غابة الغراف ويزيل مخزنا للخشب يبدو أنه فارغ منذ سنوات.

ـ شارنهورست! لا يمكن لإنسان أن يرى على هذه المسافة.

قال (غاوس): بلى، مادام المرء يستخدم حزمة ضوئية. لقد ابتكر جهازا يرسل إشارات ضوئية عبر مسافات لا يمكن تصورها. وبهذا يمكن للمرة الأولى التفاهم بين الأرض والقمر.

–كرّر الغراف: الأرض والقمر.

أومأ (غاوس) مبتسما. شاهد ما يجري في رأس العجوز الغبي.

قال الغراف إنه يخطئ التقدير فيما يتعلق بالأشجار والمخزن. فهم في أشد الحاجة إلى المخزن والأشجار عالية القيمة.

تنهد (غاوس). تمنى لو يجلس. كم اضطر إلى الخوض في أحاديث كهذه. قال تعبا: طبعا، لكن يجب عدم المبالغة. فهو يعلم جيدا ثمن كوخ وعدة قطع من الخشب، في مثل هذه الأوقات العصيبة يجب ألا يثقل المرء على كاهل الدولة.

قال الغراف: الوطنية. مثير، خاصة إذا طالب بها شخص كان موظفا فرنسيا حتى عهد غير بعيد.

حدّق فيه (غاوس).

رشف الغراف الشاي ورجا أن يكون فهمه صحيحاً، إنه لا يلوم أحدا. كانت أوقاتا عصيبة وعمل كل واحد حسب إمكاناته.

قال (غاوس) إن (نابليون) لم يقصف غوتنغن تكريما له.

أومأ الغراف موافقا. لم يبد متفاجئا. وقال: لم يجد كل واحد حظوة لدى ابن كورسيكا.

–قال (غاوس): كما ندر أن أنجز أحد ما أنجزه هو.

نظر الغراف إلى فنجانه غارقا في أفكاره: على كل حال يبدو أن السيد مساح الأراضي لا تنقصه الخبرة كما يتظاهر.

Twitter: @ketab_n

سأل (غاوس): كيف له أن يفهم هذا؟

ـ يظن أن السيد مساح الأراضي سيدفع له بالعملة الدارجة في البلد.

–قال (غاوس): بديهي.

– إذن فهو يتساءل ألم تضع الدولة تحت تصرف السيد مساح الأراضي ذهبا ليدفعه ثمنا لما يشتريه! في هذه الحال فإن مؤشرات الذهب رابحة جدا. ليس من الضروري أن يكون أحدهم عالم رياضيات حتى يفهم هذه الأشياء.

احمر (غاوس).

قال الغراف: على الأقل يجب ألا يكون من يسمى أمير علماء الرياضيات مَنْ لا يعرف هذه الأشياء.

عقد (غاوس) يديه خلف ظهره وراقب الاوركيديا المتسلقة جذوع النخيل. وقال بصوت مكتوم إن ما يفعله لا يخالف القانون في شيء.

قال الغراف: لا شك. إنه واثق بأن السيد مساح الأراضي راجع الأمور ودقق فيها. وبالمناسبة فهو معجب بالمساحة. شيء عظيم أن يتجول أحدهم أشهرا طويلة حاملا أجهزته.

ـ فقط إذا عملها في ألمانيا. من يعمل نفس الشيء في جبال الكورديليرا يعتبر مستكشفا.

هز الغراف رأسه: لكن الحياة تبقى قاسية، خاصة إذا كان المرء مضطرا لإعالة أسرة. للسيد مساح الأراضي عائلة، أليس كذلك؟ وزوجة طيبة؟

أومأ غاوس. بدت له الشمس مبهرة جدا وأثارت النباتات أعصابه. سأل إن لم يكن من الأفضل أن يتحدثا عن شراء الأشجار؟ عليه متابعة العمل ووقته قليل.

قال الغراف: ليس بهذه القلة. خاصة إذا كان المرء مؤلف مقالة في نظرية الأعداد، عليه أن لا يستعجل بعدها أبدا.

حَدَّقَ (غاوس) في الغراف مستغربا.

قال الغراف إنه يرجو عدم التظاهر بالتواضع الكاذب. القسم المتعلق بتقسيم الدائرة

Twitter: @ketab_n

من أفضل ما قرأه حتى الآن، فقد وجد فيه أفكارا تعلم منها هو شخصيا بعض الأشياء.

ضحك (غاوس).

قال الغراف إنه جاد.

قال (غاوس) إنه يستغرب من لقاء شخص لديه هذه الاهتمامات في مثل هذا المكان.

قال الغراف إن عليه أن يقول: شخص لديه هذه المعارف. إن اهتماماته محدودة جدا، إلا أنه دائما كان يعرف دائما ضرورة أن يوسع أفق معارفه أبعد من حدود استجداء المعلومة.

بهذه المناسبة، فقد سمع أن السيد مساح الأراضي يريد أن يخبره بشيء ما.

ـ عفوا؟

ـ لقد مر عليها وقت طويل. شكوى، استياء أو حتى دعوى.

مسح غاوس جبينه. شعر بارتفاع حرارته تدريجيا، لم يكن لديه أدنى علم عمّا يتكلم الرجل.

– أكيد لا؟

نظر إليه (غاوس) دون أن يفهم ما يعنيه.

قال الغراف: إذن لا. بصدد الأشجار فإنه يمنحها مجانا.

ـ والمخزن؟

ـ هو أيضا.

لكن لماذا؟ سأل (غاوس) وارتعب من سؤاله. يا للخطأ الفادح.

ـ هل يجب أن تكون هناك أسباب دائما؟ حبا بالدولة، كما يليق بالمواطن. تقديرا للسيد مساح الأراضي.

قدم (غاوس) شكره وانحنى. وقال إن عليه أن ينطلق الآن، فابنه البليد ينتظره، عليه أن يقطع اليوم المسافة حتى كالبزلوه سيرا على الأقدام

رد الغراف على التحية بحركة متموجة من يده النحيلة.

في الطريق إلى بيت السادة بدا لـ (غاوس) أن الجهات تشوشت عليه. ركز ذهنه، ثم مضى يمينا، ويسارا ويمينا، عبَرَ قضبان الباب، ثم مرتين نحو اليمين، عبَرَ بابا آخر، صار في

Twitter: @ketab_n

صالون الاستقبال الذي كان فيه أمس. كان الخادم ينتظر، فتح الباب واعتذر عن المبيت السيئ. وقال إنه لم يكن يعرف من هو الضيف. الغرفة التي نام فيها هي حجرة الفرسان، حيث ينام الرعاع والمشردون. فوق هذا ليست سيئة تماما، فيها مرآة ومغسلة، وأغطية كذلك.

– الرعاع والمشردون، كرر (غاوس).

قال الخادم بسحنة جامدة : نعم. الزبد والحثالة، وأغلق الباب برفق.

أخذ (غاوس) نفسا عميقا، وارتاح لأنه صار في الخارج. عليه الإسراع قبل أن يتراجع هذا المجنون عن موافقته. إذن فقد قرأ (مقالة في نظرية الأعداد). حتى الآن لم يعتد على الشهرة. آنذاك أيضا، أيام الحرب، عندما جاءه أحد مساعدي (نابليون) حاملا تحياته، اعتبر المسألة سوء فهم. ربما كان فعلا سوء فهم. لن يعرف الحقيقة أبدا. أسرع الخطى على المنحدر إلى الغابة.

ما أزعجه هو أن الأشجار التي حدّدها بالأمس كانت ذات قدرة عظيمة على الاختفاء. كان الجو خانقا، وكان يتعرق وهناك الكثير من الذباب. وقد رسم بالطباشير إشارة الصليب على كل شجرة يجب اقتلاعها، والآن عليه رسم إشارة أخرى دلالة على موافقة المالك. قبل وقت قصير كان (اوجين) قد سأله إن لم يكن يأسف على الأشجار، فهي قديمة جدا وعالية، عمرت طويلا وتمنح كما هائلا من الظل. كان الشاب حساسا وصعب الفهم في آنٍ معاً. خسارة. كان (غاوس) قد حزم أمره على تغذية مواهب أطفاله، وأن يخفف عليهم مشاق التعليم، ويشجع فيهم كل بادرة استثنائية. لكن للأسف لم يكن فيهم شيء استثنائي. لم يكونوا أذكياء حتى ذكاء فوق المتوسط. (يوسف) صار مرشحا ليكون ضابطا، لكنه أيضا ابن (يوهانا). (فيلهلمينه) كانت على الأقل مطيعة وتحافظ على نظافة البيت. لكن (اوجين)؟!

أخيرا وجد المخزن ووضع عليه الإشارة اللازمة. على الأرجح سيدوم الأمر طويلا حتى يتمكن المساعدون من إزالته. ثم سيحدد الزاوية إلى المستقيم الرئيسي، وستتوسع شبكة الأراضي بمقدار مثلث آخر. هكذا كان عليه العمل خطوة خطوة حتى حدود الدانمارك.

Twitter: @ketab_n

كل جهوده ستصير في المستقبل القريب من صغائر الأمور. سيحلق الناس بالبالونات ويقرأون الأبعاد على مقاييس مغناطيسية. سيرسلون إشارات (جالفاني) من نقطة إلى أخرى، ويعرفون المسافة من انحراف شدة الكهرباء. لكن كل هذا لا يفيده هو، فعليه أن يقوم به الآن، بشريط القياس، وبالسدسية والمزواة، في حذاء موحل، وعليه بالإضافة إلى هذا إيجاد وسائل يوازن بها عدم الدقة حتى الوصول إلى الرياضيات البحتة، فالأخطاء الصغيرة تؤدي إلى كوارث. حتى الآن لم يرسم أحد خريطة دقيقة لهذه البقعة من الأرض ولا لغيرها.

حكه أنفه، قرصته بعوضة في منتصفه. مسح عرقه، تذكر تقرير (هومبولدت) عن البعوض على نهر اورينوكو. لا يستطيع البشر والحشرات أن يعيشوا معا فترة طويلة، إلى الأبد، حياة مستقبلية. في الأسبوع الماضي قرص زنبور (اوجين). مقابل كل إنسان يوجد مليون حشرة. لن يمكن القضاء عليها كلها رغم كل الحظ والمهارة. جلس على جذع شجرة مقطوع، تناول من جيبه قطعة خبز، وعضها بحذر. لم تمر إلا ثوان معدودات حتى سمع أزيز الزنابير فوق رأسه. إذا فكر المرء تفكيرا واعيا عليه أن يتقبل أن الحشرات ستنتصر.

تذكر زوجته (مينا). لم يكذب عليها أبدا. فكر في البداية في الزواج من (نينا)، لكن (بارتلز) أقنعه في رسالة مطولة بعدم فائدة هذا الزواج. وهكذا أعلن لـ (مينا) أنه يحتاج امرأة لرعاية أطفاله والاعتناء ببيته وأمه، وأنه لا يستطيع الآن أن يعيش وحده وهي على كل حال كانت صديقة (يوهانا) المفضلة. كانت خطبتها إلى غبي ما قد فسخت منذ وقت قصير، لم تعد شابة وصارت حظوظها في الزواج نادرة. ضحكت متصابية، خرجت، دخلت ودعكت فستانها. بكت قليلا، ثم وافقت. فكر في حفل زواجهما، في الرعب الذي حل عليه عندما رآها في الثوب الأبيض، الأسنان الكبيرة المنفرجة في ابتسامة سعيدة. هنا عرف أي خطأ ارتكب. لم تكن المشكلة في أنه لا يحبها. كانت المشكلة في أنه لا يطيقها، إن مجرد قربها يثيره، ويعكر مزاجه، وأن صوتها لديه كان كصوت انزلاق الطباشير على لوح الإردواز، وأنه كان يشعر بالوحدة بمجرد أن يراها قادمة من بعيد وأن

Twitter: @ketab_n

مجرد التفكير فيها يبعث فيه الرغبة في الموت. لماذا صار مساح أراض؟ كي يهرب من البيت.

لاحظ أن الجهات تشوشت عليه مرة أخرى. رفع عينيه. كانت ذرى الأشجار ترتفع في سماء معتمة. أرض الغابة تحت قدميه كالنوابض. كان عليه الحذر، فعلى الجذور الرطبة يتزحلق السائر بسرعة. سيتناول الغداء عند أحد الفلاحين كالعادة، وكالعادة سيتشنج بطنه لأنه تناول مرق الخبز والحليب الدسم. وطبعا من المعروف أن التعرق غير صحي، وهو ما يقوله كل الأطباء.

بعد ساعات وجده (اوجين) يسير في الغابة شاتما ولاعنا.

صرخ فيه (غاوس): لماذا تأخرت؟

أقسم (اوجين) أن لا ذنب له، وأن فلاحا دله على الاتجاه الخاطئ، ثم إنه لم يجد الإشارة على مخزن الخشب، لأنها مرسومة على مستوى منخفض جدا وأمامها تماما كانت تقبع عنزة. ثم إنه لما لاحظ الإشارة رغم هذا، هجمت عليه العنزة. لم يسبق أن عضته عنزة. لم يكن يعرف أن العنز يعض.

مد (غاوس) ذراعه متنهدا. تراجع الولد لأنه توقع صفعة، مع أن الأب كان يريد أن يربت على كتفه. صعد الغضب في (غاوس)، الآن لم يعد في وسعه متابعة السحنة الأبوية دون أن يشعر بالحرج. وهكذا اضطر لصفع الابن على خده. وهذه الصفعة جاءت قوية جدا، حدق فيه (اوجين) بعينين مفتوحتين جداً.

صار (غاوس) مضطرا ليبرر ما قام به: ما هذه الوقفة، ، عليك أن تقف منتصبا. أخذ المزواة من يد (اوجين). لا شك أن للولد ذكاء (مينا) ولم يرث من الأب إلا السوداوية. مسح (غاوس) على المرآة الكريستالية بحنان، وعلى المقاييس والمنظار المتحرك. وقال: إن البشرية ستستعمل هذا الاختراع مدة طويلة. ويتمنى لو أنه عرض الجهاز على الغراف.

– سأله ابنه: أي غراف؟

تنهد (غاوس). كان قد تعود على خمول البشر منذ طفولته، لكنه لم يستطع التعود على أن يغفر هذا الخمول لابنه. قال: حمار غبي ومشى. شعر بالدوار عندما تذكر كم

Twitter: @ketab_n

عليه أن يتعب حتى ينجز عمله. لم تكن ألمانيا دولة المدن، كان يسكنها الفلاحون وعدة ارستقراطيين غريبي الأطوار، وكانت مؤلفة من آلاف الغابات والقرى. شعر أن عليه أن يزورها جميعا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في اسبانيا الجديدة كان في انتظارهم أول الصحفيين.

وصلا إليها بعد تعب، لأن قبطان السفينة الوحيدة المتجهة نحو آكبولكو مَنَع من حمل أجانب على ظهر سفينته. وقال سواء لديه إن كان معهما وثائق أم لا، فهو ابن غرناطة الجديدة، لا يعبأ باسبانيا، كما أن ختم (اوركيخو) عديم القيمة في هذه الأنحاء بجميع الأحوال، وفي الناحية الأخرى من البحر أيضا. من حيث المبدأ رفض (هومبولدت) أن يرشوه وحلوا المشكلة بأن أعطى النقود لـ (بونبلاند) وهذا بدوره دسها في يد القبطان.

على الطريق أثار انفجار بركان كوتوباكسي زوبعة ولأن الربان لم يسمع نصيحة (هومبولدت)، إذ قال إنه يبحر منذ سنوات وإن انتقاد الملاحين يناقض قانون البحر وعلى هذا الانتقاد قد يشنق أعضاء طاقم السفينة، فقد خرجوا بعيدا عن مسارهم. حتى لا تفوته الزوبعة دون فائدة، طلب منهم (هومبولدت) أن يربطوه على ارتفاع خمسة أمتار فوق سطح البحر على مقدمة السفينة ليقيس ارتفاع الأمواج قبل أن تتكسر على ساحل البحر. ظل معلقا طوال النهار، من الفجر حتى حلول الليل، واضعا منظار السدسية على عينه. رغم أنه كان بعدها مشوش الأفكار قليلا إلا أنه كان محمرا، منتعشا وسعيدا أيضا ولم يفهم لماذا عدّه البحارة بعدها شيطانا.

هكذا إذن، كان رجل ذو شارب واقفا على رصيف آكابولكو ينتظرهم. قال إن اسمه (غوميز) ويكتب لعدة صحف في اسبانيا الجديدة والأرض الأم أيضا. يرجو بكل خشوع أن يسمح له السيد الغراف بأن يصحبه في رحلته.

قال (بونبلاد) إنه ليس غرافاً، إنما مجرد بارون.

قال (هومبولدت): حيث إنه ينوي كتابة يوميات رحلته بنفسه، فإنه لا يرى ضرورة لهذا. ونظر إلى (بونبلاند) نظرة ملؤها اللوم.

وعد (غوميز) بأنه لن يكون أكثر من ظل يرافقه، مجرد طيف، غير مرئي عمليا، سيشهد على ما يحتاج إلى شهود على اتيانه.

حدد (هومبولدت) الموقع الجغرافي للمرفأ منذ البداية. إن أطلسا دقيقا لاسبانيا الجديدة

Twitter: @ketab_n

– أملى على (غوميز) وهو مستلق على ظهره موجها المنظار نحو سماء الليل – إن أطلسا دقيقا لاسبانيا الجديدة يمكن أن يساعد على تكاثر الاستيطان، وأن يسرع في إذلال الطبيعة، وأن يوجه مصير البلاد وجهة حسنة. يقال إن عالم فلكٍ ألماني قد حدد مسار نجم سيار جديد. للأسف ليس في وسعهُ أن يعرف التفاصيل الدقيقة، فالصحف في هذه البلاد متخلفة جدا. أحيانا يرغب في العودة إلى البيت. أخفض المنظار ورجا (غوميز) أن يمسح الجملتين الأخيرتين من دفتره.

ذهبوا إلى الجبال. كان (بونبلاند) قد شفي من الحمى، بدا أنحف من ذي قبل وشاحبا رغم سطوع الشمس، ارتسمت في وجهه أولى التجاعيد، وقل شعر رأسه، عما كان عليه قبل سنوات قليلة، بشكل واضح. الجديد فيه، أنه كان يقضم أظافره، ويسعل بين الوقت والآخر بحكم العادة. لم يبق في فمه إلا القليل من الأسنان بحيث صار يصعب عليه تناول الطعام.

على العكس منه، بدا (هومبولدت) كما كان. وكما كان دأبه، اشتغل على معالم خريطة للقارة. دوّن محتويات الغطاء النباتي، وضغط الهواء الذي ينخفض كلما ارتفع المرء، وتداخل التعريقات الصخرية في باطن الجبل. كي يميز تشكيلات الصخور بعضها عن بعض، زحف أكثر من مرة في جحور ضيقة، بحيث ينحشر فيها ويضطر (بونبلاند) إلى جرّه منها. صعد على شجرة، فانكسر غصن وسقط (هومبولدت) على (غوميز) الذي يدون كل الحركات والسكنات.

سأل (غوميز) (بونبلاند): أي إنسان هو (هومبولدت)؟

قال (بونبلاند) إنه يعرفه أكثر من أي إنسان آخر. أفضل من أمه وأفضل من أبيه وأفضل من نفسه حتى. لم يسع إلى هذه المعرفة، لكن الأمور جاءت وحدها.

ـ ثم ماذا؟

تنهد (بونبلاند) وقال إنه لا يعرف شيئا.

سأل (غوميز)، كم من الزمن قضياه معا؟

قال (بونبلاند) إنه لا يعرف. ربما كل الحياة وربما أطول.

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا تحمل كل هذه المشاق؟

نظر إليه (بونبلاند) بعينين محمرتين ودامعتين.

كرر (غوميز) سؤاله: لماذا تحمل المشاق؟ لماذا هو المساعد؟

قاطعه (بونبلاند): ليس مساعدا، بل شريكا.

ـ لماذا إذن ظل شريكا لهذا الرجل رغم كل الشقاء وطوال هذا الزمن؟

فكر (بونبلاند) قليلا، ثم قال: لأسباب كثيرة.

ـ مثلا؟

قال (بونبلاند): حقيقة، إنه كانت فيه رغبة دائمة في الهروب من لاروشيل. ثم تداخلت أمور كثيرة. الزمن يمضي بسرعة عبثية.

قال (غوميز): إن هذا ليس جوابا.

– عليه الآن أن يجمع نباتات الصبار. غير (بونبلاند) وجهته، وصعد في الموقع التالي بهمة ونشاط.

في هذه الأثناء نزل (هومبولدت) منجم تاكسكو. راقب عمليات استخراج الفضة عدة أيام، درس تردد الصدى في الممرات، دق على الحجارة دقات متفحصة، وتحدث مع رؤساء العمال. وبدا في قناع التنفس ومصباح الإنارة مثل الشيطان. وأينما حل، كان العمال يسقطون على ركبهم ويستعيذون بالله. ومرة اضطر رئيس العمال لحمايته من الرجم.

كانت مهارة العمال في السرقة أكثر ما سحره في دراسته هذه، لم يكن يُسمح لأحد بركوب سلة الصعود من المنجم قبل أن يفتش أدق التفتيش، ورغم هذا كانوا يجدون كل مرة وسائل جديدة ليأخذوا معهم قطع المواد الخام. سأل (هومبولدت) إن كانوا يسمحون له بتفتيشهم «في سبيل العلم». وجد فضة في شعرهم، وتحت آباطهم، في أفواههم وحتى في شروج الرجال. يعز عليه أن يقوم بهذا – قال لرئيس العمال، المدعو (فرناندو غارسيا اوتيللا)، الذي كان ينظر إليه بعينين حالمتين بينما يتلمس (هومبولدت) سرة فتى صغير – لكن العلم وخير البلد يتطلبانه. لا يمكن استثمار ذخائر أعماق الأرض بشكل سليم إذا

Twitter: @ketab_n

لم تراعَ مصالح العمال الفردية – كرر الجملة حتى يتمكن (غوميز) من كتابتها – علاوة عليه ينصح بتجديد المنشآت. تجري حوادث كثيرة.

قال (فرناندو): يوجد لديهم فائض في العمال. كلما مات أحد يستعاض عنه بآخر.

سأله (هومبولدت) إن كان قد قرأ (كانط)؟

قال (فرناندو) إنه قرأ قليلا من مؤلفاته. لكن له اعتراضات عليه، (لايبنيتس) أقرب إليه. أسلافه ألمان ولهذا يعرف كل هذه الأوهام.

في يوم متابعة الرحلة ظهر بجانب الشمس بالونان كرويان مضيئان. قال (غوميز): إن هذه هي الموضة الآن، فكل ذي مقام وشجاعة لابد له أن يطير مرة.

قال (هومبولدت) إنه رأى أول بالون فوق ألمانيا قبل سنوات. هنيئا لمن طار آنذاك. عندما لم يعد الطيران معجزة خارقة ولم يكن في الآن ذاته أمرا عاديا. كاكتشاف نجم جديد.

كلمهم شاب من شمال أمريكا في كويرنافاكا. كانت له ذقن محفوفة بإتقان بالغ، اسمه (ويلسون) ويكتب لجريدة فيلادلفيا كرونيكل.

قال (هومبولدت): لا، هذا كثير.

قال (ويلسون): طبعا، الولايات المتحدة تضيع في ظل الجار الكبير، لكن شعبها الشاب يزداد اهتماما بما يقوم به الجنرال (هومبولدت).

قال (هومبولدت)، ليسبق (بونبلاند): إنه مفتش مناجم، ليس جنرالا.

قبل دخول العاصمة ارتدى (هومبولدت) بزته العسكرية. كان وفد نائب ملك اسبانيا ينتظرهم فوق هضبة حاملا مفتاح المدينة. لم يدخلا مدينة بهذا الحجم منذ أن كانا في باريس. كان فيها جامعة، ومكتبة عامة، وحديقة وطنية لتربية النباتات، وأكاديمية للفنون، وأكاديمية للمناجم على النموذج البروسي برئاسة زميل دراسة (هومبولدت) السابق في فرايبرغ، (آندرس ديل ريو). لم يبد هذا فرحة أكثر من اللازم بلقاء (هومبولدت). وضع يديه على كتفيه، حافظ على مسافة ذراع بينهما وحدق فيه مضيقا عينيه.

قال بألمانية متكسرة: إذن، هذا هو الواقع، رغم كل القيل والقال؟

Twitter: @ketab_n

– أي قيل وقال؟ منذ أن صادف (برومباخر) لم يتكلم (هومبولدت) لغته الأم. كانت ألمانيته متخشبة وغير واثقة. اضطر للبحث عن الكلمات الصحيحة.

قال (آندرس): إنها إشاعات. مثلا إنه جاسوس الولايات المتحدة أو جاسوس الإسبان.

ضحك (هومبولدت). جاسوس الإسبان في المستوطنات الإسبانية؟

قال (آندرس): طبعا لن تظل هذه البلاد في حكم المستعمرات طويلا. هناك يعرفون هذا جيدا، وهنا هم واثقون منه.

قرب الساحة الرئيسة كانت أعمال التنقيب عن بقايا المعبد الذي دمره (كورتيز) قد بدأت. كان عمال متثائبون واقفين في ظل الكاتدرائية ورائحة خبز الذرة تنبعث من الهواء. كان على الأرض عظام جماجم فيها عيون من الفولاذ، وعشرات السكاكين من (السَّبَجَ): خَرَزُ أسوب، وصورة فنية منقوشة في الحجر تمثل الأضاحي البشرية، تماثيل خشبية صغيرة مفتوحة القفص الصدري. كما كان هناك مذبح حجري من الجماجم المنحوتة بفظاظة.

أزعجت رائحة الذرة (هومبولدت) وشعر بالغثيان. عندما التفت للخلف رأى (ويلسون) و(غوميز) حاملين دفاترهما. رجاهما أن يتركاه وحده قائلا إن عليه أن يستجمع أفكاره .

قال (ويلسون): إن العالم العظيم يعمل هكذا.

قال (غوميز): يبقى وحيدا ليستجمع أفكاره لا بد أن تعلم كل الدنيا هذا.

وقف (هومبولدت) أمام عجلة حجرية عملاقة عليها كم هائل من السحالي، ورؤوس الأفاعي وتماثيل بشر محطمة مرسومة في أشكال هندسية. في الوسط وجه مُمْتَدّ اللسان فيه عيون دون أجفان. تطلع إلى الشكل طويلا. تدريجيا انتظمت فوضى الأشكال في رأسه، تعرف على أشكال متطابقة، وصور متكاملة، ورموز متكررة بانتظام رائع تُموّه أرقاما. لدهشته كان الشكل تقويما. حاول أن يرسمه لكنه لم يتمكن وكان لعدم قدرته على الرسم علاقة ما مع الوجه في مركز اللوحة. تساءل أين سبق له أن رأى هذا الوجه؟ أين رأى هذه

Twitter: @ketab_n

العيون؟ تذكر الفهد، ثم الولد في الكوخ الطيني. نظر إلى دفتره بقلق وأدرك أنه بحاجة إلى رسام مختص. حدق في الوجه، وربما كانت الحرارة أو رائحة الذرة سببا في أنه استدار فجأة.

قال أحد العمال فرحا: عشرون ألفا. تمت التضحية بعشرين ألف إنسان في احتفال تعميد المعبد. واحدا بعد الآخر: إخراج القلب، قطع الرأس. امتدت صفوف المنتظرين حتى طرف المدينة.

قال (هومبولدت): أيها الشاب لا ترو سخافات.

نظر إليه العامل مهانا.

– عشرون ألفا في يوم واحد ومكان واحد، شيء لا يُتَخيل. لن تصبر الأضاحي على هذا، لن يصبر عليه النظارة، بل أكثر، خلق العالم لا يتحمله. إذا حدث مثل هذا الشيء فعلا، فإنها نهاية العالم.

قال العامل: بالنسبة للعالم هذا خراء.

تناول (هومبولدت) طعام المساء على مائدة نائب الملك. حضر (آندرس ديل ريو) وأعضاء آخرون في الحكومة: مدير متحف، بعض الضباط، رجل صامت داكن البشرة في ثياب أنيقة أناقة استثنائية، لقبه (كونده دي موكتيزوما)، حفيد آخر الملوك الآلهة وحامل اللقب الاسباني غرانده. كان يسكن قصرا في كاستيليا ويزور المستوطنة عدة أشهر لقضاء بعض الشؤون. زوجته الطويلة الحسناء كانت تنظر إلى (هومبولدت) دون أن تخفي إعجابها به.

قال نائب الملك: إن عشرين ألفا عدد صحيح. ربما أكثر أيضا. التقديرات متباعدة. في عهد تلاكاليل، آخر كبار الكهنة، كانت المملكة تسبح في بحر من الدم.

قال (آندرس): ليس معنى هذا أن كبار الكهنة كانوا يرغبون في هذا. كان الناس يشوه بعضهم بعضا بشكل دوري، مثلا كانوا، قطع عبارته متوجهاً إلى السيدات طالباً المعذرة على وقاحة التعبير، كانوا ويسحبون الدم من أحاليلهم في مناسبات خاصة.

تنحنح (هومبولدت) وبدأ بالحديث عن (غوته) وأخيه الكبير، واهتمامهما المشترك

Twitter: @ketab_n

بلغات الشعوب القديمة. كانا يعتبرانها لغة لاتينية أفضل، أنقى وأقرب إلى منابع العالم. يسأل نفسه إن كان هذا الحكم يجوز أيضا على لغة الازتيك؟

نظر نائب الملك إلى (كونده) متسائلا.

قال هذا دون أن يرفع عينيه من صحنه: ليس لديه علم. إنه لا يتكلم غير الاسبانية.

سأل نائب الملك (هومبولدت) عن رأيه في مناجم الفضة ليغيّر الموضوع.

قال (هومبولدت) شارد الذهن: إنها غير منتجة. في كل مكان شغل هواة، كسالى. أغمض عينيه برهة وفورا ظهر له الوجه الحجري. رأى شيئا ما، شعر به، ولن ينساه أبدا. سمع نفسه يقول: الفائض الكبير من الفضة هو الشيء الوحيد الذي يغطي على عدم إنتاجية المناجم. معدات الاستخراج مستهلكة، نسبة السرقة كبيرة جدا، المستخدمون غير متدربين بشكل كافٍ.

حل الصمت عدة ثوان. ألقى نائب الملك نظرة على (آندرس ديل ريو) الشاحب.

قال (هومبولدت) متفاجئا بما قاله: إن كلامه طبعا جاء مبالغا في صياغته. هناك أيضا الكثير مما أعجبه.

نظر إليه (كونده) وعلى وجهه ابتسامة ضعيفة.

قال نائب الملك: إن اسبانيا الجديدة بحاجة إلى وزير مناجم جديد.

سأله (هومبولدت) فيمن يفكر.

ظل نائب الملك صامتا.

رفع (هومبولدت) يديه وقال: إن هذا مستحيل. إنه مواطن بروسي ولا يستطيع تقديم خدماته لدولة أخرى.

في وقت متأخر من المساء توصل أخيرا إلى بغيته في تبادل بعض الكلمات مع (كونده). سأله هامسا عما يعرفه عن تقويم عملاق من الحجر.

ـ قطره حوالي خمسة أذرع.

أومأ (هومبولدت).

– فيه ثعابين مجنحة، ووجه جامد في المركز.

Twitter: @ketab_n

– نعم، هتف (هومبولدت).

قال (الكونده) إنه لا يعرف أدنى شيء عنه. إنه لم يعد هنديا أحمر، بل غرانده إسبانيا.

سأله (هومبولدت) عن موروثه العائلي.

انتصب (كونده) بكل قامته، بلغ ارتفاع صدر (هومبولدت). قال: إن سلفه وقع بين يدي (كورتيز). استرحمه كامرأة للإبقاء على حياته، انتحب، ورفع صوته بالعويل، وأخيرا، بعد أسابيع من السجن، بدل الجهة. الذين قتلوه رجما كانوا من شعب الازتيك. إذا سار اليوم، هو (كونده دي موكتيزوما)، في ساحة المدينة، فلن يبقى على قيد الحياة خمس دقائق. تمهل (الكونده) قليلا وأضاف، ربما لن يحدث شيء. لقد مر وقت طويل، الناس لا تتذكر الحدث إلا قليلاً، لمس مرفق زوجته ورفع عينيه المزمومتين إلى (هومبولدت). وقال: كل من يلقاه يبحث في وجهه عن مجد الملك الإله. كل من يعلم اسمه ينظر عبره إلى الماضي. إن كان لـ (هومبولدت) أن يتصور معنى أن يعيش المرء في ظل جد عظيم.

– أجابه (هومبولدت): أحياناً.

– موروث عائلي! كرر (الكونده) بتقزز. ذهب هو وزوجته دون تحية الوداع.

في الصباح الباكر لاحظ (هومبولدت) عدم وجود (بونبلاند). فبدأ البحث عنه حالاً. كانت الشوارع ملآى بالتجار: رجل يبيع ثمارا مجففة، وآخر يبيع أعشابا شافية لكل الأمراض عدا النقرس، وثالث قطع يده اليسرى بفأس ثم أعطاها للناس لينظروا إليها بينما هو ينتظر عودتها إليه متألما ولما أعادوها ألصقها في مكانها وصب عليها صباغا. شاحبا من شدة النزيف خبط بيده على الطاولة عدة مرات ليبرهن على أنها عادت كما كانت. صفق له المتفرجون واشتروا كل ما عنده من الصباغ. رجل رابع كان عنده عشب شاف للنقرس، وخامس يبيع كتيبات مصورة سيئة الطباعة. رويت في إحداها قصة كاهن صاحب كرامات، وفي آخر حياة الطفل الهندي الذي ظهرت له عذراء غوادالوبه، وفي ثالث مغامرات بارون ألماني قاد قاربا في جحيم اورينوكو، وتسلق قمة أعلى جبل في العالم. لم تكن الصور سيئة، خاصة صورة البزة العسكرية.

وجد (بونبلاند) حيث يأمل أن يجده. كان النزل مزينا زينة فاضحة، الواجهة مغطاة

Twitter: @ketab_n

بالمرمر الصيني. رجاه البواب أن ينتظر. بعد دقائق ظهر (بونبلاند) في ثياب ارتداها على عجل.

سأله (هومبولدت) كم مرة عليه أن يذكره بما اتفقا عليه.

– هذا نزل مثل غيره، أجاب (بونبلاند). ثم إن الاتفاق كان تعجيزا له. لم يوافق عليه أبدا.

قال (هومبولدت): إنه كان اتفاقا في جميع الأحوال.

طلب منه (بونبلاند) أن يوفر عليه المواعظ.

في اليوم التالي صعدا بركان بوبوكاتيبتل. كان هناك ممر يوصل إلى القمة تقريبا. لحق بهما (غوميز) و(ويلسون)، وعمدة العاصمة، وثلاثة رسامين وحوالي مائة متفرج. كلما قطع (بونبلاند) نبتة، كان يضطر ليريها إياهم، وغالبا كانت تعاد إليه مترهلة بحيث لم يكن بحاجة ليضعها في سلة التجفيف.

عندما وضع (هومبولدت) قناع التنفس قبل النزول إلى حفرة، صفق الجميع أحر التصفيق. وبينما هو يحدد ارتفاع القمة بمقياس الضغط وينزل مقياس الحرارة في فوهة البركان كان التجار يبيعون المرطبات.

أثناء النزول كلمهما فرنسي. قال إن اسمه (ديبريه) ويكتب لعديد من الصحف الباريسية. السبب الأصلي لوجوده هنا هو رحلة الاستكشاف التي أرسلتها الأكاديمية بإشراف (بودان). لكن بما أن (بودان) لم يظهر بعد فإنه لم يتمكن من تمالك فرحته عندما سمع بوجود شخصية أعظم في البلاد.

لم يتمكن (هومبولدت) من إخفاء ابتسامة الرضا عن النفس للحظة طويلة. ثم قال إنه مازال يطمع بالالتحاق بـ (بودان) والسفر معه إلى جزر الفلبين. بل إنه يفكر في ملاقاة القبطان في آكابولكو حتى يعملا يدا بيد في استكشاف الجزر السعيدة.

كرر (ديبريه): معا. سعادة استكشاف الجزر.

قال (هومبولدت): استكشاف الجزر السعيدة.

مسح (ديبريه) ما كتبه وكتب من جديد ما قاله (هومبولدت) وشكره على التصحيح.

Twitter: @ketab_n

ثم زارا أطلال أهرامات تيوتيهواكان. بدت أعظم من أن يستطيع إنسان بناءها. على طريق مستقيم وصلا إلى مكان تحيطه المعابد. جلس (هومبولدت) على الأرض وبدأ بقياساته، راقبته الجماعة المحتشدة من بعيد. ملّ أوائل المتفرجين، بدأ بعضهم بالسب، بعد ساعة كان الكثيرون قد ذهبوا وبعد تسعين دقيقة كان الجمع قد انفض نهائيا، ولم يبق إلا الصحفيون الثلاثة. عاد (بونبلاند) من قمة أعلى الأهرامات متعرقا.

قال إنه لم يكن يتصور أنه بهذا العلو.

أومأ (هومبولدت) والسدسية في يده.

بعد أربع ساعات، كان المساء قد حل منذ زمن بعيد، كان (هومبولدت) لايزال جالسا في مكانه منكبا فوق أوراقه. كان (بونبلاند) والصحفيون قد ناموا وهم يرتجفون بردا. بعد قليل، عندما وضع (هومبولدت) معداته في الصندوق، كان يعرف أن الشمس تشرق في يوم الانقلاب الشمسي، تماما على ذروة الهرم الكبير، وتغيب على ذروة ثاني أكبر الأهرامات، هذا إذا نظر إليها المرء من الطريق. كانت المدينة بكاملها تقويما. تساءل: ترى من ابتدعه؟ إلى أي مدى كان الناس يعرفون النجوم وما الذي أرادوا إعلامنا به؟ منذ أكثر من ألف عام كان هو أول من فهم رسالتهم.

– ما الذي ألم به؟ سأل (بونبلاند)، الذي أيقظته قرقعة المعدات.

قال (هومبولدت): كل هذه الحضارة وكل هذه الوحشية. يا لَهذه الازدواجية. الوجه الآخر تماما لما تدافع عنه ألمانيا.

قال (بونبلاند): ربما حان وقت العودة إلى البيت.

ـ إلى المدينة؟

ـ ليس إلى هذه.

نظر (هومبولدت) طويلاً إلى السماء التي تلمع فيها النجوم. ثم قال: طيب. إنه سيتعلم أن يفهم هذه الحجارة المتراصة بعضها فوق بعض بذكاء خارق على أنها جزء من الطبيعة. ثم سيترك (بودان) يبحر وحده إلى الفلبين ويأخذ أول سفينة تبحر إلى شمال أمريكا، ومن هناك سيبحران في طريق العودة إلى أوروبا.

Twitter: @ketab_n

لكنهما سافرا قبلها إلى بركان خورولو الذي طلع من الأرض فجأة قبل خمسين عاما تحت قصف الرعد وعاصفة من النار والرماد البركاني. عندما ظهر لهم البركان من بعيد صفق (هومبولدت) فرحا. قال للصحفيين إن عليه أن يصعد البركان، حيث يتوقع العثور على برهان قاطع على خطأ الفرضية النبتونية. إذ يتذكر (أبراهام فرنر) العظيم، هجّى لهم الاسم حرفا حرفا، يكاد يأسف عليه.

في أسفل البركان استقبلهم محافظ غواناخواتو تواكبه حاشية ضخمة، فيها كبير الأساقفة، سيد عجوز اسمه (دون رامون اسبيلده)، ألح على قيادة الرحلة الاستكشافية إلى قمة الجبل البركاني. قائلا: إن العملية خطيرة جدا، لا يقدر عليها غير المتمرسين.

أقسم (هومبولدت) إنه صعد جبالا أكثر من أي إنسان في العالم.

دون أن ينحرف قيد شعرة عن موقفه نصحه (دون رامون) ألا ينظر إلى الشمس مباشرة ويدعو عذراء غوادالوب كلما خطا بقدمه اليمنى.

تقدموا ببطء شديد. اضطروا لينتظروا هذا المرافق أو ذاك كلما ساروا قليلا، خاصة (دون رامون) الذي تزحلق المرة تلو الأخرى أو لم يكن قادرا على السير من شدة الإرهاق. بانتظام كان (هومبولدت) ينزل على الأربع تحت الأنظار المستغربة ليصيخ السمع إلى باطن الصخر عبر قمعه. عندما وصل إلى القمة أنزلوه في فوهة البركان مربوطا إلى حبل.

قال (دون رامون): الولد جن تماما، لم يسبق له أن رأى في حياته شيئا كهذا.

عندما رفعوا (هومبولدت) كان مخضر الوجه، يسعل لدرجة تدعو إلى الشفقة، وملابسه محترقة. هتف وهو يغمز: النبتونية، دفنت اعتبارا من هذا اليوم.

قال (بونبلاند): خسارة فعلا، كان لها شِعريتها.

أخذوا في ميزاكروز أول سفينة تبحر نحو هافانا. قال (هومبولدت) بينما الساحل يغرق في البخار إنه يقر بسعادته بدنو نهاية الرحلة. استند على حافة السفينة ونظر بعينين ضيقتين إلى السماء. لاحظ (بونبلاند) أنه وللمرة الأولى لم يعد له مظهر الشاب.

كان حظهم سعيدا. في لحظة وصولهم إلى هافانا كانت هناك سفينة بصدد الإقلاع نحو شمال القارة، ثم مع نهر ديلاور إلى فيلادلفيا. توجه (هومبولدت) إلى الربان، أراه

Twitter: @ketab_n

وثيقته الاسبانية ورجا السماح لهما بالسفر على ظهر السفينة.

قال الربان،: يا إلهي، أنت!

قال (هومبولدت): يا للسماء!

نظر كل منهما إلى الآخر بحَيْرة.

قال الربان إنه يظن أنها فكرة غير جيدة.

قال (هومبولدت) إنه مضطر للإبحار ووعده ألا يقوم بأي تحديد للموقع على الطريق، وأضاف أنه يثق به تماما. مازال يتذكر عبورهم للمحيط آنذاك كلحظة رائعة في فن الإبحار. رغم الوباء، ورغم عجز طبيب السفينة والأخطاء الحسابية.

قال الربان: وفيلادلفيا تحديدا. من ناحيته لتنفق جميع المستوطنات الثائرة، هناك وهنا أيضا.

قال (هومبولدت) إن معه أربعة عشر صندوقا فيها عينات الحجارة والنباتات، علاوة على أربعة وعشرين قفصا فيها قردة وطيور وكذلك بعض الزجاجات فيها حشرات وعناكب تتطلب الحذر التام. بعد إذن الربان، عليهم تحميلها فورا.

قال الربان: إن هذا ميناء فيه الكثير من الحركة. لابد أن تأتي سفينة أخرى قريبا.

قال (هومبولدت) إنه لا مانع لديه. لكن عنده هذه الوثيقة والملوك الكاثوليك ينتظرونه على أحر من الجمر.

التزم (هومبولدت) بوعده ولم يتدخل في شؤون الملاحة ولو لم يهرب قرد من قفصه، قرد أكل وحده نصف التموين، وحرر عنكبوتين سامين ومزق كل ما في قُمرة الربان، لمرت الرحلة دون متاعب. أمضى (هومبولدت) الرحلة في مؤخرة السفينة، نام أكثر من عادته وكتب رسائل إلى (غوته)، وإلى أخيه وإلى الرئيس (توماس جيفرسون). وبينما أنزلت الصناديق في فيلادلفيا ودّع الرّبان من جديد.

قال (هومبولدت) منتصب القامة، إنه يرجو اللقاء القريب.

– بالتأكيد ليس أكثر منه، قال الربان الذي رتقت بزته العسكرية رتقا سيئا.

أدى الاثنان التحية العسكرية

Twitter: @ketab_n

كان في انتظارهما عربة لتقلهما إلى العاصمة. سلمهما رسول دعوة رسمية: يرجو الرئيس أن يتشرف باستضافتهم في مقر الحكومة الجديد، إنه متشوق ليعرف كل التفاصيل عن رحلة السيد (هومبولدت) الأسطورية.

قال (ديبريه): يا للأمر الجلل.

قال (ويلسون): أمر لا تعطيه الكلمات حقه. (هومبولدت) و(جيفرسون) يلتقيان ويحق له حضور لقائهما!

احتج (بونبلاند): لماذا رحلة السيد (هومبولدت). لماذا لا يذكر أحد رحلة (هومبولدت) و(بونبلاند)؟ أو رحلة (بونبلاند) و(هومبولدت)؟ أو رحلة (بونبلاند) الاستكشافية؟ هل يستطيع أحد أن يشرح له هذا؟

قال (هومبولدت): رئيس يحكم من وراء الغابات. من يعبأ بطريقة تفكيره؟

كانت مدينة واشنطن قيد البناء. في كل مكان سقالات، وحفر وأكوام حجارة البناء، في كل مكان صوت المناشير وطرق المطارق. كان مقر الحكومة الذي جهز للتو ولم ينتهوا من دهانه بعد، مبنى كلاسيكيا بقبة، تحيط به أعمدة. قال (هومبولدت) عندما نزلوا من العربة إنه سعيد برؤية شاهد آخر على تأثير (فينكلمان) العظيم على فن العمارة في أرجاء العالم.

كانت كتيبة غير كفؤة من الجنود واقفة لأداء التحية العسكرية، دقات الطبول تعلو حتى السماء، علم يرفرف في الهواء. سار (هومبولدت) مرفوع الهامة ورفع يده إلى حافة قبعته. خرج إليه من المبنى رجال يرتدون معاطف سوداء أمامهم الرئيس، خلفه وزير الخارجية ماديسون. قال (هومبولدت) شيئا ما عن التشرف بوجوده هنا، وعن احترامه للأفكار الليبرالية، وعن فرحته بالتخلي عن الحكم الاستبدادي الذي يكبت الأنفاس.

سأله الرئيس إن كان قد أكل؟ وربت على كتفه. «يجب أن تأكلوا شيئا سيادة البارون».

كان حفل العشاء بائسا إلا أن جميع رجال الجمهورية كانوا قد تجمعوا فيه. تحدث (هومبولدت) عن صقيع الكورديليرا، وأسراب البعوض على نهر اورينوكو. كان فصيحا

Twitter: @ketab_n

في سرده، إلا أنه يتوه كثيرا في بحر الأرقام والوقائع. أعطى تقارير مفصلة عن الأنهار واختلاف درجات الضغط، عن علاقة الارتفاع بكثافة النباتات، عن الاختلافات الدقيقة بين أنواع الحشرات، بحيث بدأت عدة سيدات بالتثاؤب. عندما أخرج دفتر ملاحظاته وبدأ بتقديم محاضرة عن نتائج ما توصل إليه من قياسات، داس (بونبلاند) قدمه تحت الطاولة. شرب (هومبولدت) جرعة نبيذ وجاء على ذكر ثقل الاستبداد على كاهل الشعوب، واستخراج الثروات الباطنية، الذي يؤدي إلى ثراء عقيم، لا يمكن للاقتصاد الوطني أن يستفيد منه أبدا. تحدث عن ظلم الرق ومرة أخرى شعر بمن يدوس على قدمه. نظر إلى (بونبلاند) غاضبا ثم أدرك أن من داسها هذه المرة كان وزير الخارجية.

ـ (جيفرسون) يملك أراضي.

– والمعنى؟

ـ بما تحتويه.

غير (هومبولدت) الموضوع. تحدث عن مرفأ هافانا القذر، عن مرتفعات كاساماركا، عن حديقة الذهب الضائعة في آتاهوالباس، عن الطريق الصخرية الممتدة آلاف الأميال التي ربط بها شعب الانكا بين الهضاب التي لا تحصى. شرب أكثر من عادته واحمر وجهه، استخدم يديه ورجليه في التعبير. قال إنه منذ الطفولة كان يتنقل، منذ سن الثامنة لم يبق في مكان واحد أكثر من ستة أشهر، يعرف كل القارات، ورأى الكائنات الخرافية التي يروي عنها رواة الحكايات في الشرق، وكلابا تطير، وأفاعي لها عدة رؤوس، وطيور ببغاء تتحدث بشتى اللغات بفصاحة مطلقة. مضى إلى السرير وهو يضحك ضحكة مكتومة.

في اليوم التالي أجرى رغم آلام رأسه حديثا مطولا في المكتب البيضاوي للرئيس. أسند (جيفرسون) ظهره إلى مسند كرسيه ورفع نظارته.

شرح له الرئيس: زجاجات بيفوكال. واحدة من الاختراعات الكثيرة التي قام بها صديقه (فرانكلين). بصراحة كان الرجل يبدو له غريبا دائما، لم يفهمه قط. طبعا، بكل سرور. تفضل.

بينما يفحص (هومبولدت) النظارة، شبك (جيفرسون) يديه على صدره وبدأ بطرح

Twitter: @ketab_n

الأسئلة. عندما كان (هومبولدت) يشرد بأفكاره، كان الرئيس يهز رأسه هزة خفيفة، يقطع حديثه ويعيد السؤال. على الطاولة وضِعتْ خريطة لأمريكا الوسطى كأنما بالصدفة. قال إنه يريد أن يعرف كل شيء عن اسبانيا الجديدة، وطرق التجارة فيها والمناجم. يهمه أن يعرف كيف تدار الأعمال هناك؟ كيف يتم توصيل الأوامر إلى مختلف أنحاء البلاد وعبر البحار؟ كيف يفكر النبلاء، ما هو تعداد الجيش؟ كيف هي جودة التسليح وجودة التدريب؟ قال: إذا كان على الحدود جار كبير، فلا يشبع المرء من جمع المعلومات حوله. إلا أنه نبه السيد البارون إلى أنه قام برحلته الاستكشافية بتكليف من التاج الاسباني وربما فرض عليه هذا التكليف السرية التامة.

قال (هومبولدت): آه، لماذا؟ من تؤذي معلوماته. انحنى على الخريطة التي صحح أخطاءها الكثيرة، حالا وحدد مواقع أهم الثكنات العسكرية ببالغ الدقة.

شكره (جيفرسون) متنهدا: ما الذي يعرفونه هم المساكين في أمريكا؟ إنهم مجرد طائفة بروتستانتية صغيرة في نهاية العالم، بعيدا جدا عن كل ما فيه.

ألقى (هومبولدت) نظرة عبر النافذة. كان عاملان يحملان سلما، وثالث يحفر الأرض. قال إنه متشوق إلى البيت، والحق يقال.

- إلى برلين؟

ضحك (هومبولدت). وقال لا يمكن لإنسان عاقل أن يطلق على هذه المدينة الكالحة لقب بيت. طبعا يعني باريس. لن يقطن برلين من جديد أبدا، هذا مؤكد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رمى (غاوس) المنديل متذمراً. لم يعجبه الطعام مطلقا. لكن لأنه لم يرد أن يشكو من سوء الطعام راح يلعن المدينة متسائلا كيف يمكن لإنسان أن يقضي حياته فيها؟

قال (هومبولدت) مترددا: إن لها أيضا حسناتها.

ـ أية حسنات؟

نظر (هومبولدت) عدة ثوان ثاقب البصر إلى المائدة، ثم قال إنه يريد تغطية الأرض بشبكة من محطات المراقبة المغناطيسية. يريد أن يعلم علم اليقين إن كان في باطن الأرض مغناطيس واحد، أم اثنان، أم عدد لا يحصى من المغانط. لقد كسب الجمعية الملكية لفكرته هذه، لكنه يحتاج عون أمير علماء الرياضيات.

قال (غاوس): إن المرء لا يحتاج لهذا إلى عقل رياضي كبير. لقد شغل نفسه بالمغانط وهو في الخامسة عشرة من عمره. شغل أطفال. هل يقدمون في هذا البيت شايا؟

طقطق (هومبولدت) بأصابعه مبهوتاً. كان الوقت ظهرا وكان البروفسور قد قضى ست عشرة ساعة في النوم. أما (هومبولدت) فعلى العكس، كان قد استيقظ كعادته في الخامسة صباحا، لم يفطر، إنما قام بعدة تجارب حول تذبذب شدة الحقل المغناطيسي، ثم أملى على الكتّاب مذكرة حول تكاليف زراعة عجول البحر في حوض فارنه موينده وتكاليفها المتوقعة، وأربع رسائل إلى أكاديميتين، تناقش مع (داغير) في مشكلة التثبيت الكيماوي للصور على الألواح النحاسية، شرب فنجاني قهوة، ارتاح عشر دقائق، كتب هوامش ثلاثة أبواب من كتابه عن نباتات الكورديليرا، تحدث مع سكرتير جمعية استكشاف الطبيعة حول مجريات حفل الاستقبال المخطط له مساء، كتب إلى رئيس وزراء المكسيك الجديد مذكرة صغيرة عن ضخ المياه الجوفية من المناجم ورد على أسئلة اثنين من كتاب سيرة حياته. ثم جاء (غاوس) نعسان ومتعكر المزاج من غرفة الضيوف وسأل عن طعام الفطور.

قال (هومبولدت) إنه لم يكن له خيار آخر فيما يتعلق ببرلين. فبعد سنوات طوال في باريس ... أزاح شعره الأشيب عن وجهه، أخرج منديلا، مخط فيه، طواه بعناية قبل أن

Twitter: @ketab_n

يعيده إلى جيبه. وأضاف أنه لا يعرف كيف يعبر عما يريد قوله.

ـ انتهت نقوده؟

ـ صياغة هزلية جدا. لكن توثيق الرحلة قضى على ثرواته كلها تقريبا. ثلاثة وأربعون جزءا. اضطر لأن يكون أكاديمية وحده. وها هو الآن ياور. يتناول طعامه على مائدة البلاط ويلتقي الملك يوميا. على كل، هناك حياة أسوأ من هذه.

– قال (غاوس): واضح.

– (فريدريش فيلهلم) يثمن البحث العلمي على الأقل. كان نابليون يكرهه هو و(بونبلاند) لأن ثلاثمائة من علمائه قاموا في مصر بأقل مما قاما به هما وحدهما في جنوب أمريكا. بعد عودتهما صارا حديث المدينة عدة شهور. الأمر الذي لم يعجب (نابليون) أبدا. سجل (ديبريه) بعض المذكرات الجميلة جدا عن تلك الأوقات في كتابه: (هومبولدت، الرحالة العظيم). كتاب لا يعبأ كثيرا بقوة الأرقام والمعلومة العلمية مثل كتاب (ويلسون): (عالم ورحالة، يومياتي مع الكونت هومبولدت في أمريكا الوسطى).

سأل (اوجين) عما جرى للسيد (بونبلاند). كانت عليه علامات من لم يأخذ كفايته من النوم. فقد نام مع خادمين في حجرة خانقة في المنزل المجاور. لم يكن يعرف أن الناس قد تشخر بهذا الصوت العالي.

قال (هومبولدت): سأله القيصر في حفل الاستقبال الوحيد الذي نظمه له، إن كان يجمع النباتات. ردّ بالإيجاب، فقال القيصر، مثل زوجته تماما وأشاح بوجهه عنه بفظاظة.

قال (غاوس): إن (نابليون بونابرت) لم يقصف غوتنغن تكريما له.

قال (هومبولدت) إنه سمع بهذا لكنه يشك فيه. كانت له أسبابه الاستراتيجية. مهما كانت الأسباب. الحاصل، أراد (نابليون) نفيه من البلاد بحجة أنه جاسوس بروسيا. وحدت الأكاديمية كل قواها لتمنعه من هذا. مع أنه لم يرد – ألقى (هومبولدت) نظرة على الكاتب فأغلق هذا دفتره على الفور – مع أنه لم يرد الإنصات إلى أحد غير الطبيعة، لم يبحث عن أسرار أخرى غير حقائق الخليقة البادية للعيان.

Twitter: @ketab_n

– حقائق الخليقة البادية للعيان، كرر الكاتب مزموم الشفتين.

ـ البادية جدا للعيان.

أومأ الكاتب.

جاء الخادم حاملا صينيةً عليه فناجين فضية.

لكن (بونبلاند)؟ كرر (اوجين).

تنهد (هومبولدت): حادث مؤسف جدا. حكاية محزنة فعلا. لكن ها هو الشاي أخيرا. الفناجين هدية من القيصر الروسي الذي دعاه وزير ماليته لزيارة روسيا أكثر من مرة. طبعا رفض الدعوة، لأسباب سياسية، وكذلك، كما يفهم بديهيا، لكبر سنه.

قال (اوجين): إنه قرار صحيح. أسوأ نظام استبدادي في العالم. احمرّ رعبا وخجل من نفسه.

انحنى (غاوس)، رفع عصاه وهو يتوجع، وجهها نحو (اوجين) ولكز بها قدمه تحت الطاولة. أخطأ، فضربه مرة أخرى. فانتفض (اوجين).

قال (هومبولدت) إنه هنا لا يستطيع الاعتراض. لوح بيديه وحالاً توقف الكاتب عن التدوين. كانت استعادة نظام التعليم السابق في أوروبا مثل كان كالعفن. وهذا، ما لا يمكنه السكوت عليه، ذنب أخيه أيضا. لقد خبت آمال شبابه، وصارت أوهاما. الظلم والاضطهاد من ناحية وحرية الحمقى من الناحية الأخرى. إذا تجمع ثلاثة رجال في الشارع – لا بد أنهما شاهدا هذا – فمعناه أنهم يتآمرون. وإذا تجمع ثلاثون في غرفة خلفية ليحضروا الأرواح فلا مانع لدى أحد. عشرات الضالين يتنقلون في البلد، يدعون إلى الحرية، ويسمحون للمجانين أن يلقنوهم أفكارهم. صارت أوروبا مسرحا لكابوس لا يستطيع أحد أن يستيقظ منه. قبل سنوات استعد لرحلة استكشافية في الهند، جمع النقود، والمعدات، والمخططات. كان لها أن تتوج كل ما قام به في حياته الأرضية. ثم منعها الانكليز. لا أحد يريد أن يرى معارضا لنظام الرق في بلاده، أما في أمريكا الجنوبية، فقد نشأت عشرات الدويلات التي لا طائل منها ولا هدف لها. تحطم حلم حياة صديقه (بوليفار). هل يعرف السادة اللقب الذي أطلقه عليه صديقه محرر أمريكا؟!

Twitter: @ketab_n

ـ سأله (غاوس): ما هو؟

ابتسم (هومبولدت) متطلعا في فنجانه: المكتشف الحقيقي لأمريكا الجنوبية. يمكن الاطلاع على هذا في كتاب (غوميز): (البارون هومبولدت). كتاب كثيرا ما يبخس حقه. بالمناسبة فقد سمع أن السيد البروفسور يعمل الآن على حساب الاحتمالات؟

– إحصاءات الموتى، قال (غاوس). تناول رشفة شاي، ثم قلص وجهه قرفا، ووضع الفنجان على قدر ما أمكنه من بعد. وتابع: يظن الإنسان أنه هو من يحدد مصيره في هذا العالم. يخلق ويكتشف، يشتري ويبيع، يجد أناسا يحبهم أكثر من نفسه، ينجب أطفالا، ربما نجباء وربما أغبياء، يرى الإنسان الذي يحبه يموت، يشيخ ويصبح غبيا، يمرض ويدخل تحت التراب. يظن الإنسان أنه قرر كل شيء بنفسه. الرياضيات وحدها تبين له أنه دائما أخذ الدروب العريضة والممهدة. الاستبداد. كم تزعجه هذه الكلمة! الأمراء أيضا خنازير مسكينة، تعيش، وتعاني وتموت كالآخرين. الطغاة الحقيقيون هم قوانين الطبيعة.

قال (هومبولدت): لكن العقل هو من يضع القوانين.

هز (غاوس) رأسه: الحماقة الكانطية القديمة. العقل لا يضع أي شيء، ولا يفهم إلا القليل. المكان يتحدب، والزمان يتمدد. من يرسم خطا ويمده يصل يوما ما إلى نفس نقطة الانطلاق. – أشار إلى الشمس المنخفضة في النافذة – حتى أشعة هذا النجم المحترق لا تصل في خطوط مستقيمة. يمكن قياس العالم جزئيا، لكن هذا لن يعني أبدا أن الإنسان فهم شيئا.

شبك (هومبولدت) ذراعيه: أولا، الشمس لا تحترق كليا، إنها تجدد اللهب وستشرق إلى الأبد. ثانيا، ماذا قال عن المكان؟ كان معه في اورينوكو مجدفون يروون نفس النكات. إنه لم يفهم هذه الثرثرة قط. وغالبا ما كانوا يتناولون مواد تشوش العقل.

سأل (غاوس) عما يفعله الياور عادة.

– أشياء مختلفة. هذا وذاك. على كل حال فإن الياور يشير على الملك في القرارات الهامة، يقدم خبرته حيث تلزم. غالبا ما يطلب رأيه في المفاوضات الديبلوماسية. الملك يرغب في حضوره على كل وجبة عشاء تقريبا. إنه مجنون بأخبار العالم الجديد.

Twitter: @ketab_n

ـ إذن يدفعون لأجل تناول الطعام والدردشة؟

أفلتت من الكاتب ضحكة خفية، شحب ورجا المعذرة، مدعيا أنه مصاب بالسعال.

قال (اوجين) حين حل الصمت: إن الطغاة الحقيقيين، ليسوا قوانين الطبيعة. هناك حركات قوية في البلاد، الحرية لم تعد مجرد كلمة أطلقها (شيللر).

–قال (غاوس): حركات حمير.

قال (هومبولدت) إنه دائما ما كان يتفاهم مع (غوته) بشكل أفضل. كان (شيللر) أقرب إلى أخيه.

قال (غاوس): حمير، لن يصلوا أبدا إلى هدف. ربما يرثون بعض المال، واسما طيبا، لكنهم لن يرثوا الذكاء.

قال (هومبولدت) إن أخاه كتب قبل فترة قصيرة دراسة معمقة عن (شيللر). له شخصيا لم يعن الأدب شيئا ذا قيمة كبيرة أبدا. الكتب التي لا تحوي أرقاما تبلبل أفكاره. كثيرا ما شعر بالملل وهو في المسرح.

– معه كل الحق، صاح (غاوس).

– الفنانون ينسون وظيفتهم، أي إظهار ما هو كائن، بسرعة. الفنان يعتبر الانحراف قوة، لكن الابتداع يشوش الإنسان، الأسلوب الأدبي يزوّر العالم. مثلا صور المسرح التي لا تخفي أنها من كرتون، اللوحات الانكليزية التي تتموه خلفياتها في عصيدة الزيت، الروايات التي تتيه في الحكايات الكاذبة، لأن المؤلف يربط أكاذيبه بأسماء شخصيات تاريخية.

–قال (غاوس): شيء مقزز.

– إنه يعمل على قائمة بالعلامات الفارقة للنبات والطبيعة، يود لو يُرغم الفنانون على الالتزام بها بحكم القانون. كما ينصح بتصنيف قائمة مماثلة للشعر الملحمي. يفكر في جدولة لوائح بصفات أهم الشخصيات، لا يجوز للمؤلف أن يخرج عنها. وعلى كل حال، فلن يبقى للفنون معنى، إذا وصل اختراع السيد (داغير) يوما ما إلى حدود الكمال.

Twitter: @ketab_n

– هذا، أشار (غاوس) بذقنه إلى (اوجين)، يكتب أشعارا.

– سأل (هومبولدت) :حقا؟.

احمر وجه (اوجين).

قال (غاوس): أشعارا وخواطر فارغة. وذلك منذ الطفولة. إنه لا يريها لأحد، لكنه أحيانا غبي لدرجة أنه يترك أوراقه مرمية في الدار. إنه عالم تافه، لكنه كأديب أكثر تفاهة.

قال (هومبولدت): إن الطقس جميل لحسن الحظ. في الشهر الماضي هطل مطر كثير ويأمل الآن في خريف جميل.

– إنه يعيش على نفقة الآخرين. أخوه وصل على الأقل إلى الجيش. هذا هنا، لم يتعلم شيئا على الإطلاق، ولن يتعلم شيئا أبدا. أشعار!

قال (اوجين) بصوت منخفض إنه يدرس الحقوق. والرياضيات علاوة علي ذلك.

قال (غاوس) : وأي دراسة! رياضي لا يرى معادلة تفاضلية إلا إذا دخلت في عينه. الكل يعلم أن الدراسة وحدها لا تنفع، فقد اضطر لأن يحدق في الوجوه البليدة للشبيبة طوال عشرات الأعوام. أما من ابنه فقد كان يتوقع المزيد. لماذا الرياضيات تحديدا؟

قال (اوجين) إن هذه لم تكن رغبته هو، لقد أرغمه أحدهم على دراستها.

ـ آه، ومن أرغمك؟

قال (هومبولدت): إن تبدُّلَ الطقس والفصول هو السبب الأساسي في جمال هذه النواحي. إن التمثيلية السنوية للخلق التي تتجدد في أوروبا كل عام هي نظير تعدد النباتات الاستوائية.

–صاح (أوجين): من؟ من كان يحتاج إلى مساعد في أعمال المساحة.

ـ مساعد عظيم. لقد اضطر إلى إعادة القياسات مرة ثانية ميلا فميلا بسبب الأخطاء التي ارتكبها.

ـ أخطاء في المرتبة الخامسة بعد الفاصلة. ليس لها أي تأثير، إنها لا تساوي شيئا.

قال (هومبولدت): لحظة. لا يحق له القول أبدا إن أخطاء القياس لا تساوي شيئا.

ـ سأل (غاوس): والمزواة التي كسرها؟ هل هذه أيضا لا تساوي شيئا؟

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت): المساحة فن راق. مسؤولية يجب ألا يعبث بها أحد.

قال (غاوس): مزواتين عمليا. صحيح أن الثانية سقطت من يده هو، لكن هذا لأن جحشا قاده في الغابة على الطريق الخاطأ.

هب (اوجين) ناهضا، تناول عصاه وقبعته الحمراء وخرج حانقا. صفق باب الشقة خلفه.

قال (غاوس): هذه هي نتيجة التعب. لقد صار الشكر والعرفان كلمات غريبة في هذا الوقت.

قال (هومبولدت): إن تربية الشبيبة ليست سهلة طبعا، لكن يجب ألا يكون الرجل متشددا جدا معهم، أحيانا يساعد بعض التشجيع أكثر من اللوم والتأنيب.

– حيث لا شيء، لا يمكن أن يكون شيئا. وفيما يتعلق بالمغنطة، فإنَّ طريقة طرح السؤال خاطئة. لا تتعلق الحكاية بعدد المغانط في باطن الأرض. النتيجة بجميع الأحوال: قطبان وحقل مغناطيسي يمكن رسمه بقياس حدة المغنطة وزاوية ميل الإبرة.

– دائما كان يأخذ معه إبرة الميل، قال (هومبولدت)، وبهذا جمع أكثر من عشرة آلاف نتيجة قياس.

قال (غاوس): يا ربي! لا يكفي أن يحمل أحدهم إبرة أينما ذهب، يجب أن يشغل رأسه قليلا. يمكن رسم الإحداثية الأفقية لقوة المغنطة كتابع لخطوط الطول والعرض الجغرافية. الإحداثية العمودية يحسبها المرء على أحسن وجه بمتسلسلة قوى حسب نصف قطر الكرة الأرضية العكسي. أبسط توابع الكرة. ضحك ضحكة مكتومة.

– تابع الكرة! ابتسم (هومبولدت). لم يفهم كلمة واحدة مما قاله (غاوس).

قال (غاوس) إنه شاخ. في العشرينات من عمره لم يكن يحتاج يوما واحدا لهذه الصغائر واليوم عليه أن يشغل عقله أسبوعا كاملا لأجلها. – نقر على جبينه – هذا هنا لم يعد يشتغل كما كان. يتمنى لو أنه تناول الترياق آنذاك. عقل الإنسان يموت كل يوم قليلا.

قال (هومبولدت): له أن يشرب من السم كما يشاء. يجب أن يمتزج بالدم حتى يصبح قاتلا.

Twitter: @ketab_n

حدّق فيه (غاوس): أكيد؟

قال (هومبولدت) غاضبا: طبعا هو واثق من نفسه. إنه هو من اكتشفه عمليا.

صمت (غاوس) برهة. ثم سأل : فعلا، ما الذي صار من (بونبلاند)؟

نهض (هومبولدت) وقال إن الوقت قد حان. الاجتماع لا ينتظر. بعد خطبة الافتتاح التي سيلقيها، يوجد حفل استقبال لضيف الشرف. الإقامة الجبرية.

ـ عفوا؟

– (بونبلاند) محجوز في الباراغواي في الإقامة الجبرية. لم يتمكن من الحياة في باريس بعد العودة من أمريكا. الشهرة، والكحول، والنساء. فقدت حياته الوضوح والمنهج، الشيء الوحيد الذي يجب ألا يحدث مع الرجل منا أبدا. عين مديرا للحدائق القيصرية فترة طويلة، وكان مربي اوركيديا عظيما. بعد سقوط (نابليون) عبَر المحيط إلى الناحية الأخرى من جديد. كان له هناك مزرعة وعائلة، لكنه التحق في أحد الحروب الأهلية بالجهة غير الصحيحة، وربما الجهة الصحيحة، على كل حال بجهة المهزومين. فرض عليه دكتاتور مجنون، هو طبيب علاوة على هذا، الإقامة الجبرية في مزرعته تحت التهديد الدائم بالقتل. حتى (سيمون بوليفار) لم يتمكن من مساعدته في شيء.

قال (غاوس): مرعب. لكن من هو (سيمون بوليفار) هذا؟ فهو لم يسمع به قط.

Twitter: @ketab_n

تجول (اوجين غاوس) في برلين دونما هدف. مد له متسول يده المفتوحة، تشمم كلبٌ رجلَه، سعل حصان مشدود إلى عربة في وجهه، صرخ فيه حارس بألا يقف في مكانه كالأبله. على زاوية الشارع دخل في حديث مع قس قادم بدوره من الريف ومذعور مثله.

قال القس: الرياضيات، شيء مدهش.

– قال (اوجين): آخ.

–قال القَس: الاسم (يوليان).

تمنيا لبعضهما التوفيق وافترقا.

بعد عدة خطوات خاطبته امرأة. ارتجفت ركبتاه هلعا، فقد كان قد سمع بمثل هذه الأشياء. غذ السير ولم يلتفت إلى الوراء عندما لاحقته المرأة، وحاولت إعلامه بأن قبعته سقطت على الأرض. شرب كأسي بيرة في حانة. راقب الطاولة الرطبة مُشَبِّك اليدين. لم يشعر من قبل بكل هذا القنوط. ليس حنقا على أبيه، فقد كانت هذه طبيعة الأب، ولا بسبب الوحدة أيضا. المدينة ذاتها كانت سببا في قنوطه. جموع الناس، وارتفاع البيوت، والسماء القذرة. كتب عدة أبيات. لم تعجبه. حدق أمامه حتى جلس بجانبه طالبان يرتديان سراويل عريضة وشعرهما طويل على آخر طراز.

قال أحد الطالبين: غوتنغن. مدينة مشهورة. الحياة هناك تغلي.

أومأ (اوجين) بحركة تآمرية، رغم أنه لم يكن يعرف ما يعنيه.

قال الطالب الآخر : لكنها ستأتي، الحرية، رغم كل شيء.

قال (اوجين): ستأتي بالتأكيد.

قال الطالب الأول: دون إبطاء. مثل لص في الليل.

وهكذا أدركوا أن بينهم قاسما مشتركا.

بعد ساعة كانوا على الطريق. كما هو الطقس بين الطلاب سار (اوجين) متأبطا ذراع أحدهما، بينما تبعهما الآخر على مسافة ثلاثين خطوة كي لا توقفهم دوريات الشرطة. لم

Twitter: @ketab_n

يفهم (اوجين) كيف يمكن لأحدهم أن يسير كل هذه المسافة: شوارع لا تنتهي، تقاطعات لا تنتهي، وحتى أعداد المتجولين بدت له لا نهائية، إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس وكيف يمكنهم العيش هكذا؟

وضّح مرافق (اوجين) أن جامعة هومبولدت الجديدة هي أفضل الجامعات في العالم، نظامها أفضل من أنظمة كل جامعات العالم، فيها ألمع أساتذة البلاد. تخاف الدولة منها كما تخاف من جهنم.

ـ (هومبولدت) أسس جامعة؟

شرح له الطالب أيهما يعني: الأخ الكبير، الأخ المحترم. وليس عميل الفرنسيين الذي ظل طوال الحرب مقعيا في باريس. لقد طالبه أخوه علنا برفع السلاح، لكنه لم يفعل وكأن الوطن لا يعني له شيئا على الإطلاق. أثناء الاحتلال علق أمام بيته في برلين لوحة كتب عليها احذر السرقة والنهب، مالك العقار عضو في أكاديمية باريس. مقزز!

كان الشارع يصعد صعودا حادا ثم يميل بانحدار شديد.

شاهدا شابين أمام باب أحد البيوت، سألاهما عن كلمة السر.

ـ النضال والحرية.

ـ هذه كلمة سر الاجتماع الأخير.

التحق بهم الطالب الثاني. تهامس الاثنان.

ـ جرمانيا؟

ـ هذه قديمة.

ـ الألماني الحر؟

ـ طيب، طيب. تبادل الحراس نظرة. هيا ادخلوا دون كلمة السر.

نزلوا درجا إلى قبو يفوح برائحة العفن. كان على الأرضية صناديق خشبية وفي الزوايا براميل النبيذ المتراصفة. فتح الطالبان معطفيهما، وكشفا عن شارات موشاة بالذهب، ورفعا غطاء فتحة صغيرة في الأرضية، فقادهم ممر ضيق إلى قبو أعمق.

وجدوا ستة صفوف من الكراسي أمام منصة ضعيفة الثبات. على الجدران علقت

Twitter: @ketab_n

بيارق حمراء وسوداء وكان عشرون طالبا قد سبقوهم لينتظروا الخطيب. كان مع الجميع عصي، بعضهم يرتدي قبعات بولونية، وآخرون قبعات ألمانية عتيقة. كان عدد منهم يرتدي بناطيل عريضة خاطوها بأنفسهم وأحزمة من القرون الوسطى. كانت المشاعل المعلقة على الجدار تلقي ظلالا متراقصة. جلس (اوجين)، شعر بالدوار من الاهتياج والهواء الفاسد. همس أحد الحضور: يقال إنه هو شخصيا سيأتي. هو أو أحد من يماثلوه، لا أحد يعرف، إنه معتقل في فرايبورغ على نهر اونشتروت، يزعم أنه يتنقل في أرجاء البلاد باسم مستعار. وارد جدا أن يحضر هو ذاته. لا يتحمل القلب رؤيته بلحمه وشحمه.

مع الوقت وصل المزيد من أزواج الطلاب متشابكي الأذرع. غالبا ما تناقشوا حول كلمة السر، التي يبدو أن أحدا لم يكن يعرفها. هنا وهناك كان أحدهم يتصفح في مجموعة شعرية أو في جريدة التربية البدنية الألمانية. بعضهم كان يحرك شفاهه كأنه يصلي. خفق قلب (اوجين) بعنف. كانت الكراسي كلها مشغولة واضطر المتأخرون لأن يُحصَروا في الزوايا.

بعد برهة نزل رجلٌ الدرجَ بخطوات واثقة وللحال حل الصمت. كان نحيفا وطويلا جدا، له صلعة وذقن طويلة بيضاء. والغريب أن هذا لم يفاجئ (اوجين)، فقد كان جارهم في الحانة الذي تَدخّل في نزاعهم مع الشرطة. تقدم إلى المنصة ببطء وذراعاه تنوسان. هناك انتصب بكل قامته، انتظر حتى تمكن أحد الطلاب من إشعال الشموع على المنصة بيد مرتعشة، فقد أخفق عدة مرات في إشعالها خشية ووجَلاً. ثم قال بصوت خشن وعال: ليس من الضروري أن تعرفوا اسمي.

تنهد طالب في المؤخرة، أما الآخرون فالتزموا الصمت المطلق.

رفع صاحب الذقن يده، شكل بذراعه زاوية، أشار إليها باليد الأخرى وسأل الحضور إن كانوا يعرفون ما هذا؟

لم يرد أحد، لم يتنفس أحد، وهكذا قال هو بنفسه: عضلات.

أنتم أيها الشجعان – تابع بعد استراحة طويلة – أنتم أيها الفتيان، أنتم أيها الأشداء، عليكم أن تزدادوا قوة. – تنحنح – على من يريد التفكير تفكيرا عميقا، سحيقا، حتى

Twitter: @ketab_n

أعمق الأعماق، عليه أن يربي بدنه. الفكر دون عضلات ضعيف وكسول، كلامٌ فرنسيٌ مخنث. الطفل يصلي للوطن، والفتى يعشقه، وأما الرجل فيكافح ويعاني لأجله. – انحنى وتجمدت قسماته لحظة قبل أن يرفع بنطاله بحركات مسرحية – هنا أيضا! – ضرب بقبضته على ربلة ساقه – كلها عضلات قوية، تصلبت بفضل التدرب على المتوازي وعلى المتتابع، من يرغب يمكنه أن يلمسها – حدّق عدة ثوان في أرجاء الحجرة قبل أن يصرخ بصوت كقصف الرعد – كما هي هذه الساق، يجب أن تكون ألمانيا.

تمكن (اوجين) من الالتفات حوله. كان عدد من المستمعين فاغري الأفواه، الدموع تسيل على وجنات الكثير منهم، أحدهم كان يرتجف مغمض العينين، جاره يعض أصابعه خشوعا. رفت عين (اوجين). كان الهواء قد فسد أكثر وشعر نتيجة للعبة الظلال أنه جزء من جمهور أكبر. بذل جهده ليحبس دموعه المتصاعدة في عينيه.

قال صاحب اللحية: الفتى يجب ألا تطويه أي قوة. الجبين للصديق والصدر للعدو. ما يطبق على أنفاس الشعب ليست قوة العدو، إنما الضعف الذاتي. إن الشعب مخنوق – خبط بكفه على صدره – لا يستطيع التنفس، لا يستطيع التحرك، لا يعلم ماذا يفعل بإرادته الفطرية وتقواه الشجاعة. الأمير، والفرنسي، والخوري يتحكمون فيه، ويحولونه إلى دلوع، ويغنجونه، ويخنثونه، وينومونه، لكن الفتوة تعني أن تكون متكافلا مع الشعب، عفيفا وتقيا. الفكر! – كور قبضته ودق على جبينه –، فِكْرُ لا يستطيع حتى الشيطان أن يمزق رباط وحدته المقدسة. فكر يقود إلى الكنيسة الألمانية الحقة وينتصر على الوجود. لكن ما معنى هذا أيها الفتيان؟ – مد ذراعيه، جثا ببطء على ركبتيه ثم انتصب من جديد – معناه حفظ الجسم، تمرين الجسم، بالقفز، بالجري، بجهاز المتوازي والمتتابع، حتى يصبح الفتى فتى حقيقيا. وأين نحن الآن؟ – تساءل وأضاف أنه قبل فترة وجيزة، بينما هو يتنقل متخفيا، صار شاهدا على اعتداء الشرطة على عجوز وطالب، أب ألماني وابنه، رجلين عزيزين، لأنهما لم يكونا يحملان معهما وثائق شخصية. لقد تدخل بحزم كما يجب على الألماني أن يفعل وانتصر بحمد الله على زبانية الطغاة. إنه يرى الظلم يوميا، في كل زمان ومكان. ومن سيقف في وجه الظلم إن لم يكن فتية خيرون، يُعرضون عن النساء

Twitter: @ketab_n

وشرب الخمر ويخلصون للقوة! رهبان ألمانيا، الأنقياء والأتقياء، السعداء والأحرار؟ لقد أُجلي الفرنسي وجاء دور الأمير. لن يدوم حلف الشيطان المقيت طويلا. الفلسفة ستهزم الواقع وتشطّب وجهه. زمن السيادة من جديد! توقف عن الكلام. سمع (اوجين) نفسه والآخرين يصيحون: يعيش، يعيش! كان صاحب الذقن هادئا، مرفوع الهامة، يوجه أنظاره الثاقبة إلى جمع الطلاب. فجأة تغيرت ملامحه وجفل متراجعا.

شعر (اوجين) بتيار هوائي. سكتت الصرخات. كان خمسة رجال قد اقتحموا المكان: عجوز قصير وأربعة رجال شرطة.

قال جار (اوجين): إلهي في السماء، البواب!

قال العجوز للشرطة إنه كشفهم من النظرة الأولى، ما على المرء إلا أن يراهم يسيرون زوجا زوجا حتى يكشفهم. لحسن الحظ أنهم أغبياء.

ظل ثلاثة من رجال الشرطة على الدرج وتقدم الرابع إلى المنصة. فجأة بدا صاحب الذقن أنحف بكثير، كما أنه لم يعد طويلا. كور قبضتيه فوق رأسه، لكن حركة التهديد لم تنفعه في شيء، وحالاً صارت القيود في يديه.

صاح بينما يقوده الشرطي إلى الدرج إنه لن يتزحزح، لا أمام العنف ولا الاستعطاف. لن يسمح الفتيان الأبرار باعتقاله. هذه هي اللحظة المؤاتية، من هنا تبدأ العاصفة. ثم قال بينما هو يصعد الدرجات إن المسألة كلها سوء تفاهم، سيشرح لهم كل شيء. ثم صار خارجا.

قال البواب إنه سيأتي بقوة إضافية وصعد الدرجات بسرعة.

قال شرطي: لا أحاديث. ولا كلمة. ولا أحد ينطق بحرف واحد لجاره وإلا انهالت العصي على الرؤوس.

بدأ (اوجين) بالبكاء.

ولم يكن وحده في هذا. بكى عدد من الشبان دون رادع. عاد الذين كانوا قد وقفوا إلى الجلوس. فكر (اوجين)، خمسون طالبا معهم عصيهم مقابل ثلاثة رجال شرطة. لو بدأ أحد الطلاب الهجوم سيتبعه الآخرون. وماذا لو بدأ هو؟ سيجرؤ على القيام بالهجوم.

Twitter: @ketab_n

تخيل ما سيفعله عدة ثوان. ثم أدرك أنه أجبن من أن يفعلها. مسح دموعه وظل صامتا في مقعده، حتى عاد البواب برفقة عشرين شرطيا وضابط ضخم، له شارب كلب البحر.

أمر الضابط: خذوهم. الاستجواب المبدئي في الحجز لتحديد هوياتهم، غدا التسليم إلى من يهمه الأمر. تضرع إليه شاب ضئيل الجسم جاثيا على ركبتيه، أحاط بحذائه وطلب الرحمة. نظر الضابط متأثرا أشد التأثر إلى السقف. جر شرطيٌ الشابَ. استغل (اوجين) اللحظة ليمزق ورقة من دفتره ويكتب فيها عدة كلمات إلى أبيه. وقبل أن توضع القيود في يده كان قد تمكن من تكويرها وإخفائها في قبضته.

كانت عربات الشرطة في انتظارهم على الشارع. جلس المعتقلون بعد تكدّسهم فيها على مقاعد طويلة. خلفهم وقف الشرطة. بمحض الصدفة جلس (اوجين) قبالة صاحب الذقن زائغ العينين.

همس أحد الطلاب إن كان عليهم الهرب.

قال صاحب اللحية: إن المسألة فيها سوء تفاهم، إن اسمه (كوسيلريدر) وهو من شليزيا، لقد تورط في أمر ما. هوى أحد رجال الشرطة بقضيب حديدي على كتفه، سقط (كوسيلريدر) وهو يدمدم.

سأل الشرطي إن كان هناك من يريد قول شيء؟ لم يتحرك أحد. صفقت أبواب العربة وانطلقت.

Twitter: @ketab_n

تحدث (هومبولدت) عن النجوم والتيارات بعينين نصف مغمضتين. كان صوته منخفضاً، لكنه يسمع في جميع أرجاء الصالة. كان واقفا أمام صورة عملاقة لسماء الليل تنتظم فيها النجوم على شكل دوائر متحدة المركز. لوحة (شينكل لاوبرا) الناي السحري وضعت في الخلفية خصيصا لهذه المناسبة. بين النجوم كتبت أسماء العلماء الألمان: (بوخ)، (سافغيني)، (هوفلاند)، (بيسيل)، (كلابروت)، (هومبولدت) و(غاوس). كانت الصالة تغص بالمدعوين. نظارات ونظارات بعدسة واحدة، كثير من البزات العسكرية، مراوح يدوية تهتز برفق بالغ، وكذلك في الحجرة المركزية: شخص ولي العهد وعقيلته المتسمرين. جلس (غاوس) في الصف الأول.

همس له (داغير) عالي المزاج إنه سيحتاج وقتا طويلا حتى يتمكن من إنتاج صورة شمسية. يوما ما سيتغلبان على مشكلة الإنارة، لكنه ولا شريكه (نيبيس) يعرفان كيف يثبتان محلول يوديد الفضة على الألواح الزجاجية.

فح (غاوس) بوجهه. رفع (داغير) كتفيه وصمت.

قال (هومبولدت): إن من ينظر إلى السماء لا يتصور إلى أي مدى يمكن أن تمتد هذه القبة فعلا. إن الغمام الذي ينشره ضوء سحابة (ماجلان) فوق نصف الكرة الأرضية الجنوبي ليس مادة غير متبلورة، ليس بخارا وليس غازا، إنما يتكون من شموس متجمعة تبدو على شكل سحابة لبعدها السحيق. إن جزءا من درب التبانة بعرض درجتين وطول خمس عشرة درجة، ما يمكن لعدسة المنظار المقرب أن تراه، يحوي أكثر من خمسين ألف نجم وحوالي مائة ألف لا يتمكن المراقب من تمييزها بسبب ضعف ضوئها. بهذا فإن درب التبانة يتألف من عشرين مليون شمس لا تراها عين، تبعد عنها بمقدار نصف قطرها، إلا بشكل بريق خافت، كسديم واحد من ثلاثة آلاف سديم أحصاها العلماء. من هنا يتساءل المرء: لمَ لا تنير السماء كلها؟ هذا إذا كان هناك كل هذا العدد من النجوم، طوال الوقت، لماذا تحل العتمة في الخارج؟ ولابد له أن يقبل فكرة وجود مبدأ مضاد للنور، شيء رادع له في الفراغات بين المكان، أثير يطفئ الضوء.

Twitter: @ketab_n

وهكذا نجد برهانا آخر على النظام المبدع للطبيعة، فكل الحضارات الإنسانية انشغلت بمراقبة مدارات النجوم والكواكب.

فتح (هومبولدت) عينيه على وسعهما لأول مرة: أحد هذه الأجسام السابحة في الأثير الأسود هو الأرض. نواة نارية محاطة بغلاف جامد، وآخر سائل قابل للسيلان وثالث سائل مرن، هذه الأغلفة الثلاثة تمنح الحياة موطنا. توجد أعشاب تنمو دون الحاجة إلى الضوء حتى في أعمق أعماق الأرض. البراكين متنفس طبيعي لنواة الأرض النارية، أما القشرة الصخرية فيغطيها بحران، بحر من الماء وبحر من الهواء. يسير بينهما تيار دائم. مثلا تيار الخليج المشهور الذي يدفع بمياه البحر الأطلسي عبر مضايق نيكاراغوا ويوكاتان، ثم عبر قنال الباهاما نحو الشمال الشرقي بعكس وادي نيو فونلاند ومن هناك نحو الجنوب الشرقي إلى جزر الآزور، حيث يجد المرء علة الظواهر العجيبة مثل ثمار النخيل، الأسماك الطائرة بل أحيانا الإسكيمو الأحياء في قواربهم، الذين يجدهم المراقب أكثر فأكثر على سواحل ايرلندا. هو ذاته اكتشف تيارا لا يقل أهمية، يدفع مياه الشمال الباردة بمحاذاة تشيلي والبيرو إلى مداري الجدي والسرطان – ابتسم (هومبولدت) ابتسامة هي بين الغرور والحيرة وهو يضيف إن كل جهوده لم تنفع في زحزحة البحارة عن إصرارهم على تسميته بتيار (هومبولدت) – إن لتيارات المحيط الهوائي، التي تحركها تغيرات حرارة الشمس وتتكسر على الكتل الصخرية المنحدرة، أثر مماثل، حتى إن توزع الغطاء النباتي لا يتعلق فقط بخطوط العرض، إنما بخطوط متساوية الحرارة. إن نظام التيارات هذا يجعل الأرض وحدة متفاعلة. – صمت برهة وكأن الفكرة التالية تؤثر فيه أبلغ تأثير –. كما في شقوق الأرض، فكذلك في البحر وأيضا في الجو، النباتات تنمو في كل مكان. الغطاء النباتي هو لعبة الحياة البينة، التي تجري صامتة وساكنة. ليس للنبات حياة داخلية، ليس فيه شيء خفي. كل ما فيه خارجي. إنه معرض لمخاطر الطبيعة، مقيد بالأرض وشروطها. إلا أنه يعيش ويتغلب على هذه الظروف. وعلى العكس فالحشرات والحيوانات والإنسان محمية ومدرعة. إن حرارتها الداخلية الثابتة تجعلها قادرة على تحمل الظروف القاسية المتغيرة. من ينظر إلى حيوان، لا يعرف عنه شيئا، بينما يكشف النبات ذاته لكل عين.

Twitter: @ketab_n

همس (داغير) ساخرا، الآن سيصير عاطفيا.

هكذا ارتقت الحياة خلال مراحل تنظيمها التي تزداد غموضا حتى قامت بتلك القفزة، التي لنا أن نسميها دون حرج أعلى قفزة ممكنة: طفرة العقل. إن الارتقاء نحوها لا يحدث في درجات. إن ثاني أكبر الإهانات بحق الإنسان هي الرق. أما أكبر الإهانات على الإطلاق فهي القول إنه يتحدر من القرود.

ضحك (داغير): الإنسان والقرد!

دس (هومبولدت) رأسه في رقبته وبدا كأنه يصغي إلى ما نطق به، ثم تابع القول: إن إدراك الإنسان للكون قد تقدم كثيرا. لقد استُكشِف الفضاء الكوني بالمناظير المقربة، عُرف تركيب الأرض، ووزنها ومدارها، حُددت سرعة الضوء، تم استيعاب تيارات البحار وشروط الحياة، وقريبا جدا سيُكشف آخر الألغاز، لغز المغناطيس. إن نهاية الطريق تلوح للأنظار، لقد انتهى قياس العالم تقريبا. سيصبح الكون أقرب إلى الأفهام، ستصبح مصاعب بدايات الإنسانية، كالخوف والحرب والنهب، في حكم الماضي. وفي هذا يجب أن تساهم ألمانيا تحديدا والعلماء المشاركون في هذا الاجتماع بالقسط الأكبر. سيأتي العلم بعهد الخير والبركة وما أدرانا، إن كان سيحل يوما ما مسألة الموت أم لا. ظل (هومبولدت) صامتا عدة ثوان ثم انحنى للسامعين.

همس (داغير) وهو يصفق: إن البارون منذ قدومه من باريس لم يعد البارون القديم. يصعب عليه أن يركز. كما أنه يميل إلى التكرار.

سأل (غاوس) إن كان المال هو السبب الحقيقي في عودته إلى ألمانيا.

قال (داغير) إنه عاد بالدرجة الأولى بناء على أمر. لم يعد الملك يطيق أن يعيش أشهر رعاياه في الخارج. لقد تهرب (هومبولدت) من جميع رسائل البلاط بحجج واهية، إلا أن الرسالة الأخيرة كانت تحوي أمرا على قدر كاف من الوضوح لا يقبل التأويل، ولا يمكن ممانعته إلا بالقطيعة المطلقة. لم تكن تتوافر للسيد العجوز – ابتسم (داغير) – الوسائل الكافية لهذه القطيعة. فقد خذل كتابه عن رحلاته الجمهور الذي انتظره على أحر من الجمر، مئات الصفحات المليئة بنتائج القياسات، لم يرد فيه خبر شخصي واحد، عمليا لم

Twitter: @ketab_n

ترد فيه مغامرات أو موقف مأساوي. سيشوه هذا الكتاب صيته في العالم بعد وفاته. كاتب الرحلات الجيد هو من يخلف قصصا ممتعة. المسكين لا يعرف ببساطة كيف يكتب. وها هو الآن قاعد في برلين، يبني مرصدا فلكيا، لديه آلاف المشاريع ويثير أعصاب أعضاء مجلس المدينة كافة. والعلماء الشباب يضحكون منه.

نهض (غاوس) وقال إنه لا يعرف كيف هي الحياة في برلين، لكنه لم يصادف في غوتنغن عالما شابا لم يكن حمارا.

قال (داغير) وهو يلحق بـ (غاوس) إلى الخارج، حتى حكاية أعلى قمة في العالم انتهت. لقد اكتشف في هذه الأثناء أن في الهمالايا قمة أعلى بكثير. ضربة صاعقة للعجوز. لم يرد أن يصدق هذه الحقيقة لسنوات طويلة. كما أنه لم يُشْفَ أبدا من الآلام التي سببها فشل رحلته الاستكشافية إلى الهند.

على الطريق إلى الصالة الخارجية اصطدم (غاوس) بامرأة، وطأ قدم رجل، وتنخم مرتين بصوت عال جدا، بحيث نظر إليه عدة ضباط باحتقار. لم يكن قد اعتاد التحرك بين جمع غفير. مد (داغير) يده إلى مرفق (غاوس) كمن يريد مساعدته لكن (غاوس) شتمه قائلا، ما الذي يخطر بباله. فكر لحظة ثم قال: محلول الملح.

– أجابه (داغير) مشفقاً عليه: طبعاً.

طلب منه (غاوس) ألا يُحدّق فيه كالأبله. يمكن تثبيت يوديد الفضة بمحلول الملح العادي.

فجأة توقف (داغير). توجه (غاوس) بين الحشد إلى (هومبولدت) الذي رآه على مدخل الصالة.

محلول الملح، صاح (داغير) خلفه: لماذا؟

هتف (غاوس) ملتفتا إليه: للتوصل إلى هذا يجب ألا يكون المرء كيميائيا، يكفي قليل من الفهم. دخل الصالة مترددا. بدأ الجميع بالتصفيق، فأراد الهرب لولا أن (هومبولدت) أمسك ذراعه فورا، ودفعه إلى الأمام. كان في انتظاره أكثر من ثلاثمائة إنسان.

كانت نصف الساعة التالية عذابا حقيقيا. مرت به الرؤوس واحداً بعد الآخر، لمست

Twitter: @ketab_n

الأيدي يده واحدة بعد الأخرى، وسلمته يد لغيرها، بينما يهمس (هومبولدت) في أذنه أعدادا من أسماء لا معنى لها. (حسب) غاوس أنه يحتاج في بلده إلى سنة وسبعة أشهر تامة ليقابل هذا الكم الهائل من البشر. كان يريد الذهاب إلى البيت. كان نصف الرجال يرتدون بزات عسكرية، ثلثهم له شوارب. عدد النساء يشكل فقط سُبع مجموع الحضور، ربعهن دون الثلاثين، اثنتان فقط غير قبيحات ولم يود أن يلمس إلا واحدة فقط منهن. لكن ما إن مرت ثوان على تحيتها له حتى اختفت من أمام عينيه. أمسك رجل على صدره اثنان وثلاثون وساما يد (غاوس) بإهمال بالغ بين ثلاثة أصابع، فقام (غاوس) ميكانيكيا بحركة انحناء، أومأ ولي العهد وتابع السير.

قال (غاوس) إنه يشعر بالإرهاق. يجب أن يدخل السرير.

لاحظ أن قبعته المخملية ليست على رأسه، لا بد أن أحدهم رفعها عنه، ولم يكن يعلم إن كان هذا التصرف من باب اللياقة أم إنهم سرقوه؟ رَبَتَ رجل على كتفه كأنهما صديقان منذ سنوات طويلة وربما كان هذا هو الواقع. وبينما يضرب رجل يرتدي بزة عسكرية كعبيه بعضهما ببعض، ويُقْسم رجل يضع نظارة ويرتدي معطفا أن هذه أعظم لحظات حياته، شعر (غاوس) بالدموع تصعد إلى عينيه. تذكر أمه.

فجأة حل الصمت.

كان عجوز نحيل له وجه شمعي يسير منتصبا انتصابا غير طبيعي قد دخل الصالة. بخطوات قصيرة، كأنه لا يحرك قدميه، تزحلق الرجل نحو (هومبولدت). مد الاثنان أذرعهما، لمسا أكتاف بعضهما، وأحنيا رأسيهما نحو الأسفل عدة سنتيمترات، ثم ابتعدا أحدهما عن الآخر خطوة واحدة.

قال (هومبولدت) إنه سعيد جدا باللقاء.

قال الآخر: منتهى السعادة.

صفق المحيطون بهما. انتظرا حتى انتهى التصفيق ثم التفتا نحو (غاوس).

قال (هومبولدت) إن هذا هو أخوه الحبيب، الوزير.

قال (غاوس) إنه يعرفه، فقد تعرَّف أحدهما على الآخر قبل سنوات في فايمار.

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت) إنه مربي بروسيا الذي أهدى ألمانيا جامعته والعالَم آخر نظريات اللغات.

قال الوزير إنه عالَم لم يقرّبه أحد إلى الأذهان إلا أخيه.

أحس (غاوس) بيد باردة لا حياة فيها، نظرة متجمدة كنظرة اللعبة الخشبية. تابع الوزير إنه لم يعد مربيا، إنه مجرد رب عائلة وشاعر.

شاعر؟ أحس (غاوس) بالسعادة عندما أفلتت يده.

– إنه يملي على سكرتيره كل يوم بين السابعة والسابعة والنصف سوناتة. وهكذا تسير حياته منذ اثنتي عشر سنة وسيتابعها على هذا المنوال حتى نهايتها.

سأل (غاوس) إن كانت سوناتاته جيدة؟

– إنه متفائل بجودتها، لكن عليه أن يذهب الآن.

قال (هومبولدت): للأسف الشديد.

قال الوزير إن الحفل رائع حقا وسعادته لا توصف.

مد الاثنان أذرعهما وكررا الطقس السابق. التفت الوزير نحو الباب وسار بخطوات قصيرة محسوبة إلى الخارج.

قال (هومبولدت) إنها فرحة لم يكن يتوقعها ولاح عليه الكرب فجأة.

قال (غاوس) إنه يريد الذهاب إلى البيت.

قال (هومبولدت) إن عليه الانتظار قليلا. فهذا هو آمر الشرطة (فوغت) الذي قدم للعلم خدمات كثيرة. إنه يخطط لتزويد جميع شرطة برلين ببوصلات وبهذا سيتمكنون من جمع معلومات جديدة عن ترددات الحقل المغناطيسي في العاصمة. كان آمر الشرطة بطول مترين، له شارب كلب البحر وقوة يد مرعبة. تابع (هومبولدت): وهذا هو عالم الأحياء (مالتساخر)، هذا هو عالم الكيمياء (روتر)، وهذا هو عالم الفيزياء (فيبر) من مدينة هاله مع زوجته.

كرر (غاوس) تشرفنا، تشرفنا. أوشكت الدموع أن تطفر من عينيه. على الأقل كان للسيدة الشابة وجه صغير متناسق، وعينان سوداوان وثوب عميق القَصة. ركز أنظاره

Twitter: @ketab_n

عليها آملا أن يفرّج عنه هذا.

قال (فيبر) إنه عالم في الفيزياء التجريبية يدرس القوى الكهربائية. إنها تحاول الإفلات منه، لكنه لن يترك لها المجال.

قال (غاوس) دون أن يحول أنظاره عن المرأة الجميلة إن هذا ما فعله هو أيضا مع الأعداد. هذا منذ زمن بعيد.

قال (فيبر) إنه يعرف هذا. لقد قرأ (مقالة في نظرية الأعداد) قراءة أدق من الكتاب المقدس، الذي لم يقرأه قراءة معمقة في الواقع.

كان للمرأة حاجبان رقيقان ومُزَجّجان بإتقان، وكان ثوبها يبرز كتفيها. تساءل (غاوس): كيف ستكون مشاعره لو دس شفتيه في هاتين الكتفين.

قال (فيبر) متابعا الحديث إنه يحلم بأن يشغل ذهن مثل ذهن السيد البروفسور، أي ليس عقلا رياضيا محضا بل شاملا يحل المشاكل أينما وجدت، عينه على الاكتشاف التجريبي للعالم. إن لديه الكثير من الأسئلة. إن أقصى رغباته هي أن يطرحها على البروفسور (غاوس).

قال (غاوس) إن وقته ضيق.

قال (فيبر) إنه واثق من ضيق وقت البروفسور، لكنه يقول بكل تواضع، وهو مضطر لقول هذا، إنه ليس نكرة.

للمرة الأولى نظر إليه (غاوس). كان أمامه شاب ذو وجه نحيل وعينين براقتين.

قال (فيبر) إنه مضطر لقول هذا في سبيل القضية. لقد درس ترددات الحقل الكهربائي، يتابع الكثيرون أبحاثه.

سأله (غاوس) عن عمره؟

– أربع وعشرون، احمر (فيبر).

قال (غاوس): عندك زوجة جميلة. حيّته الزوجة بانحناءة صغيرة دون أن يظهر عليها الارتباك.

– والداك فخوران بك؟

Twitter: @ketab_n

قال (فيبر) إنه يأمل هذا.

رد (غاوس) بأن عليه أن يزوره غدا بعد الظهر. سيمنحه ساعة، ثم عليه أن يغادر.

قال (فيبر) إن هذا يكفيه.

أومأ (غاوس) ومضى إلى البابِ. صاح (هومبولدت) إن عليه البقاء، إن القوم بانتظار الملك. لكنه لم يستطع البقاء. كان قد أرْهِق. مرّ آمر الشرطة ذو الشارب ككلب البحر في طريقه، حاول كل منهما أن يحيد نحو اليسار واليمين، ثم نحو اليمين واليسار ودام الأمر مدة معذبة حتى تمكنا من المرور. أمام المشاجب كان رجل مسلول محاطا بطلاب ويشتم بلهجة مضحكة: علماء الطبيعة، متحذلقون، فاقدو الصواب، بعيدون عن المنطق، لا عقل لهم، النجوم أيضا ليست إلا مادة. خرج (غاوس) إلى الشارع.

كانت معدته تؤلمه. تساءل، هل يوجد في المدن الكبيرة عربات يوقفها السائر لتوصله إلى بيته؟ لكنه لم ير أيا منها. كانت المدينة نتنة. ولو أنه في بلدته لنام منذ زمن بعيد، ورغم أنه لم يكن يُسَر برؤية (مينا)، ولم يكن يرغب في سماع صوتها، ولم يكن يستفزه شيء كوجودها، إلا أنه افتقدها بحكم العادة. مسح عينيه. وتساءل لماذا شاخ؟ لم يعد قادرا على السير جيدا، ولاعلى الرؤية جيدا وتباطأ تفكيره. الشيخوخة ليست مأساة، إنها مسخرة.

استجمع أفكاره، وحاول أن يستعيد في ذهنه تفاصيل الطريق التي أخذه فيها (هومبولدت) من باكهوف رقم أربعة إلى جمعية الغناء. لم يتذكر جميع المنعطفات، لكن الجهة بدت له واضحة، انعطاف حاد على اليسار، شمال شرقي. لكان قد وجد تفاصيل الطريق بنظرة واحدة إلى السماء لو كان في بلدته، لكنه لا يرى النجوم في هذا المرحاض. «الأثير المطفئ للنجوم!» إذا كان الرجل يعيش هنا، فمن الطبيعي أن تأتيه مثل هذه الأفكار السخيفة.

كان يتطلع حوله بعد كل خطوة يخطوها. يخاف اللصوص والكلاب وأكوام الروث. يخاف أن تكون المدينة كبيرة فلا يجد طريقه، وتحبسه متاهتها ولا تدعه يستدل على الطريق. «لكن يجب على المرء ألا يبالغ في شيء. هذه المدينة أيضا تتألف من بيوت وفي

Twitter: @ketab_n

مائة عام ستكون أصغر المدن أكبر من هذه وبعد ثلاثمائة عام – قطب جبينه، لم يكن من السهولة أن يحسب المرء نسبة تزايد السكان إذا كان متوتر الأعصاب وحزينا وبطنه تؤلمه – إذا فبعد ثلاثمائة عام سيعيش في أغلب المدن بشَر أكثر مما يعيشون اليوم في كل الدويلات الألمانية مجتمعة. بشر كالحشرات يقطنون أقراص العسل، ويقومون بأعمال وضيعة، وينجبون أطفالا ويموتون. طبعا سيجب وقتها حرق الجثث، فلن تقدر أي مقبرة على استيعابها. والفضلات؟» عطس وسأل نفسه: إن كان سيمرض علاوة على كل مصائبه؟

عندما وصل مضيفه بعد ساعتين، وجد (غاوس) جالسا على الأريكة الهزازة يدخن غليونا، مادا رجليه على طاولة مكسيكية صغيرة.

صرخ فيه (هومبولدت) أين اختفى هكذا فجأة؟ لقد بحثوا عنه، وتصوروا أسوأ الأمور، كما كان هناك وجبة طعام فاخرة. لقد خاب ظن الملك.

قال (غاوس) إنه لا يأسف إلا على الطعام.

– هذا ليس تصرفا لائقا. كثير من الناس جاءوا خصيصا لأجله. لا يمكنه أن يفعل هذا.

قال (غاوس): إن (فيبر) هذا يعجبه، لكن الأثير الذي يبلع الضوء! ما هذا الكلام الفارغ.

شبك (هومبولدت) ذراعيه.

قال (غاوس): مقص أوكام. يجب أن يكون عدد الفرضيات اللازمة لشرح ظاهرة في أدنى حد ممكن. بالمناسبة، صحيح أن المكان خال، لكنه محدب. النجوم تسير عبر قبة بالغة العظمة.

– عدنا للموضوع من جديد. هندسة الأبراج الفلكية! كيف يؤمن رجل مثل (غاوس) بهذه الخرافات.

قال (غاوس) إنه لا يؤمن بها. لقد قرر مبكرا ألا ينشر شيئا عنها. لم تكن به رغبة أن يجعل نفسه محط سخرية. كثير من الناس يظنون أن عاداتهم هي القواعد الأساسية للعالم.

Twitter: @ketab_n

أطلق سحابتي دخان من غليونه نحو السقف، ثم أضاف. يا للحفلة الرائعة! كاد أن يتوه في الطريق ولكي يفتح له الخادم الكسول الباب، اضطر لإيقاظ كل البيت على صوت قرع الأجراس. لا توجد مثل هذه الشوارع القذرة في أي مكان آخر من العالم.

قال (هومبولدت) محتدا إنه يظن أنه شاهد من الدنيا أكثر منه. وهو يؤكد له وجود شوارع أقذر. ثم إنه من الخطأ الكبير أن يغادر بهذه السرعة، إذا تجمع كل هذا العدد الكبير من الناس، فلا بد أن يوجد بينهم من يمكن مشاركته في مشاريع لأجل العالم.

تنخم (غاوس) وقال: إن هذا المجتمع ليس إلا ثرثرة، ومؤامرات، ودسائس. كلام فارغ مع عشرة أمراء ومائة أكاديمي، حتى يمكن نصب مقياس حرارة واحد. هذا ليس علما.

صاح (هومبولدت): والله! إذاً ما هو العلم إذا سمحت؟

امتص (غاوس) غليونه: رجل متوحد على طاولته. أمامه ورقة. ومنظار مقرب. ووراء النافذة سماء الليل. وهذا الرجل لا يستسلم حتى يفهم العالم. ربما كان هذا هو العلم.

– وإذا ارتحل هذا الرجل في أنحاء العالم؟

رفع (غاوس) كتفيه وقال: إن ما هو مخفي في البلاد البعيدة، في الجحور، في البراكين أو المناجم، كله صدفة وغير مهم. العالم لا يتضح أكثر بهذا الشكل.

قال (هومبولدت): وهذا الرجل المنكب على المكتب يحتاج طبعا إلى امرأة تعتني به، تسخن له قدميه وتطبخ له، وكذلك إلى نسل من أطفال ينظفون له عدته، وأهل يدللونه كطفل. وبيت آمن له سقف يقيه من المطر. وقبعة حتى لا تؤلمه أذناه أبدا.

سأله (غاوس) من يعني بهذا؟

ـ كلام عام.

– في هذه الحالة، نعم. يحتاج كل هذا وأكثر وإلا كيف يتحمل رجل الحياة؟

دخل خادم وهو في ثوب النوم.

وبخه (هومبولدت) على سوء سلوكه، ألا يستطيع قرع الباب؟

ناوله الخادم وريقة وقال: إن صبيا سلمها حالاً. يبدو أنها مهمة.

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت): إنها غير مهمة. إنه لا يستلم رسائل ليلية من نكرات. تبدو كأنها مقطع شعري من كوتزبويه. فتح الورقة متقززا وقرأها. قال: عجيب. إنها قصيدة منظومة نظما سيئا، شيء ما عن الأشجار والهواء والبحر. كما يرد فيها طائر كاسر، وكذلك ملك من منطقة البحر المتوسط، ثم تنقطع. واضح أنه لم يعثر على قافية تناسب قافية فضة.

رجاه الخادم أن يقلب الورقة.

قام (هومبولدت) بقلب الورقة وقال بصوت منخفض: الهي في السماء!

عدل (غاوس) جلسته.

– يبدو أن السيد الشاب (اوجين) تورط في مصاعب. تم تهريب هذه الورقة من سجن الشرطة.

نظر (غاوس) إلى السقف غير مبال.

قال (هومبولدت): إن هذا فعلا غير مريح. إنه على الأقل موظف في الدولة.

أومأ (غاوس).

قال (هومبولدت)، إنه أيضا لا يستطيع تقديم العون. ستأخذ الأمور مجراها. بالمناسبة، القانون البروسي عادل جدا، لن يعتدي عليه أحد. من لم يرتكب جريمة، له الوثوق بالقانون.

تأمل (غاوس) غليونه.

قال (هومبولدت): إن الأمر مخجل، مزعج جدا. الولد على الأقل ضيفه.

قال (غاوس): إن الولد من يومه لا ينفع، ووضع طرف غليونه بين شفتيه.

صمتا لحظة. تقدم (هومبولدت) إلى النافذة ونظر إلى الفناء في الظلام.

ـ ليس في اليد حيلة!

قال (غاوس): فعلا، ليس فيها حيلة.

قال (هومبولدت) إن اليوم كان طويلا، وإنهما متعبان.

قال (غاوس): كما إنهما لم يعودا في أول الشباب.

مضى (هومبولدت) إلى الباب وتمنى لضيفه ليلة سعيدة.

Twitter: @ketab_n

قال (غاوس) إنه سينهي غليونه ثم ينام.

أخذ (هومبولدت) الشمعدان، وأغلق الباب وراءه.

شبك (غاوس) يديه خلف رأسه. كان الضوء الوحيد في الغرفة ينبعث من جمر غليونه. في الشارع مرت عربات تصدر ضجيجا من تصادم الصفيح. أخرج (غاوس) الغليون من فمه وأداره بين أصابعه. زم شفتيه وأصاخ السمع إلى الهواء. اقتربت خطوات وفتح الباب.

قال (هومبولدت): هذا لا يمكن. لن يقبل به.

قال (غاوس): هكذا إذن.

– لكن ليس عندهم الكثير من الوقت. سيظل (اوجين) هذه الليلة لدى الشرطة. في الصباح الباكر ستحقق معه الشرطة السرية وبعدها ستتابع حبات المسبحة. إذا أرادوا إخراجه من السجن، فيجب أن يفعلوها الليلة.

سأل (غاوس) إن كان يعرف كم الوقت الآن؟

حدّق فيه (هومبولدت) مندهشا.

– لم يسر في الشوارع في مثل هذا الوقت منذ زمن طويل، وإذا لم تخنه الذاكرة، فإنه لم يفعلها أبدا في حياته.

وضع (هومبولدت) الشمعدان على الطاولة غير مصدق أذنيه.

– حسنا. وضع (غاوس) الغليون جانبا وهو متوتّر الأعصاب، ونهض. وقال إن الخروج سيزيد طين مرضه بلة.

قال (هومبولدت) إنه يبدو في عينيه سليما.

صرخ فيه (غاوس) قائلا: هذا يكفي. الوضع سيء بما فيه الكفاية. إنه غير مضطر أن يسمح للآخرين بإهانته.

Twitter: @ketab_n

كان آمر الشرطة (فوغت) خارج البيت. زوجته المتلفعة بثوب منزلي قطني، مشعثة الشعر والوجه من أثر النوم، قالت لهما إنه جاء بعد زيارة (أكاديمية الغناء) إلى البيت قليلا ثم نودي للخروج، هناك اعتقالات كما فهمت. قبل منتصف الليل عاد إلى البيت، ارتدى ثيابه المدنية ثم خرج من جديد. هكذا يفعل مرة في الأسبوع. – لا، لا تعرف أين ذهب.

قال (هومبولدت): إذن ليس باليد حيلة. انحنى ونوى الانصراف.

قال (غاوس): بالتأكيد يوجد باليد حيلة. حدق به الاثنان متسائلين.

– بالتأكيد يوجد باليد حيلة. (هومبولدت) لم يتزوج ولهذا لا يعرف طبيعة الحياة الزوجية. إن امرأة يسهر زوجها مرة في الأسبوع خارج البيت، تعرف بالضبط أين يقضي وقته، وإذا لم يبح لها هو بسره، فإنها تعلمه رغم ذلك. يمكنها أن تسدي معروفا كبيرا لرجلين عجوزين.

قالت السيدة (فوغت) إنها ترجوهم أن يصدقوها، من غير المسموح لها أن تقول شيئا.

تقدم نحوها (غاوس) خطوة، وضع يده على ذراعها وسألها لماذا تعقد الأمور عليهم؟ هل يبدو عليه هو وصديقه أنهما من المباحث؟ مثل أناس لا يحفظون السر؟ أخفض رأسه وابتسم لها: إن الأمر مهم جدا، فعلا.

– لكن يجب ألا يعرف أحد أنهما عرفا المكان منها.

– هذا بديهي، قال (غاوس).

– إنه لا يفعل شيئا ممنوعا، كما أنه لم يفعلها إلا بعد وفاة الجدة. إنهم يعتقدون بوجود نقود مخبأة في مكان ما، لكن لا أحد يعرف أين. إنهم يحاولون كل ما باستطاعتهم.

قال (غاوس) بينما هما ينزلان الدرج إن هذا دليل آخر على أن المرأة لا يمكنها أن تحفظ السر أبدا. ما تعرفه الزوجة يعلم به الجميع. هل يستطيعان المرور على سجن الشرطة؟ يريد أن يعرف ما هو حال عديم الفائدة.

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت): إن هذا مستحيل. يجب ألا يراه أحد هناك.

– زعيم جمهوريي أوروبا يخاف من الذهاب إلى سجن الشرطة؟

قال (هومبولدت): إن زعيم جمهوريي أوروبا تحديدا يخاف من هذا. موقفه أكثر هشاشة مما يبدو للوهلة الأولى. الشهرة أيضا لا تقدم الحماية دائما. قال بصوت منخفض: إن العثور على الطريق في اورينوكو كان أسهل مما في هذه المدينة. في سجن الشرطة يفصلون السجناء بعضهم عن بعض حسب شريحتهم الاجتماعية، لكن المعلومات الشخصية ستأخذها الشرطة السرية في الصباح التالي. إذا حملا (فوغت) على أن يرسل الصبي إلى البيت هذه الليلة فلن تبقى آثار.

قال (غاوس) إنه فقد الأمل في الصبي منذ زمن بعيد. (فيبر) يعجبه أكثر.

قال (هومبولدت) إن هذا شيء لا يستطيع هو تقديره.

قال (غاوس): أغلب الظن، لا. وصمت حتى وقفت العربة.

صعدا درجا في باحة قذرة. وجب عليهما التوقف مرتين كي يلتقط (غاوس) أنفاسه. وصلا الطابق الرابع. طرق (هومبولدت) على باب الشقة. فتح لهما رجل شاحب له ذقن مدببة على شكل بصلة. كان يرتدي قميصا منقوشا بالذهب، وبنطالا مخمليا، ومداسا مهترئا.

قال الرجل: (لورينتزي). لم يفهما إلا بعد ثوان أنه يعرف بنفسه.

سأل (هومبولدت) إن كان آمر الشرطة موجودا؟

قال (لورينتزي) بألمانية متكسِّرة إنه موجود. وحضر آخرون أيضا. لكن من يريد الدخول، عليه أولا أن ينضم إلى الحلقة.

قال (غاوس) إن الإنضمام ليس مشكلة.

قال (لورينتزي) إن الحلقة يجب ألا تنقطع، يجب ألا يختلط هذا العالم بالعالم الآخر. بكلمات أخرى، دخولهما يكلفهما نقودا.

هز (غاوس) رأسه رافضا، لكن (هومبولدت) دس في يد (لورينتزي) عدة قطع ذهبية وتنحى هذا عن الباب بانحناءة متعجلة.

Twitter: @ketab_n

كان الممر مغطى ببسط بالية.

سمعا من خلال الباب نصف المفتوح نحيب صوت نسائي. دخلا.

هناك شمعة وحيدة تنير الغرفة، وعدةُ أناس جالسون إلى طاولة دائرية. كان النحيب يصدر عن فتاة في حوالي السابعة عشرة من عمرها، ترتدي قميص نوم أبيض. كان وجهها متعرقا وشعرها ملتصقا بجبينها. وعن يسارها كان آمر الشرطة (فوغت)، بجانبه رجل أصلع، وثلاث سيدات مسنات يرتدين السواد، وعدة سادة في بِزّاتٍ سود. أدارت الفتاة رأسها وتنهدت. رغب (هومبولدت) في الخروج. أمسكه (غاوس). قرّب (لورينتزي) كرسيين من الطاولة. جلسا مترددين.

قال (لورينتزي): والآن على الجميع أن يمسكوا بأيدي بعضهم بعضا.

قال (هومبولدت): مستحيل.

قال (غاوس): إن القضية ليست بهذا السوء، وأمسك يد (لورينتزي). لن يستفيدوا شيئا إذا طردوهم.

قال (هومبولدت): مستحيل.

قال (لورينتزي): مِنْ دونِ هذا لا يحق له المشاركة.

تنهد (غاوس) وتناول يد (هومبولدت) اليسرى وفي الوقت ذاته أمسكت المرأة إلى جانبه بيده الأخرى. كانت في حوالي الستين وتبدو مثل تمثال مجنون. تسمر (هومبولدت).

أرجعت الفتاة رأسها إلى الوراء وصرخت. بسبب الحركة المفاجئة انزاح قميص نومها. نظر إليها (غاوس) رافعا حاجبيه. تمطى جسمها نحو الأعلى وكأنها تنوي القفز، إلا أن الرجلين على جانبيها أمسكاها بقوة. كشفت عن أسنانها، قلبت عينيها، هزت جسمها منهنهة نحو الأمام ونحو الخلف وقالت: إنها ترى الملك (سليمان)، لكنه لم يرغب في المجيء وها هو شخص آخر يعلن عن قدومه.

قال (هومبولدت) إنه لن يتحمل المزيد.

قال (غاوس): إن المسألة في الحقيقة مسلية جدا، ثم إن الصغيرة ليست سيئة.

صرخت، دفعت جسمها بقوة نحو الخلف ولو لم يمسكها الرجال لسقطت بكرسيها.

Twitter: @ketab_n

ثم هدأت، أمالت رأسها وركزت أنظارها على الطاولة. قالت: إن أحدهم جاء. يريد عمه أن يعلمه أنه غفر له كل شيء. هناك ابن ينتظر أمه. إنها ترى (بونابرت) أيضا. الشيطان في لبوس الإنسان، يحترق في جهنم، ويسب سبابا مقذعا. إنه غير نادم على أفعاله – أدارت رأسها مصغية إلى أصوات داخلية. كان قميص النوم مفتوحا حتى أسفل صدرها، وكانت الرطوبة تلمّع بشرتها – إنها ترى أخا رجل آخر يقول إن موته كان طبيعيا وعاديا، عليهم أن يتوقفوا عن البحث في أسباب موته. ترى أم آخر. خاب أملها كليا. سيذهب كل عمله هباء، تعلم الآن أنه ما كان ينتظر إلا موتها ليعبث بحياته كأفّاق، كما أنه تظاهر آنذاك في الكهف بأنه لا يراها. ثم إنها ترى طفلا يريد إبلاغ والديه أن أوضاعه جيدة، الصالة التي يوجد فيها كبيرة جدا، إنه يطير طوال الوقت، وإذ يستطلع ما حوله فإنه لا يرى أحدا تلحق به الآلام. وتعلمهم امرأة عجوز أنها لم تخف نقودا، ولا تستطيع مساعدتهم. تنهدت الفتاة، انحنى الجميع نحو الأمام، لكن لم يصدر عنها المزيد. أصدرت صوتا مختنقا ثم رفعت رأسها، أفلتت يديها بحركة خفيفة من قبضات الرجال، عدلت قميص نومها، ابتسمت ابتسامة شاردة.

قال (غاوس): حسنا انتهى الموضوع.

نظر إليه (فوغت) مرتعبا من وراء الطاولة وقال إنه لم يلاحظهما إلا الآن.

كان (هومبولدت) شاحبا ووجهه جامدا مثل القناع. قال: كلمة واحدة إذا سمحت.

قالت السيدة التي ترتدي السواد: إن الحفلة مدهشة.

قال (لورينتزي): إنها لحظة نادرة من لحظات التواصل بين العوالم. نظر إليه الجميع معاتبين، فقد تحدث بألمانية سليمة دون لكنة إيطالية. أعاد جملته مسرعاً كما يفترض به أن يتلفظ بها. نظرت الفتاة حولها متحيرة. تطلع إليها (غاوس) باهتمام بالغ.

سأل (فوغت) إن كانا قد تبعاه؟

قال (هومبولدت): نوعا ما. عندهما رجاء. حديث على انفراد. أشار إلى (غاوس) أن يبقى في مكانه وخرج مع (فوغت) إلى الممر.

Twitter: @ketab_n

همس (فوغت) أنه جاء بسبب جدته. لا أحد يعلم أين أخفت أموالها. إنه في أزمة مالية. على الجنتلمان أن يدفع ديونه بكل الوسائل. ولهذا فهو يطرق جميع الأبواب. شد (فوغت) شاربه.

– سيقدم خدمة كبيرة للوطن. لبروسيا مصلحة عليا في التعامل مع هذا الرجل ورضاه من أعلى المصالح.

كرر (فوغت): أعلى المصالح.

قال (هومبولدت): إنهم في بلاد أخرى يقدمون جوائز على أعمال كهذه.

استند (فوغت) إلى الجدار. وقال: إن ما يتهم به هؤلاء الأولاد شأن خطير جدا. اجتماع سري مشبوه جدا. لقد ظنوا في البداية أن مؤلف (فنون ألعاب الساحة والميدان الألمانية) تكلم شخصيا في الاجتماع. والآن تبين لهم بحمد الله أن الخطيب كان أحد أولئك المتشبهين به، الذين يقطعون البلاد طولا وعرضا باسمه. على كل حال، فقد أرسلوا رسولا عاجلا إلى فرايبورغ ليتأكد من هذا.

تنهد (هومبولدت) وقال: آه من بلاء الهوية المزورة. إن اثنين من مساعديه، (داغير) و(نيبس)، يعملان على ابتكار، سيقدم الكثير في هذا في المجال. عندها ستكون لدى السلطات صور رسمية ولن يستطيع أحد بعدها الادعاء أنه من المشاهير. إنه يعرف المشكلة جيدا. قبل عهد غير بعيد في تيرول عاش رجل على حساب المجتمع أشهرا طويلة لأنه ادعى أنه (هومبولدت) وأنه يعرف كيف يمكن استخلاص الذهب.

قال (فوغت): إن الوضع بجميع الأحوال جاد. لن يقول إنه ليس بيديه شيء ليفعله. نظر إلى (هومبولدت) بعينين ملؤهما الأمل. لكن المشكلة ليست سهلة.

قال (هومبولدت): إن كل ما عليه أن يفعله هو أن يذهب إلى سجن الشرطة ويرسل الولد إلى البيت. اسمه لم يقيد بعد. لن يعلم أحد.

قال (فوغت): إن هناك خطرا في الأمر.

– خطر ضعيف.

– ضعيف أم قوي. بين المتحضرين هناك مكافأة على أشياء كهذه.

Twitter: @ketab_n

وعده (هومبولدت) ببالغ الشكر.

– يمكن التعبير عن هذا الشكر بعدة أشكال.

أكد له (هومبولدت) أنه سيعده من بين أصدقائه الدائمين. كما أنه مستعد لأي خدمة.

– خدمة! تنهد (فوغت). هناك خدمة وخدمة.

سأل (هومبولدت) ما معنى كلامه؟

تنهد (فوغت). نظرا كل منهما إلى الآخر بحَيْرة.

جاء صوت (غاوس) بجانبهما: يا ربي. ألا يفهم فعلا؟ الوقح يريد رشوة.

شحب (فوغت).

قال (غاوس) بكل هدوء إنه يريد أن يبيع نفسه. الولد القذر. الخنزير الصغير.

قال (فوغت) صارخا إنه يحفظ نفسه من اتهامات كهذه. إنه غير مرغم على سماع هذه الأقاويل.

أشار (هومبولدت) إلى (غاوس) بيديه إشارات عصبية أن ينصرف. جاء الناس من الصالون متطلعين بفضول. تهامس الرجل الأصلع والمرأة التي ترتدي السواد. نظرت الفتاة في قميص النوم من فوق أكتافهما.

قال (غاوس): بلى، إنه مرغم على سماع هذه الأقاويل. إذا كان كلبا غير شريف له ذقن، قزما طماعا، فعليه أن يتحمل الحقيقة أيضا.

صرخ (فوغت): يكفي.

قال (غاوس): لا يا سيدي، لا يكفي.

– في الصباح الباكر سيرسل مرافقيه للاتفاق على موعد للمبارزة.

صاح (هومبولدت): العياذ بالله. الحكاية كلها سوء تفاهم.

قال (غاوس) إنه سيرميهم خارجا لا بد أنهم أطفال مشاكسون، أولئك الذين سترسلهم خنفساء. سيرفسهم رفسا في أعجازهم، ويطردهم من أمام الباب.

سأل (فوغت) بصوت مختنق إن كان معنى هذا أن السيد يمتنع عن رد الاعتبار؟

Twitter: @ketab_n

– طبعا، بالتأكيد. هل وصلت الأمور إلى حد أن يطلق عليه هذا النتن الرصاص.

فغر (فوغت) فمه ثم أغلقه، كور قبضتيه ونظر إلى السقف. ارتجفت ذقنه. وقال: إذا فهم الأمور على حقيقتها، فإن ابن السيد البروفسور واقع في مشكلات. على السيد البروفسور أن يحسب حسابه بأن لا يرى ابنه عن قريب. تعثر في سيره نحو المشاجب، تناول معطفه، جر قبعة، وركض إلى الخارج.

لكن هذه قبعته هو، هتف الأصلع وركض في إثره.

قال (غاوس) مطلقا كلماته في صمت الغرفة: لم يحدث شيء. ألقى نظرة أخرى على الفتاة وسيلة الاتصال بين العوالم، ثم دفع يديه في جيوبه وغادر الشقة.

قال (هومبولدت) عندما لحق به على الدرج إن ما قام به خطأ رهيب. ما كان الرجل يريد مالا.

قال (غاوس). والله!

– لا يمكن لموظف كبير في دولة بروسيا أن يكون مرتشيا. لم يحدث مثل هذا من قبل.

– والله!

– إنه يقسم على هذا.

ضحك (غاوس).

صارا في الخارج وتبين لهما أن عربتهما غادرت المكان. قال (هومبولدت): إذن نسير على الأقدام. بالنهاية البيت ليس بعيدا، ثم إنه قطع في شبابه مسافات أطول بكثير.

رجاه (غاوس) ألاّ يفتح دفاتره القديمة لأنه لم يعد قادرا على سماع مواعظه.

نظر كل منهما إلى الآخر حانقاً، ثم سار.

قال (هومبولدت) بعد فترة: إنه العمر. في السابق كان بإمكانه إقناع الجميع. كان بإمكانه التغلب على جميع المصاعب والحصول على أي وثيقة يريدها. كانت جميع طلباته مستجابة.

لم يُجِب (غاوس). سارا صامتين.

Twitter: @ketab_n

أخيرا قال (غاوس): طيب. إنه يعترف. لم يكن تصرفه صحيحاً، لكن المسألة أثارت أعصابه تماما.

قال (هومبولدت): يجب وضع حد لمثل وسائل الاتصال هذه. لا يمكن الاقتراب من عالم الموتى بهذا الشكل. إنها وسيلة سفيهة، ومكشوفة، وغير لائقة وسوقية. لقد كبر مع الأرواح ويعرف كيف يجب التعامل معها.

قال (غاوس): مصابيح الشوارع هذه ستعمل قريبا على الغاز، ووقتها سيولي الليل إلى الأبد. لقد شاخا على عتبة عهدين من الزمن. ما الذي سيجري لـ (اوجين) الآن؟

– الطرد من الجامعة. ويحتمل السجن. وفي ظروف مشددة يمكن أيضا نفيه من البلاد.

ظل (غاوس) صامتا.

قال (هومبولدت): على المرء أن يسلم أحيانا بأنه لا يمكن مساعدة الآخرين. لقد احتاج إلى سنوات حتى اعتاد أنه غير قادر على مساعدة (بونبلاند). ولكن ليس عليه أن يظل كئيبا طوال الوقت.

– المشكلة، الآن عليه أن يُفهم (مينا). إنها متعلقة بالولد بشكل جنوني.

قال (هومبولدت): لابد مما ليس منه بد. إنها ناحية غير طيبة، إلا أنها الناحية القاسية، العنيفة نوعا ما للحياة الموفقة.

قال (غاوس) إن حياته هو انتهت. لديه بيت لا يعني له شيئا، ابنة لا يرغب فيها أحد وابن حلت عليه التعاسة. كما أن أمه لن تعيش طويلا. كل ما فعله في السنوات الخمس عشرة الأخيرة هو قياس ارتفاع عدة تلال، توقف ونظر إلى سماء الليل، نتيجة لا يعرف مبررا لشعوره بالراحة.

قال (هومبولدت) إنه هو أيضا لا يعرف مبررا، لكن حاله نفس الحال.

– ربما مازال هناك بصيص أمل. المغنطة. هندسة المكان. لم يعد رأسه كما كان، إلا أنه لم يُستهلك كليا.

قال (هومبولدت) إنه لم يزر آسيا قط. هذه ليست حياة. إنه يتساءل فجأة إن لم يكن

Twitter: @ketab_n

أخطأ عندما رفض الدعوة إلى روسيا.

– طبعا سيحتاج مساعدين جددا. لا يستطيع العمل وحده بعد. الولد الكبير في الجيش، الصغير صغير جدا، و(اوجين) لا يدخل في الحساب. لكن (فيلهلم فيبر) هذا يعجبه. كما أن زوجته جميلة. قريبا سيفرغ كرسي أستاذية في غوتنغن.

قال (هومبولدت): إن الرحلة لن تكون سهلة. ستراقب الحكومة كل خطوة يخطوها. لكن إذا كانوا يظنون أنه صار ضعيفا وسهل المراس، فهم مخطئون. لقد أقصوه عن رحلة الهند. إذن سيذهب إلى روسيا.

قال (غاوس): الفيزياء التجريبية. إنها شيء جيد. عليه أن يفكر فيه.

قال (هومبولدت) إنه بقليل من الحظ سيصل حتى الصين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيداتي، سادتي، ما هو الموت؟ إنه في الواقع ليس انطفاء الروح والثواني المعدودة في البرزخ بين العالمين، بل ذلك الضعف الممهِّد له، ذلك العجز الذي يدوم سنوات وسنوات، ذلك الوقت حيث مايزال الإنسان كائنا، ويكون في الآن ذاته غير كائن، وما يزال رغم انطفاء هالته قادرا على الإدعاء بأنه موجود. بكل هذه الأشكال، سيداتي سادتي، خططت الحياة لموتنا.

عندما انتهى التصفيق، كان (هومبولدت) قد غادر المنصة. أمام أكاديمية الغناء كان في انتظاره عربة أخذته إلى سرير موت زوجة أخيه التي ضعفت قواها بصمت ودون ألم. بين النوم والغيبوبة فتحت عينيها مرة واحدة، نظرت إلى (هومبولدت) ثم نظرت، بقليل من الخوف، إلى زوجها، كأنه يصعب عليها أن تميز بين الاثنين. بعد عدة ثوان ماتت. بعدها جلس الشقيقان متقابلين. أمسك (هومبولدت) يد أخيه الكبير لعلمه أن الموقف يتطلب هذه الحركة، لكنهما نسيا كليا بعض الوقت الجلوس منتصبين والحديث في أمور تقليدية.

أخيرا سأل الأخ الكبير إن كان يتذكر ذلك المساء الذي قرآ فيه قصة (آغير) وقرر هو أن يسافر إلى اورينوكو؟

– لقد أثبت ذلك التاريخ لأجل العالم باليوم والساعة.

قال (هومبولدت) إنه طبعا يتذكر. لكنه لم يعد يظن أن ذلك التاريخ يهم العالم في شيء، كما أنه يشك في قيمة الرحلة ذاتها. لم يأت القنال للقارة بالخير، إنه مهمل تحت أسراب البعوض كما كان دائما، كان (بونبلاند) محقا. لقد قضى حياته دون ملل على الأقل.

قال الأخ الكبير إن الملل لم يكن يعني له شيئا، كل ما كان يتمناه، هو ألا يعيش وحيدا.

قال (هومبولدت) إنه دائما كان وحيدا، إلا أنه يخشى الملل خشية الموت.

قال الأخ الكبير إنه عانى كثيرا، لأنه لم يصبح مستشارا، لقد حرمه (هاردنبرغ) من ذلك، مع أن المركز كان مقدرا له.

قال (هومبولدت): ليس هناك ما هو مقدر. يقرر الإنسان أن يخدع نفسه بقَدر ما

Twitter: @ketab_n

حتى يقنع ذاته به في يوم من الأيام. لكنه هذا القدر لا يضع الكثير من الاحتمالات في يد الإنسان، عليه أن يضع نفسه تحت قوة رهيبة لينجز كل ما يريده.

ابتعد عنه الأخ الكبير ونظر إليه طويلا.

– هل مازلنا أولئك الأولاد؟

– أنت كنت تعرف هذا؟

– دائما.

صمتا طويلا، ثم نهض (هومبولدت) وتعانقا بودّ كما هي عادتهما في التعبير عن الود.

– هل سنلتقي مرة أخرى؟

– بالتأكيد. في الظلام أو في النور.

كان مرافقوه ينتظرونه في الأكاديمية، عالم الأحياء (اهرنبرغ)، وعالم المعادن (روزه). كان (اهرنبرغ) قصيرا، وسمينا وبذقن مدببة وكان طول (روزه) يزيد على المترين ويداه رطبتان دائما. كان الاثنان يضعان نظارات سميكة. أقرهما البلاط مساعديَنْ لـ(هومبولدت). فحصوا المعدات القديمة من أيام رحلاته الاستوائية، وساعة انكليزية جديدة تعمل بدقة أكثر من ساعته الفرنسية القديمة ولأجل القياسات المغناطيسية مزواة جهزها (غامبي) شخصيا. وكذلك خيمة خالية من الحديد. ثم غادر (هومبولدت) إلى قصر شارلوتنبورغ.

قال الملك (فريدريش فيلهلم) بتثاقل إنه يرحب بهذه الرحلة إلى بلاد صهره. ولهذا فإنه يعين الياور (هومبولدت) في منصب مستشار وعلى الجميع أن يناديه بعد الآن بلقب صاحب المعالي.

اضطر (هومبولدت) للالتفات، فقد كان هيجانه قويا جدا.

– ماذا بك (الكسندر)؟

قال (هومبولدت) إن السبب هو موت زوجة أخيه.

قال الملك إنه يعرف روسيا، كما إنه يعرف أيضا صيت (هومبولدت). يتمنى ألا يسمع

Twitter: @ketab_n

بمصاعب. ليس من الضروري أن يذرف الدموع على كل فلاح بائس.

قال (هومبولدت) في نبرة باردة كأنه تعلم الجملة غيبا، إنه أكد للقيصر أنه سيشغل نفسه طوال الوقت بالطبيعة غير الحية، دون أن يبحث في الوضع الاجتماعي للطبقات الدنيا. كان قد كتب هذه الجملة مرتين إلى القيصر، وثلاث مرات إلى موظفي البلاط البروسيين.

في البيت وجد رسالتين في انتظاره. إحداهما من الأخ الكبير، يشكره فيها على الزيارة والوقوف إلى جانبه، «من يعلم إن كنا سنلتقي أم لا، الآن لم يبق لنا، كما كانت حياتنا دائما، إلا أنا وأنت. علمونا باكرا جدا أن الحياة بحاجة إلى جمهور وظننا نحن الاثنين أن جمهورنا هو العالم أجمع، وشيئا فشيئا ضاقت الحلقة وصار علينا أن نفهم أن الهدف الفعلي لجهودنا لم يكن الكون، إنما الآخر منا. بسببك رغبتُ أن أصير وزيرا وبسببي صعدتَ أعلى قمة ونزلتَ في الكهوف، لأجلك بنيتُ أفضل الجامعات ولأجلي اكتشفتَ جنوب أمريكا ولن تخطر كلمة المنافسة بيننا إلا في أذهان أغبياء لا يعرفون معنى أن يعيش المرء حياة مزدوجة. لأنك أنت كنت موجودا، كان علي أن أكون معلم دولة، ولأني موجود وجب عليك أن تكون مستكشف جزء من العالم، الجدارة كانت بالنسبة لنا أفضل إحساس بالأمان. إني أرجو ألا تحدد هذه الرسالة مستقبلنا، وإن كان المستقبل، كما قلت لي، لا يعني لك شيئا».

كانت الرسالة الثانية من (غاوس). هو أيضا أرسل أطيب التمنيات برحلة موفقة وبعض المعادلات لإجراء القياسات المغناطيسية، لم يفهم منها (هومبولدت) حرفا واحدا. كما أنه أوصاه بتعلم اللغة الروسية على الطريق. كتب له إنه شخصيا بدأ بتعلمها، وهذا ليس فقط بسبب وعد قطعه على نفسه منذ زمن بعيد. إذا صادف والتقى بشخص اسمه (بوشكين)، فيرجو ألا ينسى أن يؤكد له احترامه الشديد.

دخل الخادم وأعلن أن كل شيء جاهز، فقد علفت الخيول، وحملت المعدات، يمكن الانطلاق في الفجر.

فعلاً وجد (غاوس) في تعلم الروسية حلا لمشكلات البيت: التذمر الدائم، واتهامات (مينا)، والوجه الكئيب لابنته وكل الأسئلة عن (اوجين). كانت (نينا) قد أهدته في آخر

Twitter: @ketab_n

لقاء لهما قاموس اللغة الروسية، فقد ذهبت إلى أختها في بروسيا الشرقية، غادرت غوتنغن إلى الأبد. تساءل إن لم تكن (نينا)، وليس (يوهانا)، هي المرأة التي ملأت عليه حياته.

كان قد صار أكثر رقة. بل إنه تمكن في الفترة الأخيرة من أن ينظر إلى (مينا) دون قرف وإذا انتهى وجودها فجأة فإنه سيشعر بافتقاد شيء ما، وجهها النحيف، الشائخ، دائم الشكوى.

كان (فيبر) يكتب له رسائل كثيرة. كبرت الآمال في أن ينتقل قريبا إلى غوتنغن. سيفرغ كرسي الأستاذية، وكان لكلمة (غاوس) وزنها. قال لابنته: خسارة أنك على هذا القبح وأنه متزوج.

على طريق العودة من برلين، حيث شعر بالغثيان أكثر من ذي قبل نتيجة تأرجح العربة، أراد أن يتغلب على الغثيان بالتفكير حتى الأعماق في الارتجاف، في الاهتزاز والتأرجح، تمكن شيئا فشيئا من أن يتصور كل الجزئيات في تأثرها المتبادل. لم يساعده هذا في شيء، إلا أن مبدأ التوازن تحت الضغط صار أكثر وضوحا في ذهنه. كل حركة مفردة تتوافق مع النظام الكلي حسب الإمكان. فور وصوله في الصباح الباكر إلى غوتنغن أرسل ملاحظاته عن هذا الكشف إلى (فيبر)، الذي أعادها له مع ملاحظات في منتهى الذكاء. بعد عدة أشهر نشر مقالة وبهذا صار عالم فيزياء.

كان يقوم في ساعات العصر بجولات طويلة في الغابة. لم يعد يَتيه، فقد كان يعرف المنطقة أكثر من غيره، فهو من ثبت كل نقطة منها على الخرائط. أحيانا كان يبدو له أنه لم يكتف بمسح الأراضي، بل إنه اكتشفها، كأنها لم تصبح واقعا إلا بفضله. وحيث كانت أشجار، وفطريات، وحجارة وعشيبات، صارت بفضله شبكة من المستقيمات والزوايا والأعداد. لا توجد رقعة من الأراضي التي مسحها، لها أن تكون كما كانت قبلا. تساءل (غاوس) إن كان (هومبولدت) يفهم هذا. بدأ المطر بالهطول. احتمى بشجرة. كان العشب يرتعش، فاحت رائحة التراب ولم يكن يرغب في أن يكون في مكان آخر غير مكانه.

لم تتقدم العربات كما كان (هومبولدت) يحلم. بدأت رحلته في وقت ذوبان الثلوج.

Twitter: @ketab_n

خطأ في التخطيط، ما كان سيحدث له في أيام الشباب. كانت العربات تنغرز في الطين وتنحرف عن الطريق المبلل، اضطروا للوقوف والانتظار المرة تلو الأخرى. كانت القافلة طويلة جدا وتعداداها مبالغ فيه. حتى كونيغسبرغ وصلوها متأخرين عن الموعد المضروب. استقبل البروفسور (بيسيل) (هومبولدت) بشلال من الكلمات، قادهم إلى المرصد الفلكي الجديد وأظهر لضيوفه أكبر مجموعات الكهرمان في الدولة.

سأله (هومبولدت) إن كان قد عمل سابقا مع البروفسور (غاوس).

قال (بيسيل) إنها كانت أعظم لحظات حياته مع أن الحياة معه لم تكن سهلة. منذ تلك اللحظة، عندما نصحه أمير علماء الرياضيات في بريمن أن يترك العلم، ويصير طباخا، أو يصلح الأحذية، هذا إن لم تكن هذه الأعمال تتجاوز مستوى ذكائه، لم يستعد وعيه حتى عهد بعيد. حظه كان على الأقل أفضل من حظ صديقه (بارتلز) من بطرسبورغ الذي عانى الأمرين من الرجل. لا علاج لمثل هذا التفوق إلا بالاستلطاف.

كان الطريق إلى تيليست متجمدا، تكسرت العربات أكثر من مرة. على الحدود الروسية كان في انتظارهم عصبة من القوقاز ومعهم تعليمات بمرافقتهم.

قال (هومبولدت): إن هذا فعلا غير ضروري.

قال الآمر إن عليه أن يثق به. هذا ضروري.

– لقد قضى سنوات في البراري دون حماية.

قال الآمر إن تلك كانت البراري، وهذه هي روسيا.

على أبواب دوربوت كان في انتظارهم عشرات الصحفيين، وكذلك مجمل أعضاء كلية العلوم الطبيعية. وما إن وصلوا حتى أطلعوهم على مجموعتي المعادن والنباتات.

قال (هومبولدت) إنه سيطلع عليها بكل سرور إلا أنه لم يأت لأجل المتاحف، وإنما لأجل الطبيعة.

قال (روزه) مقدما خدماته إنه هو سيهتم بالطبيعة، يجب ألا تفشل رحلتهم بسبب هذه الصغائر، فهو يشارك فيها ليسدي الخدمات.

بينما كان (روزه) يقيس التلال حول المدينة، قاد رئيس البلدية ورئيس الجامعة

Twitter: @ketab_n

وضابطان (هومبولدت) في ممر بالغ الطول، على جانبيه غرف سيئة التهوية مليئة بعينات الكهرمان. كان في داخل إحداها عنكبوت لم يسبق لـ (هومبولدت) أن رأى له مثيلا، وفي أخرى عقرب مجنح بشكل غريب، كأنه كائن خرافي. قَرَّب (هومبولدت) الحجر من عينيه ورفت أجفانه، لكن هذا لم يساعده، فلم يعد نظره قويا. قال، لا بد أن يأخذ له رسما.

قال (اهرنبرغ) الواقف خلفه بشكل مفاجئ: بديهي. اختطف الحجر من يده وأخذه بعيدا. نوى (هومبولدت) أن يصرخ فيه ليرجع، لكنه لم يفعلها. ولو فعلها لكان تصرفا غريبا أمام أعين كل الناس. لم يحصل على رسم للعقرب، كما لم ير الكهرمان مرة أخرى. وعندما سأل (اهرنبرغ) عنه لا حقا، لم يتذكره هذا.

غادروا دروبات نحو العاصمة. كان أمامهم ساع من طرف التاج، التحق بهم ضابطان وكذلك ثلاثة بروفسورات وجيولوجي من أكاديمية بطرسبورغ اسمه (فولودين)، كان (هومبولدت) ينسى وجوده دائما، حتى إنه ينكمش على نفسه عندما يتكلم فجأة بصوته المنخفض الهادئ. كأن شيئا ما يمنع تثبيت هذا الكائن في الذاكرة أو كأنه يتقن فن الاختفاء كامل الإتقان. كان عليهم الانتظار على نهر نارفا مدة يومين حتى يذوب الجليد، فقد تزايد عددهم في هذه الأثناء بحيث كان عليهم استخدام العبارة الكبيرة لعبور النهر، وهي لا تقدر على قطعه إلا بعد ذوبان الثلج. وهكذا وصلوا بطرسبورغ متأخرين.

رافق السفير البروسي (هومبولدت) إلى حفل الاستقبال الذي أقامه القيصر على شرفه. شد القيصر على يده طويلا، وأكد له أن زيارته شرف كبير لروسيا وسأل عن أخي (هومبولدت) الكبير، الذي يتذكره بشكل واضح منذ مؤتمر فيينا.

ـ ذكرى خير؟

قال القيصر: لنقل، وأضاف أنه بصراحة كان يخشاه قليلا.

أقام سفراء أوروبا كلها حفلات استقبال لـ (هومبولدت). تناول العشاء مع عائلة القيصر عدة مرات، ضاعف وزير المالية، الغراف (كانكرين)، ميزانية الرحلة.

قال (هومبولدت) إنه شاكر، ولو أنه يتذكر بحسرة تلك الأيام، التي كان يمول فيها رحلته بنفسه.

Twitter: @ketab_n

قال (كانكرين)، لا داع للحسرة. كل حرياته مضمونة، وهذا، دفع بورقة إلى (هومبولدت)، هو مسار الرحلة المرسوم له. ستتكفل الدولة بحمايته على الطريق، سينتظره الناس في كل محطة، لقد أعْلِم محافظو الأقاليم بضرورة ضمان أمنه.

قال (هومبولدت) إنه لا يعرف، إنه يريد أن يتحرك بحريته، يجب على البحاثة أن يرتجل رحلته.

اعترض (كانكرين) مبتسما: هذا فقط إذا لم تكن لديه خطة جيدة. وهذا المخطط، إنه يعده بهذا، ممتاز جدا.

قبل السفر إلى موسكو جاءه بريد جديد. رسالتان من الأخ الكبير الذي جعلت منه الوحدة ثرثارا. رسالة طويلة من (بيسيل) وبطاقة من (غاوس) المستغرق كليا في التجارب على المغنطة. كتب فيها أنه الآن يأخذ المسألة بجدية، لقد بنى خصيصا كوخا لا نوافذ له، لا ينفذ الهواء من بابه، مساميره من النحاس غير القابل للتمغنط. في البداية عده أعضاء مجلس المدينة مجنونا، إلا أنه لم يكف عن شتمهم، وتهديدهم والبكاء بوجههم، ثم إغرائهم بعوائد كاذبة على التجارة وسمعة الدولة والاقتصاد، حتى وافقوا أخيرا، وبنوا الكوخ بجانب المرصد الفلكي. ويقضي الآن معظم وقته أمام إبرة حديدية مربوطة إلى ملفاف قوي.

كانت حركات الإبرة على درجة عالية من الضعف بحيث لا ترى بالعين المجردة فوجب نصب منظار مقرب على مرآة فوق الإبرة، ليتمكن من رؤية الاهتزازات الدقيقة على المقياس. جاءت توقعات (هومبولدت) في مكانها: تتغير شدة الحقل المغناطيسي دوريا. لكن (غاوس) كان يقيس في فواصل متقاربة، لهذا قاس بدقة أكثر وقام طبعا بحسابات أفضل. أفرحه أنه فات على (هومبولدت) أنه يجب أخذ تمدد السلك المربوط إلى الإبرة بعين الاعتبار.

ساعات وساعات كان يقضيها في مراقبة الذبذبات في ضوء مصباح زيتي. ما كانت تصل إليه همسة واحدة. وكما بينت له الرحلة في المنطاد مع (بيلاتر) آنذاك ما هو المكان، فإنه سيفهم يوما ما هو سر القلق الحادث في بطن الأرض. ما كان على المرء أن يرتقي

Twitter: @ketab_n

جبالا، أو يعذب نفسه في الأدغال. من يراقب هذه الإبرة ينظر في باطن الأرض. أحيانا كانت أفكاره تتذبذب نحو العائلة ويحن إلى (اوجين). ازدادت حال (مينا) سوءا منذ أن ضاع الولد. أصغر أبنائه سينهي المدرسة قريبا. هذا أيضا لم يكن ذكيا ذكاء استثنائيا، ولن يدرس في الجامعة بكل تأكيد. يجب على المرء أن يكون قنوعا، عليه ألا يقدر الناس أكثر من قدرهم. على الأقل كان تفاهمه مع (فيبر) يزداد، وقبل وقت قصير أرسل له عالم رياضيات روسي مقالة يشكك فيها إن كانت هندسة (اقليدس) هي الهندسة الحقيقية وإن الخطوط المتوازية قد تلتقي.

منذ أن رد عليه (غاوس) بأن هذه الأفكار ليست جديدة عليه، اعتبروه في روسيا دَعِيّا متحذلقا. عندما كان يتذكر أن آخرين سيشهرون ما كان يعلمه هو منذ زمن بعيد، كان يشعر بوخز غير معتاد في صدره. إذن، فقد كان عليه أن يصل الدرك الأسفل من العمر حتى يتعلم ما هو الطموح. بين الحين والآخر، عندما كان يحدق بالإبرة، ولا يجرؤ على التنفس كي لا يؤثر على رقصها الصامت، كان يبدو لنفسه مثل ساحر من الأزمنة السحيقة، مثل خيميائي على لوح نحاسي قديم. لكن لِمَ لا؟ فقد خرجت العلوم الحديثة من أحشاء السحر، وسيبقى فيها شيء منه إلى الأبد.

مد أمامه خريطة روسيا بحذر شديد فكر (غاوس) بضرورة توزيع أكواخ مثل كوخه في فراغ سيبيريا، يسكنها أناس موثوق فيهم، يفهمون كيف يحافظون على الأجهزة، يقضون وقتهم ساعة بعد الأخرى أمام المنظار ويعيشون حياة هادئة ويقظة. (هومبولدت) قادر على التغلب على الإجراءات الإدارية وربما كان قادرا على تنفيذ هذه الفكرة أيضا. عندما انتهى من قائمة الأماكن التي سيضع فيها أكواخه، شق ابنه الصغير الباب وجاءه برسالة. هجم الهواء على الكوخ، طارت الأوراق في أنحائه، تذبذبت الإبرة بحركات عنيفة وضرب (غاوس) الصغير صفعتين لن ينساهما قريبا. لم تهدأ البوصلة إلا بعد نصف ساعة من السكون المطلق والانتظار، حيث تجرأ (غاوس) على التحرك وفتح الرسالة. كتب (هومبولدت) أن عليه تغيير خططه، أنه غير قادر على الحركة كما يشاء، لقد رسموا له مسارا محدودا، يبدو أن الخروج عليه لن يكون محمود العواقب، يحق له القياس على هذا

Twitter: @ketab_n

المسار فقط، ويحاول أن يضبط حساباته بناء عليه. رمى (غاوس) الرسالة حزينا ومبتسما. للمرة الأولى شعر بالشفقة على (هومبولدت).

توقفت الحياة كلها في موسكو. قال رئيس البلدية: يستحيل أن يتابع ضيف الشرف زيارته مباشرة. سيان إن كان الوقت مناسبا أم لا، المجتمع ينتظره، لا يمكنه أن يحرم موسكو مما منحه لبطرسبورغ. وهكذا اضطر (هومبولدت) هنا أيضا لزيارة حفل عشاء كل مساء، بينما كان (روزه) و(اهرنبرغ) يجمعان عينات الحجارة في محيط المدينة. رفعت الأنخاب، بأصوات عالية، صاح مرتدو الفراك بحياة الملوك والقيصر ونفخ الموسيقيون في آلات صاخبة. ومراعاة لمشاعره كان أحدهم يكرر عليه السؤال إن كان كل شيء على ما يرام؟

– نعم، كان جوابه دائما وهو ينظر إلى غروب الشمس. ويضيف: القضية أن الموسيقى لم تعن له شيئا أبدا، وهل ينبغي أن تكون عالية إلى هذه الدرجة؟

بعد أسابيع سمحوا لهم بمتابعة السفر إلى الاورال. كان المزيد من المرافقين قد انضم إليهم ودام انتظارهم يوما كاملا حتى أعدت كل العربات للسفر.

قال (هومبولدت) لـ (اهرنبرغ): إن هذا غير معقول، لن يصبر عليه، هذه لم تعد رحلة استكشافية.

تدخل (روزه) قائلا: إنه لا يمكن للمرء أن يحقق دائما ما يريده هو.

سأل (اهرنبرغ): وعلاوة عليه، ما المانع؟ الناس كلهم ناس أذكياء، قديرون وقد يرفعون عنه مشاق الأعمال التي لا يقدر عليها هو.

احمر (هومبولدت) غضبا، لكن قبل أن يقول شيئا تحركت العربة، وضاع جوابه في صخب العجلات وقرقعة الحوافر.

حدد عرض نهر الفولغا بالسدسية عند نيجيني نوفغورود. نظر ساعة بكاملها عبر العدسة، هز الإيذادة، دمدم بحسابات. راقبه المرافقون بكل احترام. قال (فولودين) لـ (روزه): كأن المرء يشهد رحلة في الزمن، كأنه دخل في كتاب من كتب التاريخ، هذه لحظة جليلة، تكاد الدموع تطفر من عينيه.

أخيرا أعلن (هومبولدت): أن عرض النهر يبلغ خمسة آلاف ومائتين وأربعين فاصلة

Twitter: @ketab_n

سبعة أقدام.

قال (روزه) متشفيا : طبعا.

قال (اهرنبرغ): مائتان وأربعون فاصلة تسعة إذا أردنا الدقة. رغم هذا عليه الاعتراف بأن النتيجة جيدة جدا نظرا لوسائل القياس العتيقة.

في المدينة تم تقديم خبز وملح وصحن ذهبي إلى (هومبولدت) وأُعلن مواطن شرف. كان عليه الخضوع للدعوات للاستماع إلى جوقة أطفال موسيقية، والمشاركة في أربعة عشر حفل استقبال رسمي، وواحد وعشرين حفلا خاصا، قبل أن يسمحوا له بركوب الفولغا في سفينة مرافقة. ألح قرب قازان على القيام بقياس شدة المغناطيس. أمر بنصب الخيمة الخالية من الحديد في العراء، رجا الحفاظ على الهدوء، حَبَا إلى الخيمة وشد البوصلة إلى الكُلّاب المخصص لها. احتاج زمنا أطول من المتوقع، لأن يده كانت ترتجف، كما بدأت عيناه تدمعان من أثر الريح. ناست الإبرة مترددة، هدأت، تسمرت عدة دقائق. ثم بدأت تنوس من جديد. تذكر (هومبولدت) (غاوس) الذي يقوم بنفس العمل على مسافة تبعد بمقدار سدس محيط الكرة الأرضية. «المسكين، لم يشاهد شيئا من العالم». ابتسم (هومبولدت) ابتسامة صفراء وفجأة شعر بالشفقة على (غاوس). نقر (روزه) على الخيمة وسأل إن كان له الانتهاء بسرعة أكبر؟

مروا في رحلتهم بقافلة من السجينات يخفرها فرسان يحملون حرابا. أراد (هومبولدت) التوقف والحديث معهن.

قال (روزه) إن عليه أن ينسى هذا.

وافقه (اهرنبرغ): لا تفكر في الأمر من أساسه. قرع على السقف وتابعت العربات المسير، وبعد دقائق ابتلع غبارها قافلة السجينات.

في برم، كان (هومبولدت) قد اعتاد الأمر، جمع (روزه) و(اهرنبرغ) الحجارة بينما تناول هو العشاء مع المحافظ. كان للمحافظ أربعة إخوة، وثمانية أبناء، وخمس بنات، وسبعة وعشرون حفيدا وتسعة أبناء أحفاد وعددا غير واضح من أبناء العمومة. حضروا جميعا وأرادوا الإصغاء إلى حكايات عن البلاد على الطرف الآخر من البحر. قال

Twitter: @ketab_n

(هومبولدت) إنه لا يعلم شيئا، لا يتذكر شيئا إلا قليلاً، أقصى أمنياته هي دخول السرير.

في اليوم التالي أعطى تعليماته بضرورة تقسيم مجموعات الحجارة والنبات إلى قسمين: يجب الاحتفاظ بنموذجين من كل عينة ونقلها على انفراد.

قال (روزه): لكنهم يعملون منذ عهد بعيد بهذه الطريقة.

قال (اهرنبرغ): طوال الوقت.

قال (روزه): لا يعمل أي باحث عاقل بطريقة مختلفة، فبالنهاية يعرف الجميع تعليمات (هومبولدت).

وصلوا إلى يكاترينبورغ. كان التاجر الذي نزل عنده (هومبولدت) يرتدي مثل جميع الرجال معطفا طويلا وحزاما وله ذقن. عندما عاد (هومبولدت) متأخرا من حفل الاستقبال الذي نظمه المحافظ، أراد مضيفه أن يشرب معه كأسا. رفض (هومبولدت). بدأ الرجل بالبكاء كالطفل، ضرب على صدره وصاح بفرنسية سيئة إنه تعيس، تعيس، تعيس ويريد أن يموت.

قال (هومبولدت) منقبض الصدر: طيب، لكن كأسا واحدة فقط.

أرهقت الفودكا (هومبولدت) بحيث اضطر للمكوث في السرير مدة يومين. لأسباب لم يدركها أحد وضعت الحكومة مجموعة حرس قوزاق أمام البيت، واستحال إقناع ضابطين بعدم الشخير أثناء النوم في زاوية من غرفة (هومبولدت).

عندما استطاع الوقوف على قدميه، أخذه (اهرنبرغ) و(روزه) و(فولودين) إلى منجم الذهب. السؤال الذي كان يشغل بال مدير المنجم (اوسيبوف)، هو كيف يتغلب على مشكلة المياه في جوف المنجم قاد (هومبولدت) إلى سرداب يفيض بالماء. كان الماء يصل إلى مستوى الخصر ويطلق رائحة عفنة. نظر (هومبولدت) متذمراً إلى بنطاله المبلل.

ـ يجب ضخ المياه بشكل أفضل.

قال (اوسيبوف) مهموما إنه لا يوجد لديهم مضخات كافية.

قال (هومبولدت)، إذا فهم في حاجة إلى المزيد منها.

سأله (اوسيبوف) من أين يدفعون ثمنها؟

Twitter: @ketab_n

قال (هومبولدت) بملل: مياه فائضة أقل، ويمكن وقتها استثمار المزيد.

تطلع إليه (اوسيبوف) متسائلا.

– وهكذا تعوض المضخات ثمنها، أليس كذلك؟

فكر (اوسيبوف) في الأمر ملياً، ثم أمسك (هومبولدت) من كتفيه وشده إلى صدره.

على الطريق أصيب (هومبولدت) بالحمى. آلمته حنجرته، ولم تعد أنفه تتوقف عن (السيلان). – زكام، قال وشد غطاءه القطني على جسده. سأل إن لم يكن الحوذي قادرا على القيادة بسرعة أقل؟ إنه لا يرى شيئا من غابات الصنوبر.

قال (روزه) إنه آسف. لا يمكن طلب هذا من حوذي روسي، هم تعلموا القيادة بهذه السرعة، ولم يتعلموا طريقة أخرى.

لم يتوقفوا إلا قبل الوصول إلى جبل المغناطيس. وسط سهول فيسوكاياغورا ظهرت كتلة صخرية من فخار أبيض يميل إلى الصفرة، دارت إبر البوصلات حول نفسها وبدأ (هومبولدت) الصعود. وبسبب الزكام كان التسلق أصعب من الأيام السالفة، اضطر عدة مرات للاستناد على (اهرنبرغ) وعندما أراد التقاط حجرة، آلمه ظهره أشد الألم، بحيث طلب من (روزه) أن يتكفل بجمع عينات الحجارة. لكن لم يكن له حاجة بهذا الطلب، لأن مدير معمل الحديد المحلي كان ينتظرهم على القمة ليسلمهم صندوقا فيه عينات مرتبة بعناية فائقة. شكره (هومبولدت) بصوت مبحوح. شدت الريح لفاحه القطني.

سأل (روزه) إذن، هل لهم النزول الآن؟

في معمل الحديد اقتيد إليه ولد صغير، قيل إن اسمه (بافل). قال رئيس المنجم إنه أبله وعمره أربعة عشر عاما. لكنه عثر على هذا الحجر. فتح الصغير يده القذرة.

قال (هومبولدت) بعد فحص مستفيض ودقيق: إنه ألماس، لا جدال فيه.

انطلق الجميع في فرح غامر. ربت بعض رؤساء العمال على أكتاف بعضهم. رقص العمال، بدأت جوقة الرجال بالغناء من جديد. صفع أكثر من عامل (بافل) تعبيرا عن المودة، إلا أنها كانت صفعات قوية جدا.

قال (فولودين): ممتاز، لم يُمض إلا عدة أسابيع في روسيا وها هو يكتشف أول قطعة ألماس

Twitter: @ketab_n

فيها، في لحظات كهذه يشعر المرء بضربة المعلم.

قال (هومبولدت) إنه ليس من عثر عليها.

قال (روزه) مؤنبا: إذا سمح لنفسه بإبداء ملاحظة، الأفضل له ألا يكرر هذه العبارة أبدا.

قال (اهرنبرغ): توجد حقيقة سطحية وحقيقة أعمق، والألماني خاصة يعرف هذا.

سأل (روزه) إن كان يطلب منه الكثير، إذا أعطى للناس لحظة ما يريدونه هم؟

بعد عدة أيام لحق بهم فارس مرهق تماما حاملا رسالة شكر من القيصر. لم يتحسن زكام (هومبولدت). عبروا التايغا المغطاة بسحابات البعوض. كانت السماء عالية جدا والشمس تبدو كأنها لا تريد الغروب أبدا، بحيث غدا الليل مجرد ذكرى مبهمة. كان البعيد بمستنقعاته المعشبة، بأشجاره المنخفضة والأنهار المتعرجة كالأفاعي يصب في بخار أبيض. أحيانا، عندما كان (هومبولدت) يستيقظ فزعا من نوم الثواني ويرى أن مؤشر الكرونومتر قد قفز ساعة أخرى نحو الأمام، يرى السماء بسحبها المتليفة والشمس التي لا تتوقف عن الاحتراق، السماء التي تتمزق في أقواس، تقسمها الفوالق، وتنحرف مع زاوية نظره كلما حرك رأسه.

سأله (اهرنبرغ) متربصاً به إن كان بحاجة إلى غطاء آخر؟

قال (هومبولدت) إنه طوال عمره لم يحتج إلى غطاء ثان. إلا أن (اهرنبرغ) مد له غطاء دون أن يتأثر بكلماته، ثم تغلب الضعف على الضيق، وتناوله (هومبولدت)، شد الغطاء القطني الناعم على جسده وسأل عن المسافة المتبقية إلى توبولسك، ربما ليصمد في وجه النوم.

قال (روزه): إنها بعيدة جدا.

قال (اهرنبرغ): كما أنها ليست بعيدة أيضا. هذه البلاد واسعة بشكل خارج عن نطاق العقل، بحيث لا يبقى للمسافات معنى. الأبعاد تضمحل وتصير رياضيات مجردة.

لاح لـ (هومبولدت) في هذا الجواب بعض التطاول، لكنه كان مرهقا فلم يقدر على التفكير فيمَ يكمن التطاول. تذكر أن (غاوس) حدثه ذات مرة عن طول مطلق، وعن

Twitter: @ketab_n

مستقيم لا يمكن إضافة شيء إليه، ويتمدد رغم أنه نهائي، بحيث تغدو الأبعاد مجرد جزء منه. خلال عدة ثوان في البرزخ بين اليقظة والنوم شعر بأن لهذا المستقيم علاقة ما مع حياته هو، وأن كل حياته كانت ستتضح له، وتتبين لو أدرك ما هي هذه العلاقة. بدا له الجواب قريبا. أراد أن يكتب إلى (غاوس). إلا أنه راح في النوم.

حسب (غاوس) أن (هومبولدت) لن يعيش أكثر من ثلاث أو خمس سنوات أخرى. فقد انشغل منذ وقت قصير في إحصائيات الوفيات من جديد. كان العمل تكليفا من صندوق التأمين، جيد الأجر وعلاوة عليه ليس عديم الأهمية من الناحية الرياضية. تَوّا حَسَب توقعات أعمار معارفه القدماء. إذا أحصى لمدة ساعة عدد الناس المارين بالمرصد الفلكي، كان له أن يخمن كم منهم سيدخل تحت التراب بعد عام، أوبعد ثلاثة أعوام، أو عشرة!

قال: هذا، ما يجب على المنجمين أن يعرفوه إذا كانوا ماهرين.

قال (فيبر): يجب عدم الحط من قدر النجوم والكواكب، إن علما متكاملا يجب عليه أن يعرف كيف يستغلها هي أيضا في مجاله، كما يبدأون الآن باستغلال قوة كالفن. وعلاوة عليه فإن تابع شدة الاحتمالات لا يغير شيئا في الحقيقة البسيطة: أن لا أحد يعلم متى يموت. الصدفة تأتي دائما للمرة الأولى.

رجاه (غاوس) ألا يردد الحماقات. وأكد أن زوجته (مينا) ستموت قبله لأنها مريضة، ثم ستموت أمه، وبعدها يموت هو. هذا ما تقوله الإحصاءات وهذا ما سيكون. ثم حدق لحظة عبر المنظار المقرب بالمقياس الملمتري فوق جهاز الاستقبال، إلا أن الإبرة لم تتحرك. لم يرد عليه (فيبر). يحتمل أن النبضات ضاعت من جديد في الطريق.

هكذا كانا يثرثران كثيرا. كان (فيبر) يعمل وسط المدينة في مركز الفيزياء أمام بكرة أخرى لها إبرة مماثلة. كانا يتبادلان إشارات كهربائية في مواعيد معينة. حاول (غاوس) قبل سنوات أن يقوم بنفس العملية مع (اوجين) والهليوتروب، لكن الولد ما كان قادرا على تعلم الألفباء الديادية. أما (فيبر) فعد هذا اختراعا لا مثيل له، ليس على البروفسور إلا أن يعلن عنه ليصبح غنيا ومشهورا.

Twitter: @ketab_n

قال (غاوس) إنه مشهور كفاية وغني أيضا في الواقع. ثم إن الفكرة قريبة جدا إلى الأذهان لدرجة أنه يريد أن يترك أمر اكتشافها لأحد الأغبياء.

وبما أن (فيبر) لم ينطق بكلمة، فقد نهض (غاوس)، وشد قبعته المخملية على رقبته وخرج للتنزه. كانت السماء مغطاة بسحب متقاطعة وتوقع هطول المطر.

كم انتظر إشارة منها أمام جهاز الاستقبال؟ إذا كانت (يوهانا) في الخارج تماما مثل (فيبر)، لكنها أبعد قليلا وفي مكان آخر، فلماذا لا تستغل فرصة الاتصال به؟ إذا كان الموتى يأتون ويذهبون عن طريق فتاة في قميص النوم، فلماذا يعرضون عن معدّاته الممتازة؟ رف جفن (غاوس). لم تعد عينه سليمة. بدت له قبة السماء مشققة. شعر بأولى قطرات المطر. ربما لا يتكلم الموتى لأنهم يعيشون في واقع أشد واقعية، لأن الواقع الأرضي يبدو لهم حلما أو نصف حقيقة، لغزا حلّوه منذ زمن بعيد، سيكون عليهم الانخراط فيه من جديد إذا أرادوا أن يتحركوا ويتكلموا فيه. بعضهم يحاول هذا. الأذكياء يستغنون عن المحاولة. جلس على صخرة. سالت قطرات المطر على رأسه وكتفيه. سيأتي الموت كمعرفة يقينية عن اللاواقع. وقتها سيفهم ما المكان والزمان، ما طبيعة الخط المستقيم، ما هو جوهر الأعداد. وربما فهم أيضا لماذا يبدو لنفسه اختراعا غير متقن تماما، نسخة عن إنسان غير واقعي ابتدعه مخترع ضعيف في عالم غريب من الدرجة الثانية. تطلع حوله. طار في محيط الشمس شيء يلتمع على خط مستقيم، هناك في الأعالي. لاح له الشارع أمامه أعرض بكثير، اختفى سور المدينة عن الأنظار، وارتفعت بين المنازل أبراج زجاجية تعكس نفسها. هرولت في الشارع كبسولات معدنية كطوابير النمل. صخب غامض ملأ الفضاء، تعلق تحت السماء، بل بدا أنه يصعد من الأرض المرتجة ارتجاجا خفيفا. صار للهواء طعم حامض. فاحت رائحة الحريق. كما كان هناك شيء غير مرئي لم يتمكن من حسابه: تيار كهربائي لا يدرك إلا من خلال شعور خفيف بعدم الراحة، يدرك من خلال التأرجح في الواقع ذاته. انحنى (غاوس) إلى الأمام وبحركته ارتفع كل ما يحيط به، استيقظ على صرخة رعب. نهض شيئا فشيئا، ورجع مسرعا إلى المرصد الفلكي. الشيخوخة تعني أيضا أن يغفو الإنسان في كل مكان.

Twitter: @ketab_n

كان (هومبولدت) قد نام في عربات كثيرة، جرّتها خيول كثيرة جداً وشاهد سهولاً كثيرةً جداً مغطاة بالأعشاب، كأنها السهل ذاته أبدا، وآفاقاً واسعة جداً كأنها الأفق ذاته دائما، بحيث أنه بدا لذاته غير واقعي. ارتدى مرافقوه أقنعة للوقاية من هجمات البعوض، إلا أن الحشرات لم تزعجه، بل ذكرته بأيام شبابه وبالأشهر التي كان يشعر فيها بأنه في قمة النشاط. كانت أعداد خفرائهم قد ازدادت، حوالي مائة فارس كانوا يتجولون معهم بسرعة بالغة في التايغا، بحيث لم يعد لديهم وقت للقياس والجمع. لم تحدث معهم إلا مشكلة واحدة فقط في اقليم توبولسك، حيث دخل (هومبولدت) في حديث مع قافلة سجناء بولنديين رغم استنكار الشرطة، ثم اختفى عن الأنظار، صعد هضبة ونصب تلسكوبه. بعد دقائق حاصره جنود. سألوه عمَّ يفعله؟ لماذا يوجه أنبوبا نحو المدينة؟ حرره مرافقوه إلا أن (روزه) زجره أمام الجميع قائلا إن عليه البقاء عند الخفر، «ما هذه التصرفات الصبيانية؟». مع الزمن كبرت مجموعتهم. في كل مكان كان بانتظارهم بحاثة وسلموهم عينات نباتات وحجارة كتبوا عليها محتوياتها بكل عناية. أهداهم بروفسور جامعة أصلع يضع نظارات دائرية، أنبوبا دقيقا جدا فيه أثير فضائي، قال إنه فصله عن الهواء بأجهزة تصفية معقدة جدا. كان الأنبوب ثقيلا جدا يصعب حمله بيد واحدة، محتواه يشع سوادا كالحا، بحيث تختفي الأشياء عن العيان في محيطه – يجب تعليب هذه المادة بحذر شديد، قال البروفسور ومسح زجاجاته المتعرقة، فهي قابلة للاحتراق السريع. أما فيما يتعلق به، فقد فكك مخبره، كما لم يعد هنا شيء من المادة، وينصح بدفنها عميقا في الأرض. كما أن الأفضل ألا ينظر المرء إليها طويلا، فهذا غير صالح للنفس.

مع الوقت تكاثرت الأكواخ الخشبية ذات الأسقف المائلة، ازداد شبه أعين الناس باللوز، ازدادت خيام البدو القرغيزيين. قبل الحدود تقدمت نحوهم كتيبة قوزاق بتحية عسكرية، رفرفت الرايات، دق طبل. ساروا عدة دقائق في أرض محرمة ثم حياهم ضابط صيني. ألقى (هومبولدت) خطبة عن الصباح والمساء، عن الشرق والغرب، وعن الإنسانية كوحدة متكاملة. ثم تكلم الصيني. لم يكن هناك مترجم.

قال (هومبولدت) لـ (اهرنبرغ) بصوت منخفض إن له أخا درس حتى هذه اللغة.

Twitter: @ketab_n

رفع الصيني يديه مبتسما. أهداه (هومبولدت) صرة قماش زرقاء، أعطاه الصيني رقا ملفوفا. فتحه (هومبولدت)، وجد فيه نقوشا، وحدق منزعجا في العلامات المرسومة.

همس (اهرنبرغ) إن عليهم العودة الآن، ما يجري هنا خارج عن حدود صبر القيصر، يستحيل عليهم تجاوز الحدود.

في طريق العودة مروا بمعبد قلموقي. قال (فولودين) إن لديهم هنا طقوسا تقبض النفس، لابد لهم من استطلاعها.

قادهم خادم معبد محلوق الرأس يرتدي ثوبا أصفر إلى الداخل. كان بانتظارهم لاما قصير يرتدي ثوبا أصفر وأحمر. تحدث اللاما مع خادم المعبد بالصينية وتكلم هذا مع (فولودين) بروسية متكسرة.

ـ سمع أن سيأتيهم رجل يعرف كل شيء.

احتج (هومبولدت) بأنه لا يعرف أي شيء، لكنه قضى حياته ليغير هذه الواقعة، لقد اكتسب بعض المعارف، وجاب أنحاء العالم. هذا كل ما لديه.

ترجم (فولودين) وخادم المعبد ما قاله. ابتسم اللاما. ضرب بقبضته على بطنه السمينة وقال: دائما هذا هنا.

– سأل (هومبولدت): عفوا ماذا؟

قال اللاما: هنا في الداخل تكبر وتقوى.

قال (هومبولدت) إن هذا تماما ما بحث عنه دائما.

لمس اللاما بيده الناعمة كيد الطفل صدر (هومبولدت) وقال: لكن لا شيء هنا. من لا يفهم هذا يظل محتارا، يسعى في العالم كالعاصفة، يهز كل شيء ولا يترك أثرا.

قال (هومبولدت) بصوت عاجز إنه لا يؤمن بلاشيء. إنه يؤمن بالامتلاء وغنى الطبيعة.

قال اللاما: إن الطبيعة لا تخلّص، إنها تتنفس اليأس.

سأل (هومبولدت) محتاراً: إن كان فولودين قد ترجم ترجمة صحيحة.

جاوبه (فولودين): اللعنة، من أين له أن يعرف؟ ليس لكل هذا الحوار من معنى.

Twitter: @ketab_n

سأل اللاما إن كان (هومبولدت) قادرا على بعث الحياة في كلبه؟

قال (هومبولدت) إنه آسف، لكنه لا يفهم هذا الكلام المجازي.

تشاور (فولودين) مع خادم المعبد، ثم قال: إنه ليس مجازا. توفي كلب اللاما أمس الأول، دعسه أحدهم خطأ. رفع اللاما جسمه وقال إنه يرجو (هومبولدت) الذي يعده عارفا بكل شيء أن يستعيد الحيوان من عالم الأموات.

قال (هومبولدت): إنه لا يستطيع هذا.

ترجم (فولودين) وخادم المعبد. انحنى اللاما نحو الأمام. وقال إنه يعلم أن العارفين لا يفعلون هذا إلا نادرا، لكنه يرجو أن ينال هذه الحظوة لدى (هومبولدت)، فقلبه شديد التعلق بالكلب.

أعاد (هومبولدت) الذي بدأ يشعر بالدوار من بخار الأعشاب إنه حقا لا يستطيع هذا. إنه لا يستطيع أن يستعيد أي شيء أو أي شخص من عالم الأموات.

قال اللاما إنه يفهم ما الذي يريد الرجل العالم أن ينبئه به.

هتف (هومبولدت) إنه لا ينبؤه بأي شيء، إنه بكل بساطة لا يستطيع.

قال اللاما: مفهوم. هل يسمح له الرجل العاقل بأن يقدم له كأس شاي.

نصحه (فولودين) بالحذر، قائلا إنهم في هذه البقاع يضعون في الشاي زبدا زنخا. وإذا لم يكن المرء معتادا عليه فإن معدته تنقلب.

رفض (هومبولدت) شاكرا وقال إنه لا يتحمل شرب الشاي.

قال اللاما إنه يفهم هذه الرسالة أيضا.

هتف (هومبولدت): لا توجد أي رسالة.

قال اللاما: مفهوم.

انحنى (هومبولدت) متردداً وكذلك فعل اللاما. ثم اتخذوا طريقهم من جديد.

قبل اورنبورغ التحقت بهم سرية قوزاق أخرى مؤلفة من مائة جندي لحمايتهم من غارات قطاع الطرق. كان عددهم قد بلغ خمسين مسافرا في اثنتي عشرة عربة بخفارة مائتي جندي. كانوا يسافرون دائما بأقصى سرعة، ورغم رجاء (هومبولدت) لم يسمح

Twitter: @ketab_n

لهم بالتوقف.

قال (روزه): إن الموقف خطير جدا.

قال (اهرنبرغ): إن الطريق بعيدة.

قال (فلودين) مازال أمامهم الكثير.

في اورنبرغ كان في انتظارهم ثلاثة سلاطين قرغيزيين، سافروا في حاشية ضخمة ليلتقوا بالرجل الذي يعرف كل شيء. سأل (هومبولدت) بصوت مرتعش إن كان له تسلق بعض التلال، الصخور هنا تعجبه أشد الإعجاب، كما أنه لم يقس ضغط الهواء منذ زمن بعيد.

قال (اهرنبرغ): لاحقا، الآن وقت اللعب.

في المساء السابق لمتابعة الرحلة تمكن (هومبولدت) من قياس شدة المغناطيس في غرفته خفية. في الصباح التالي شعر بألم في ظهره ومُذْ ذاكَ كان يسير منحني الظهر بعض الشيء. بكل رفق ساعده (روزه) على صعود العربة. عندما مروا بقافلة سجناء أرغم نفسه على عدم النظر إليهم.

في استراخان صعد (هومبولدت) أول سفينة بخارية في حياته. دفع محركان دخانا نتنا في الهواء. اندفع الجسد الفولاذي للسفينة بصعوبة وعلى كره منه في البحر. تلألأ الزبد في الفجر ضعيفا. رَسَوْا على جزيرة بالغة الصغر. كانت أقدام عناكب التارانتل تبرز من تحت الرمل. عندما كان (هومبولدت) يلمسها، كانت العناكب تتقلص إلا أنها لا تهرب. دوّن بعض الملاحظات مع سعادة بسيطة. قال إنه سيكتب عنها مقالا مطولا في كتاب رحلته.

قال (روزه) إنه يشك في هذا. هو المكلف بوصف الرحلة، ليس على (هومبولدت) أن يشغل نفسه بهذه الأشياء.

قال (هومبولدت) إنه يريد أن يكتب بنفسه.

قال (روزه) إنه لا يزاحم، لكن الملك كلفه.

أقلعت السفينة وبعد وقت قصير اختفت الجزيرة عن الأنظار. أحاط بهم ضباب كثيف. لم يعودوا يميزون بين الماء والسماء. كانت رؤوس كلاب البحر تطفو وحدها بين

Twitter: @ketab_n

الحين والآخر. وقف (هومبولدت) في مقدمة السفينة، يحدق أمامه ولم يبد رد فعل عندما قال (روزه): إن وقت العودة قد حان.

ـ العودة؟ إلى أين؟

قال (روزه): إلى الساحل أولاً، ثم إلى موسكو وبعدها إلى برلين.

قال (هومبولدت): إذن هذه هي الخاتمة، المفترق، الانقلاب النهائي؟ لن يسير أبعد؟

قال (روزه): ليس في هذه الحياة.

تبين أن السفينة خرجت عن مسارها. لم يحسب أحد حساب ضباب كهذا، لم يكن الربان قد اصطحب خرائط، لم يعد أحد يعرف أين تقع اليابسة. أبحروا دون هدف، كان الضباب يبتلع كل الأصوات عدا صوت المحركات. أصبح الوضع بالتدرُّج خطرا. قال الربان، الوقود لن يكفيهم إلى الأبد وإذا ساروا بعيدا جدا فلن يستطيع إلا الرب مساعدتهم. تعانق (فولودين) والربان، بدأ عدة بروفسورات بالسكر وانتشر مزاج مشرب بالنواح. ذهب (روزه) إلى (هومبولدت) في مقدمة السفينة وقال إنهم يحتاجون الآن مساعدة الملاح الأكبر، سيموتون دونه.

قال (هومبولدت): ولن يعودوا أبدا؟

أومأ (روزه) بالإيجاب.

قال (هومبولدت): يختفون بكل بساطة، يبحرون في عز الحياة في بحر الخزر ولا يعودون أبدا؟

قال (روزه) : بالضبط.

– يتحدون مع البعيد، يختفون نهائيا في الطبيعة التي حلم بها في طفولته، يدخلون لوحة، يخرجون ولا يعودون أبدا؟

قال (روزه): بالتأكيد.

– إلى هناك. أشار (هومبولدت) إلى اليسار، حيث يبدو اللون الرمادي أنصع قليلا وتخترقه صخور بيضاء.

ذهب (روزه) إلى الربان، وأشار له إلى الاتجاه المعاكس. وبعد نصف ساعة وصلوا

Twitter: @ketab_n

إلى الساحل.

في موسكو حضروا أكبر حفل باليه شاهدوه في حياتهم. ظهر (هومبولدت) في فراك أزرق. هدأت القاعة وألقى الضابط (غلينكا) قصيدة بدأت بحريق موسكو وانتهت.بمقطع عن البارون (هومبولدت): بروميثيوس الزمن الجديد. دام التصفيق أكثر من ربع ساعة. عندما أراد (هومبولدت) أن يتحدث عن مغناطيسية الأرض بصوت مبحوح وهياب، قاطعه عمدة الجامعة ليهديه خصلة من شعر رأس بطرس الكبير. همس (هومبولدت) في أذن (اهرنبرغ): ثرثرة وهذر، وليس علما. وفكر بأن عليه أن يعلم (غاوس) أنه الآن يفهم أكثر.

قال (غاوس): «أعرف أنكم تفهمون. كنتم دائما تفهمون يا صديقي المسكين، أكثر مما عليكم أن تفهموا». سألته (مينا) إن كان يشعر بالمرض؟ رجاها أن تتركه على راحته قائلا إن كل ما فعله هو التفكير بصوت عال. كان مزاجه مستثارا سلفا بسبب الصيني المبتسم الذي حدق فيه طوال الليل، مثل هذه الآداب لم تكن مقبولة حتى في الأحلام. وعلاوة عليه فقد وصلته مقالة حول هندسة النجوم، أرسلها له صاحبه القديم (مارتين بارتلز). «إذن فقد تفوق علي بعد كل هذه السنوات»، قال (غاوس) وشعر أنها ليست (مينا) من ترد عليه، إنما (هومبولدت) المسرع في عربة مسرعة نحو بطرسبورغ يقول: هكذا هي الحياة وإذا عرفناها على حقيقتها فإنها كأنما يعيشها آخرون أو لا يعيشها أحد. ماذا تقصدون بهذا، سأل القيصر الذي كان بصدد تعليق شريط وسام سانت آنا في رقبة (هومبولدت) وتوقف فجأة عن الحركة. بسرعة أكد (هومبولدت) أنه لم يقل سوى إنه يجب عدم تعظيم إنجازات العالم، البحاثة ليس خالقا، إنه لا يبتكر شيئا، ولا يربح أرضا، ولا يطرح ثمرا، ولا يحصد ولا يزرع، وسيتبعه آخرون يعرفون أكثر، ثم آخرون يعرفون أكثر بكثير، حتى يغرق كل شيء في النهاية.وضع القيصر الشريط على كتفه مقطب الجبين، وصاح الجميع عاش عاش وعلت هتافات يحيا و(برافو) وبذل (هومبولدت) جهدا لئلا يقف محني الظهر. قبلها، وهو يصعد الدرجات الفخمة، لاحظ الأزرار المفتوحة لقميص الفراك الذي كان يرتديه، واضطر محمر الوجه أن يرجو (روزه) ليغلق له أزراره لأن أصابعه

Twitter: @ketab_n

متخشبة في الفترة الأخيرة. في هذه اللحظة تموهت الصالة الذهبية أمام عينيه، ولمعت الثريات كأن ضوءها يأتي من مكان آخر، كان الجميع يصفقون وكان شاعر داكن البشرة يلقي قصيدة بصوت ناعم. تمنى (هومبولدت) لو يحكي لـ (غاوس) عن تلك الرسالة التي كانت تنتظره بعد عام من الترحال في بطرسبورغ. كتب فيها (بونبلاند) وهي مبقعة ومجعدة إن أيامه تمضي ثقيلة وبطيئة، صغر حجم عقاره ولا يحوي الآن سواه هو والبيت والحقل حوله، وكل ما في الخارج صار ملكا لعالم الرئيس المريب. لقد عقل، لم يعد لديه أمل ويتوقع الأسوأ، ووجد هدوء روحه كما يقال. «أحن إليك يا صديقي العجوز، لم ألتق بأحد يحب النباتات كما تحبها». انكمش (هومبولدت) على نفسه، كان (روزه) قد لمس عضده. نظر إليه كل المجتمعين حول اللوحة الكبيرة. نهض، إلا أنه فكر طوال خطبته المضطربة في (غاوس). كان البروفسور سيرد عليه على هذا النحو: «بونبلاند هذا منحوس حقا، لكن هل نستطيع نحن أن نشكو؟ لم يفترسكم أحد آكلي لحم البشر، لم يقتلني غبي. أليس من المخجل أن تكون حياتنا بهذا اليسر؟ وما يحدث الآن هو شيء كان يجب أن يحدث سابقا. لقد مل منا مخترعنا». وضع (غاوس) الغليون جانبا، شد القبعة المخملية على مؤخرة رأسه، وضع القاموس الروسي الصغير وكتيب (بوشكين) في جيبه، واستعد ليتمشى قبل العشاء. آلمه ظهره، وأوجعته بطنه وطنت أذنه. ورغم هذا لم تكن صحته سيئة. فقد مات الآخرون بينما مازال هو قادرا على التفكير، صحيح أنه ليس ذلك التفكير المعقد كما من قبل، لكن ذهنه يكفي لما هو ضروري. فوقه كانت ذرا الأشجار تتمايل، في البعيد لاحت له قبة مرصده الفلكي، في أواخر الليل سيذهب إلى المنظار، وسيلاحق شريط درب التبانة باتجاه ضباب المجرة البعيد، هذا بحكم العادة، وليس لاكتشاف شيء جديد. تذكر (هومبولدت). تمنى لو أنه يتمنى له عودة حميدة، لكن لا أحد يعود عودة حميدة، إنما يعود دائما أضعف قليلا من قبل وفي النتيجة لن يعود أبدا. ربما كان الأثير الذي يطفئ الضوء موجودا فعلا. – طبعا هو موجود، فكر (هومبولدت) في عربته، إنه يحمله معه في إحدى العربات، إلا أنه لا يتذكر أين؟ إنها مئات الصناديق وقد ضاعت عليه الأمور. فجأة حوّل وجهه إلى (اهرنبرغ). – «الوقائع!». «ها ها، الوقائع!» قال

Twitter: @ketab_n

(اهرنبرغ).. كرر (هومبولدت): الوقائع، إنها تبقى، سيدونها كلها. كتاب ضخم مليء بالوقائع، كل وقائع العالم في كتاب وحيد أوحد. كل الوقائع والوقائع وحدها، كل الكون في صياغة جديدة، مجردا من الحماقات هذه المرة، ومن الأوهام، والأحلام والضباب. قال بصوت غير واثق: قد تقدر الوقائع والأرقام على إنقاذ الإنسان. حين يتذكر مثلا أنهم قضوا ثلاثة وعشرين أسبوعا في الطريق، وقطعوا أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ وباتوا في ستمائة وثمان وخمسين محطة بريد، وتردد، استخدموا اثني عشر ألفا ومائتين وأربعة وعشرين جوادا، هكذا ينتظم التشويش في شيء مفهوم ويتشجع المرء. لكن بينما كانت أولى ضواحي برلين تعدو على جانبي العربة و(هومبولدت) يتصور (غاوس) ناظرا من تلسكوبه إلى الأجرام السماوية، التي يقدر على تحويل مداراتها إلى معادلات رياضية بسيطة، لم يعد يعرف من منهما توغل في العالم أبعد ومن ظل قابعا في البيت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الشجرة

عندما اختفى الساحل عن عيني (أوجين)، أشعل أول غليون في حياته. لم يكن طعمه مستساغا، إلا أنه قد يعتاد عليه. صار له لحية وللمرة الأولى لم يتصور نفسه طفلا صغيرا. مر عهد بعيد على ذلك الصباح التالي لاعتقاله. كان آمر الشرطة ذو الشارب قد اقتحم غرفته وضربه صفعتين قويتين خلعتا فكه. بعد قليل بدأت جلسة التحقيق. سأله رجل بالغ التهذيب، يرتدي معطفا، بصوت حزين لماذا فعل ما فعله؟ لقد أدخل نفسه في مطبخ الشيطان عندما قاوم الشرطة، هل كان هذا ضروريا؟

هتف (اوجين) قائلا إنه لم يقاوم.

سأله الشرطي السري إن كان يتهم شرطة بروسيا بالكذب؟

رجاه (اوجين) أن يتصل بوالده. سأل الشرطي السري متنهدا، إن كان يظن فعلا أن هذا لم يحدث من زمن طويل؟ انحنى نحو الأمام، أمسك أذني (أوجين) بحذر ورفق وضرب رأسه على الطاولة بكل قوة.

عندما استعاد (اوجين) وعيه، كان راقدا في سرير نظيف الشراشف في طرف قاعة لها نوافذ بقضبان في المستشفى. قالت له ممرضة هرمة: هذا ليس واحدا من تلك الأماكن السيئة، لا يحول إلى هنا إلا النبلاء، أو من لهم علاقات، عليه أن يشكر ربه.

حوالي المساء ظهر الشرطي السري المهذب من جديد: لقد رتبت الأمور. سيغادر البلاد. لقد اتخذوا إجراءات ترحيله إلى الناحية الأخرى للبحر.

قال (اوجين) إنه لا يعرف. تلك البلاد بعيدة جدا.

رد الشرطي: في الواقع هذا ليس اقتراحا، لا مجال للنقاش، ولو كان يعرف من أي مصير يتخلص لبكى من الفرح.

في المساء جاء والده. جلس على طرف السرير وسأل كيف له أن يفعل هذا بأمه؟

قال (اوجين) مختنقا بدموعه إنه لم يكن ينوي أي شيء مما حدث، لم يكن يعلم شيئا، لا يريد أن ينفوه.

قال والده: ما تم قد تم. ربت شاردا على كتفه ودس مالا تحت مخدته. وأضاف أن

Twitter: @ketab_n

البارون رتب له كل شيء، وإنه رجل صالح وإن كان مجنونا بعض الشيء.

سأل (اوجين) من أين سيعيش؟

رفع والده كتفيه وسأله إن كانٍ قد فكر في قياس الأراضي؟

– الأراضي! لماذا؟

قال والده مفكّراً: معادلات الكرة، عليه أن يعمل بها. انتفض ونظر إلى (اوجين) كأنه يستيقظ من حلم. وأضاف أنه سيتمكن من تدبير أمره بشكل من الأشكال. ثم شد (اوجين) إلى صدره بقوة حتى ارتطم فكه بكتف الأب، تخدر (اوجين) عدة ثوان من شدة الألم. عندما اتضحت الدنيا حوله، كان والده قد ذهب. في هذه اللحظة. فهم أنه لن يراه إلى الأبد.

وصل الميناء بعد ثلاثة أيام. أثناء انتظار إقلاع العبّارة نحو انكلترا دخل في حديث مع ثلاثة تجار، شباب طيبين، غير شديدي الذكاء، يعملون في بنك أسس حديثا، وتحدوه في لعب الورق. ربح اللعبة. ربح في البداية قليلا، ثم ربح المزيد والمزيد وربح في النهاية مبلغا كبيرا، حتى عدوه محتالا واضطر للاختفاء بسرعة، مع أنه لم يفعل سوى أن تذكر أوراق اللعب بطريقة جوردانو برونو، التي كان والده قد علمه إياها. ليس على المرء إلا أن يتصور كل ورقة على شكل حيوان أو إنسان، وكلما كان الكائن المتخيل أبشع كان ذلك أفضل للذاكرة، وبذلك تنتظم الأوراق في قصة. إذا تمرن المرء سيحفظ لعبة عدد أوراقها اثنان وثلاثون ورقة في ذاكرته. آنذاك لم يتمكن من تعلم الطريقة، مما اضطر والده للتسليم شامتا لاعنا. لكن الحكاية جرت معه الآن بكل سهولة.

في حانة أخرى شرب كثيرا. بدا له الهواء من حوله كأنه يلمع، وشعر بخدر لذيذ في أعضائه. كانت رغبته في النوم حادة جدا، حتى كاد لا يرى الشابة الجميلة التي جلست فجأة بجانبه. عندما اقترب منها أدرك أنها في الواقع لم تعد في قمة الشباب، كما أنها لم تكن جميلة أيضا، لكن عندما كذب وقال ليس لديه مال، سألته مهانة إن كان يعدها واحدة من أولئك النساء؟ أخذها معه إلى غرفته في النزل. فكر في الطريق إلى الغرفة إن كان من اللائق أن يخبرها أنها أول امرأة في حياته وأنه لا يعرف كيف يتصرف؟ إلا أن المسألة كانت سهلة

Twitter: @ketab_n

جدا وعندما أحس في الغرفة شبه المظلمة بيدها على وجنته شعر بسعادة وتعب، وأوشك أن ينام على إثرهما، ولم يعد يهمه إن كانت شابة وكيف هو مظهرها، وعندما اتضح له في الصباح التالي أنها أخذت كل ما كسبه، لم يتمكن حتى من الشعور بالغضب. كم تغدو الحياة سهلة عندما ينطلق فيها المرء.

ثم وصل إلى انكلترا فوجد أناسا غرباء، ولغة لها أصوات عجيبة، ولوائح بأسماء أحياء غريبة وطعام عجيب. لم يصدق أن ملايينا تعيش في لندن. «مليون إنسان! مستحيل».

وصلته، في نزله، رسالة من (هومبولدت)، ينصحه فيها بركوب واحدة من السفن البخارية المبتكرة حديثا. ويعطيه إرشادات عن الطريقة المثلى للتعامل مع المتوحشين: يجب أن يبدو المرء لطيفا ومهما، وعليه ألا ينكر تفوقه عليهم، وألا يغفل أن يظهر علمه لهم، إن الإعجاب بجهل الآخرين شكل من أشكال الاحتقار. شعر (أوجين) بالرغبة في الضحك. كأنه سيسكن مع المتوحشين. لم تصله كلمة واحدة من والده. في الليل لم يكن ينام بسبب الوحدة والحنين إلى البيت. أخذ أول سفينة بخارية بقي فيها مكان لراكب واحد.

لم يكن على سطح السفينة الكثير من الركاب، فالسفن البخارية كانت قد بدأت رحلاتها عبر المحيط قبل عهد قصير، وكانت شيئا جديدا لأغلب الناس. كانت السماء منخفضة وغائمة، انطفأ غليون (أوجين)، أراد أن يشعله من جديد، لكن الريح كانت قوية جدا. دعاه الربان، الذي سمع أن (اوجين) يفهم شيئا في الرياضيات، إلى قمرة القيادة.

سأله إن كان يهتم أيضا بالملاحة؟

قال (أوجين): البتة.

قال الربان: إن الغيوم الداكنة كانت في السابق مشكلة كبيرة، لكنهم اليوم يركبون البحر دون الاستدلال بالنجوم، الآن عندهم ساعات دقيقة. مع كرونومتر هاريسون، يمكن لأي هاو أن يدور حول العالم.

سأل (أوجين): إذن، فقد ولى زمن الملاحين الكبار؟ لم تعد أسماء مثل (بليغ) و(هومبولدت) مهمة؟

Twitter: @ketab_n

فكر الربان. استغرب (أوجين): لماذا يحتاج الناس إلى فترة طويلة من التفكير حتى ينطقوا بجواب. فسؤاله لم يكن صعبا. وأخيرا قال الربان: ولى عهدهم، ولّن يرجع أبدا.

لم يستطع (اوجين) أن ينام بسبب القلق وشخير الإيرلندي الذي ينام معه في الحجرة. في الليل هاجمهم إعصار. ضربت الأمواج الفولاذ بقوة رهيبة، حتى ناحت المحركات. عندما وصل (أوجين) متعثرا إلى السطح، لطمه زبد الأمواج بقوة فكاد يسقط في البحر. عاد إلى حجرته هاربا مبللاً جداً. قطع الإيرلندي صلاته. وقال بفرنسية ضعيفة إن له عائلة كبيرة، هو مسؤول عنها، عليه ألا يموت. كان والده قاسي القلب وغير قادر على حب أي شيء. توفيت والدته مبكرا وها هو الرب يأخذه هو أيضا إلى جواره.

قال (اوجين) إن أمه مازالت حية، والده أحب أشياء كثيرة، إلا هو. ولا يظن أن الرب يريده بجواره.

في الصباح التالي هدأ المحيط كبحيرة كبيرة. انحنى الربان على خرائطه مدمدما، نظر عبر السدسية واستطلع ساعة هاريسون. وقال إنهم خرجوا كثيرا عن المسار والآن عليهم تحميل وقود جديد.

لهذا رسوا في تينيريفا. كان الضوء ساطعا، راقبهم طائر ببغاء بفضول من شرفة دار جمارك أسست حديثا. نزل (اوجين) إلى اليابسة. صرخ رجال بأوامر ما، حُملت صناديق، كان هناك نساء في ثياب خفيفة، يسرن بخطوات قصيرة هنا وهناك. طلب متسول صدقة، لكن (اوجين) لم يكن يملك شيئا. فُتِح قفص وانطلق منه قطيع من صغار القردة صارخة كانفجار في كل الاتجاهات. ترك (اوجين) المرفأ وراءه، وذهب باتجاه قبة بركانية بادية من بعيد. تساءل: كيف سيكون شعوره لو وقف على القمة؟ لابد أن المشهد سيكون واسعا جدا والهواء نقيا.

وعلى حافة الطريق شاهد علامة حفرت فيها صورة جبل بجانبه رجل يرتدي لفاحا ومعطفا ويضع قبعة اسطوانية. فك (اوجين) رموز الكتابة لكنه لم يتمكن من قراءة اسم الرجل. جلس على صخرة، ونفخ دخان غليونه، وتطلع إلى الصورة التي على الصخرة. توقف مواطن يرتدي بونخو وقبعة قطنية، لوح بيديه، هتف بشيء ما بالإسبانية، أشار إلى

Twitter: @ketab_n

الأرض، وإلى الأعالي، وإلى الأرض من جديد. كانت حشرة زاحفة لها أقدام طويلة جدا تتسلق بنطال (أوجين). تطلع حوله. كل هذه النباتات الجديدة. ترى ما هي أسماؤها؟ من ناحية أخرى من يعبأ بها؟ إنها مجرد أسماء.

وصل إلى حديقة مسورة مفتوحة الباب. كانت النباتات المتسلقة تغطي جذوع الأشجار، وزقزقة آلاف العصافير تنتشر في الفضاء. قرب السور المبني حديثا شجرة ثخينة جدا. لحاؤها مُجرّح وقاسٍ وفي أعلاها كانت الأغصان تنتشر على شكل غابة. استظل (اوجين) بظلها بتردد. واستند إلى جذعها وأغمض عينيه. عندما فتحهما من جديد، رأى أمامه رجلا يحمل فأسا راح يشتمه. ابتسم (اوجين) ليسكن ثورته. – قال: لا بد أن الشجرة معمرة جدا، دق البستاني الأرض بقدمه، وأشار له إلى المخرج. رجا (اوجين) المعذرة، وقال: إنه أراد أن ينال قسطا من الراحة، وظن للحظة أنه شخص آخر أو لا أحد، إنه مكان مريح جدا. رفع البستاني فأسه مهددا، فهرب (اوجين) مسرعا.

أقلعت السفينة البخارية في الصباح الباكر، بعد عدة ساعات اختفت الجزيرة عن الأنظار. ظل المحيط هادئا عدة أيام حتى ظن (اوجين) أنهم لا يتحركون. إلا أنهم صاروا بمرور الوقت يمرون بسفن منفوخة الأشرعة، كما مروا بسفينتين بخاريتين. ذات ليلة ظن (اوجين) أنه يرى لمعانا يتراقص في البعيد، لكن الربان نصحه بألا يعبأ به لأن للبحر أيضا خيالاته، يبدو أنه أيضا يحلم كالبشر.

ثم علت الأمواج، وطلع طائر مشعث من الضباب، صرخ وهو غاضب، ثم اختفى من جديد. سأل الايرلندي (اوجين) إن كان يرغب في مشاركته في فتح متجر، أو شركة صغيرة؟

قال (اوجين): لم لا؟

قال الإيرلندي إن له أختا. لا شريك لها. إنها غير جميلة، لكنها تجيد الطبخ.

قال (اوجين): الطبخ! جيد.

دس آخر ما تبقى من تنباك في الغليون، ذهب إلى مقدمة السفينة وظل واقفا بعينيه اللتين أدمعتهما الريح حتى تجلى له شيء ما في بخار المساء، كان يظهر ويختفي بداية. لم

Twitter: @ketab_n

يكن واقعا، إلا أن ظهوره صار يقوى، وجاوبه الربان ضاحكا: لا، هذه المرة ليس خداعا بصريا، كما إنه ليس برقا، إنها أمريكا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

ولد دانييل كيلمان في عام 1975 في مدينة ميونخ ويعيش اليوم في فيينا. يعد هذا الكاتب الشاب من أشهر وأهم أدباء الرواية باللغة الألمانية. حازت أعماله الأدبية على العديد من الجوائز الأدبية منها كانديده – برايس والجائزة الأدبية لمؤسسة كونراد اديناوير شفتونغ ودوديرير برايس وكذلك أيضاً على كلايست برايس وفيلت لتراتور برايس الأدبية.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجم:

كاميران حوج، ولد عام 1968 في تل عربيد بسوريا. يقيم منذ 1996 في ألمانيا. درس الآداب الألمانية والعلوم الإسلامية في جامعة بوخوم (ألمانيا). من ترجماته: في خطو السرطان، لغونتر غراس 2006، والعطر لباتريك سوزكند 2007.

Twitter: @ketab_n

مسح العالم

ليست الرواية التي بين أيدينا سردا جميلا لسيرة حياة عالمين كبيرين فقط ،بل إنها تروي أصول الكثير من معارفنا الحديثة، وتتوغل عميقا في نفس الإنسان العالم، لتكشف لنا كثيرا من خباياها بأسلوب شيق ومرح، تمتزج فيه المرارة بالسخرية، سحر العالم الجديد وملل العالم القديم، ثورة الشبيبة على المجتمع القديمة، وإمكانية تأثر العالم العقلاني بالخرافة والتنجيم.

بهذا الكتاب أصبحت المكتبة العربية تملك تحفة أدبية هامة، تعد من أفضل إبداعات الأدب الألماني بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة وأن الكتاب قد ترجم حتى الآن إلى أكثر من 41 لغة، ويعد من أكثر الكتب الأدبية الألمانية نجاحا بعد الحرب العالمية الثانية.

ISBN 978-9948-01-405-8

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
كلمة KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة